حميدة قطب

نداء إلى الضفة الأخرى

دار الشروق

نداء إلى الضفة الأخرى

الطبعـة الأولى

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

[التوبة : ٢٤]

الإهـــــداء

إلى الذين يسيرون فى أدغال الشوك ويخوضون بركة الدماء . .
إلى الذين يحاصرهم العالم ، ويحاول بقواه مجتمعة أن يحكم عقدة الحبل حول رقابهم . . إلى الذين يواجهون وحدهم ، بأيد فارغة وقلوب عامرة ، عالما تعفّن جوفه ، حتى الدماء فى عروقه . . يتلهفون على إنقاذه قبل أن ينفق ؛ فيواجههم بدناءة الذئب ، وضراوة النمر ، وخسة الضبع !

إلى الذين يجدون كتابا بين دفتين ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ؛ فيدفعون أرواحهم وأعمارهم رخيصة لرفع رايته . . إلى أحباب رسول الله ﷺ ، الذين ودَّ لو يراهم . . أهدى هذه المجموعة الثانية من الأقاصيص ؛ تحكى عن بعض ألوان المعاناة فى الطريق الطويل إلى رضوان الله وجنته . . وإلى أخرى يحبونها : «نصر من الله وفتح قريب» . . لعلها تعين الخطى فى الطريق الطويل . .

حميدة قطب

المقدمـة

بسم الله الرحمن الرحيم: «يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم».

ما من مرة مررت على هذه الآيات الكريمة وأنا أتلو كتاب الله قبل تلك التجربة الثرية التى اختار الله أن يضعنى فيها بفضله؛ إلا وأخذت بأعماق قلبى تهزه هزا، واشرأبت تطلعات نفسى إلى فضل الله هذا، وتمنيت أن يمن الله علىّ يوما بهذا «الجهاد»؛ ذلك الذى لم تكن مشاعرى تدرك له صورة محددة، والذى يرتفع بالإنسان العادى مثلى إلى مقام حب الله وتفضيله!

لكن الآيات، على الرغم مما كانت تثيره فى قلبى وتحركه من مشاعرى، ما كانت لتفصح لى عن مكنوناتها، وما أعظم ثراء تلك المكنونات! . . فقط كانت هزات وجدان وتطلعات قلب يتلهف على محبة من الله؛ وإلى مرد إليه آمن، وكان «فضل الله» ـ على سعته التى كشفت لى عن مكنوناتها الواسعة فيما بعد ـ شيئا محببا لطيفا يضيء به القلب، ولكن أغواره الثرية المفعمة بعشرات التفاصيل، كل

واحدة منها عالم مضيء، وكل جزء فيها مفهوم ناصع من مفاهيم هذا الدين الحنيف؛ نابض فى كيان الحياة للإنسان المؤمن . . هذه الأغوار الثرية لم تكن تبين لى معالمها، ولم يكن يرتادها فكرى المحدود التجربة، ولم يكن يسلك إليها الطريق قلبى القاصر عن إدراك المعانى الكبار وهو غارق فى لين العيش الرتيب الآمن وروتينه السخى!

ثم . . ثم أراد الله، وتفضل علىّ وعلى أسرتى بفضله العظيم، فإذا بنا فى ليلات قليلة داجية، تدفع بنا اليد الحكيمة إلى ساحة هذا الفضل الكريم؛ إلى ساحة رهيبة من ساحات الجهاد، ؛ فى زمن هو أقرب إلى زمن «محاكم التفتيش»! . . زمن تكالبت فيه قوى الكفر فى الأرض تحاول إطفاء نور الله والتمكين لظلمة الشر أن تستحكم ويكون لها السلطان على أرض الله!

كانت التجربة ـ بالنسبة لى ـ هائلة حقا!

بدأت فى حسى «محنة»! . . محنة مهولة مدمرة، يديرها وينسج خيوطها الأثيمة العدو الكافر، يسحق بها المؤمنين ويقطع شأفتهم! . . وانتهت فى مشاعرى «منحة ربانية» مفعمة بفضل الله، غنية بالعلم، ثرية بالمكنونات الزكية، توضح المعالم وتنير الطريق وتشحذ الهمم وتزكى النفوس!

بدأت صرخات قلب ودفق دموع، وجروحًا تثعب دما فى أغوار الوجود الحى فى كيانى، وفزع قائل يؤرق لحظات العيش ويفرى عصب الحياة! . . وانتهت إدراكا واعيا وصبرا جميلا ويقينا واغلا وفهما عميقا واسعا لآيات الله ومقتضيات الإيمان ومطالب

الطريق ! . . انتهت وعيا ومعرفة بسنن الله المبثوثة فى كونه وفى آيات كتابه، وفى تاريخ الصراع الأزلى بين الحق والباطل، منذ كان الإنسان والشيطان وكان الحق والباطل، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ! . . ثم انتهت رضاء مشرقا باجتبائه سبحانه للمؤمنين، ويقينا لا يتزعزع بالحق، ورؤية ناصعة تقود الخطى فى طريق الوصول .

* * *

هناك فى الساحة الدامية . . ساحة النيران والعذابات والشوك، حيث يخرج الإنسان من نطاق العيش ويخرج من أقطار العالم المأهول كله . . هناك، يجد نفسه عاريا من كل حول، مجردا من كل قوة، فى مواجهة أمر الله وقدره؛ لا يملك شيئا على الإطلاق؛ لا يملك أن يقضى أبسط حوائجه إلا بتيسير من ربه ييسره له بصورة مباشرة لا تسترها الأسباب التى تخفى عن الخلق فى حياتهم الدنيا مَنْ وراء الأسباب! وهو مسبب الأسباب!

. . حينها يتعرف الإنسان ـ ربما لأول مرة فى دنياه ـ على حقيقة ذاته؛ مجردة صورتها من زخارف الدنيا جميعها؛ تلك التى أتته من عند الله، الذى قدر أن ينزعها عنه جميعها فى لحظة واحدة فإذا هو عار من كل ما تلبسه من كبرياء!

. . حينها يلجأ الإنسان إلى عبوديته الحقة لله؛ يتعرف عليها بأعماق وجوده؛ ويتعرف بأعماق روحه على ألوهية ربه ورب الكون العظيم!

.. وحينها يتعرف على ضخامة آلائه وتعدد نعمائه، التى وهبته ذلك الكم الهائل من النعم التى استمتع بها دهرا ولم يشعر بها، ولم يقدم حمدا لمعطيها يكافئ أقلها!

وهناك.. حين يقف الإنسان عاجزا يواجه مصيره لحظة إثر لحظة؛ لا يملك تقدير لحظته الآتية له غير الله؛ حين يتعلق القلب به يدعوه لاهفا أن يعصم اللحظة الآتية، المغيبة وراء ستر الغيب لا ينفذ إليها بصره.. يعصمها من نيران العذاب وأهوال الكرب وخوف السقوط.. حينها تتساقط عنه أوهام قدرته، وعنجهية قوته، وسخافات كبريائه!.. عندها يوقن أن لا ملجأ من الله إلا إليه؛ يعرف أن الاحتياج إلى فضل الله يدق وجود هذا المخلوق ـ العاجز المتكبر ـ فى كل لحظة من لحظات وجوده!

وهناك حين تنزاح كل أوهاق الدنيا ومشاغلها وأحلامها، وأوهام أمانيها.. حين يفرغ القلب المؤمن إلا من قضية واحدة تصير هى قضيته الكبرى، وحين يستيقن المسلم من اختيار الله له ليكون من ذلك الرهط الكريم الذى حمل الأمانة الكبرى فى مسيرة البشر، حين يغدو واحداً من جند هذا الحق الهائل الذى قامت عليه السموات والأرض، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة.. هناك يتقاصر الطريق بين قلب المؤمن وبين ربه، هناك تمحى كثافة الحجب، ويتفتح القلب لوهج النور، وتعتدل الموازين، وتخف جواذب الطين حتى تكاد أن تتلاشى!.. وهناك تتفتق آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس عن ذخائرها وتدفق فى القلب من كنوزها؛ وهناك تفصح آيات كتاب الله الكريمة عن مكنوناتها، فيدركها الوعى ويفعم بها القلب!

نعـــم . . هناك تتـجـلى حـقـائق الإيمـان فـلا تغـدو «أفكـارا» يلـوكها الذهن ، أو يصدق بها العقل ويعتـرف بصحتـها القلب ؛ كـلا . . وإنما هى نبض قلب وأعـماق وعـى يضىء السبل ويكشف الغبش ، وسلوك يواجه ضلال الضُلاَّل مهما عتوا بغير خوف ؛ ويواجه المصير مهما ادلهم بغير رهبة ؛ لأنه الطريق . . لأنه الحق الذى لا حق غيره ولا مواربة فيه . . ولأن المصائر كلها ـ مصيره ومصير أعدائه سواء ـ فى يد واحدة . . يد من يملك المصائر وحده ! . . لأن القوة الزائفة التى يملكها الجبروت الغاشم لا تستطيع أن تقضى بغير ما كتبه الله فى لوحه المحفوظ ، فقد جفت الأقلام ورفعت الصحف منذ زمان بعيد ! . . ولأن القـوة الزائفة التى يملكها الطاغوت ضعيفة هزيلة مهما بدا جبروتها لأنها مقطوعة عن مصدر القوة ؛ القوة التى بيدها ملكوت كل شىء ! . . ولأنه هو . . بكل أوهاق ضعفه وبكل تجرده من كل سلاح أرضى . . هو قوى بقوة الحق الأزلى . . قوى باتصاله بتلك القوة العظمى التى بيدها ملكوت كل شىء ! . . يجد مصداق ذلك فى كلمة حق يجابه بها الضُلال وهو أعزل بين أيديهم ؛ يبدو بها الخزى على وجوههم ؛ يحاولون جاهدين أن ينسبوا أنفسهم إلى «الحق» فلا تبلغ دعواهم أطراف ألسنتهم . . هناك يتعرف القلب على مصداق قوله سبحانه : «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» !

وهناك يدرك القلب المؤمن معنى الآيات الكريمة التى تقـول : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» . . يدرك مسيرة التاريخ لهذه الأمة وما انتابها من وهن ومن خلل ؛ فيدرك أعباء رحلة الصعود ! . . يدرك

مقصود الآية الكريمة حين تتقدم كلمة «القوة» مطلقة بغير نعت ؛ ثم تتبعها بواو العطف والجمع قوة العتاد الحربي فتقول : «ومن رباط الخيل»! . . هناك يعرف المؤمن منابع القوة ومكامنها فيعرف طريقه . . يعرف من أين يبدأ ومن أين يجب أن تنطلق المسيرة . . من أين يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله ، ومن أين يجب أن يتحرك الدعاة!

وهناك يعرف عدوه وتتحدد في علمه ملامحه . . يعرفه في قوله سبحانه «ترهبون به عدو الله وعدوكم» . . يعرف أن عدوه الأوحد هو عدو الله . . يعرف أن عداوته ومحبته ، حربه وسلمه ، ولاءه وبراءه ، لا ينطلق إلا من هذا المنطلق ولا ينبثق إلا من هذا الأصل الكبير . . حينئذ تتحدد في حسه طبيعة المعركة ومجالها وتزول من فوق قلبه غشاوة ذلك الغبش الكبير الذى ران عليه في سنين القحط! . . حينئذ تتركز قواه ويبين له هدفه ، فلا تتشتت بعد مسيرته ، ولا تتوه قدمه فيخبط في السبل ويضيع جهده ويمحى أثره!

وهناك يدرك معنى أمر الله له بأن يتبع صراطه المستقيم وحده ولا يتبع السبل فتفرق به عن سبيله . . يعرف كيف ابتلعت «السبل» الملايين في غبارها الكثيف وكيف تكون طريق النجاة! . . يعرف معنى توجهه إلى قبلة . . قبلة واحدة لا تتغير إليها الطريق! . . هنالك يدرك معنى وجوده . . معنى جهاده . . معنى عذاباته . . وهناك تشرق بها روحه ولو اكتوى بها الجسم والقلب . . هنالك يعرف طريقه فلا يبغى عنه بديلا ، ويهتدى إلى منابع قوته فلا يضيع في ضعفه وجهله!

وهكذا وهكذا تتفتق الآيات الكريمة للقلب المفتوح عن عبقها الكريم! . . وهكذا وهكذا يُلقّى الدرس العلوى بعد الدرس . . وهكذا تتم فى ذلك المحضن الربانى عملية هدم هائلة وبناء! . . هدم لركام جاهلية تلوث بنثارها كيان الإنسان المسلم فى أيام الضياع لأجيالنا المغزوة المهيضة . . وبناء مفاهيم حق كانت قد طمرت فى جهالة الظلام الذى طغا فى زمان غفلتنا!

وهكذا تتم هناك صياغة الإنسان المسلم الجديد الذى يعرف فى أعماقه ربه؛ ويعرف فى ظروف عيشه عصره؛ فيعرف كيف تستقيم طريقته . .

ذلك ما يحتاج إليه المسلم فى هذا العصر الغارق فى ضلال أكداس المفاهيم والقيم والسلوك والممارسات الجاهلية . . هذه الصياغة التى لابد منها للميلاد الجديد التى تحتاج فى عيش السلم إلى جهاد شاق مع النفس وإلى جهد شاق من الدعاة، ينضجها الزمن المحدود هناك فى تلك المدرسة الربانية؛ والقلب يخوض فى أدغال الشوك، وتتناوشه النيران من كل صوب!

ذلك ما تحاول جاهدة أن تحكى لمحات منه هذه الأقاصيص فى هذه المجموعة الثانية؛ ملتزمة بالصدق، صدق الحدث وصدق الشعور، الذى التزمت به منذ أول الطريق مع المجموعة الأولى التى سبقت هذه: (رحلة فى أحراش الليل)، لا تلوى رقاب الأحداث من أجل التكوين الفنى، كما أنها لا تحاول أن تختلق مشاعر لم تعشها التجربة .

رجائى إلى الله أن أكون قد وفقت إلى تصوير ما أحببت أن أبرز من معان حملتها فى طياتها تلك التجربة الثرية التى منَّ الله بها على المؤمنين، فكانت وراء هذا التفجر الرائع للصحوة . . فإن كنت قد أفلحت فى ذلك؛ فذلك بفضل من الله وما توفيقى إلا به، وإن لم أصب الهدف فحسبى أنى حاولت جهدى، والله اللطيف الخبير يغفر لى قصورى، ويهيىء لطريق الحق من يقوم عليه بفضله ورحمته .

حميدة قطب

نـزهــة قصيرة

الجسـد، شديد النحول، ممددا فوق الحشية الصغيرة المتآكلة، وفوقه تتكاثف الطبقات، كل متاعها فى هذه الدار تلتف به لتخفف من نبح آلام العظام . . ثوب قديم وفوطة وجه، وثوب شتوى قصير يلف الأطراف التى جمدها الصقيع، وفوق ذلك كله تلتف بطانية رمادية أفنى الدهر وبرها، وجففت خيوطها بقع لزجة من مواد قديمة لا يعرف الآن كنهها . . أما رأسها فيرتكن إلى مسند قريب خلفها يستند إلى أحد جدارىْ الزاوية التى يقبع فى حضنها الفراش . .

وجهها يواجه الملامح الساهمة المستغرقة فى تأمل بعيد مجهول فى الوجه الآخر القابع فى الركن المقابل؛ وجه شقيقتها . . تحدق فى الوجه الصامت . . السمت الراضى والعينين السارحتين . . فى لحظة، تتداخل الأشياء والسمات . . تغيب معالم الواقع وتغمرها ثقلة الصمت . . أتراهما اثنتين؛ أتراها وحدها وصورتها تلك تتراءى فى المرآة؛ فى الخيال السابح فى تلافيف الماضى! . . أتراها . . أتراهما . . أسطورة قديمة تخطر فى الذاكرة فى لحظة سفر واغل فى المجهول! . . من هما تراهما؟! ومن الذى ألقى بهما فى هذا الركن القصى؟!

. . تتذكر . . تحاول أن تجمع الخيوط السارية . . أن تلم أطراف الوعى . . مبعثرة الأشياء تستلزم الجهد الجهيد لتتكون الصورة وينطبع الوعى ! . . أين كانتا منذ زمان بعيد ؛ ومتى جاءتا إلى هذا العالم الغريب ؛ وانفصلتا عن وجود الأحياء ، وتلاشت بينهما وبينه الخيوط المرئية والخيوط الخفية ، وضاعت من الوجود معالم السبل ؟ ! . . لماذا هما هاهنا ؟ ! . . وكم انطوى من زمان فى مجاهل الغموض فى الزمان السحيق . . وتاهت النظرة الآسية فى النظرة الآسية واندمجتا فى صمت ممتد طويل !

. . تفكر . . الشظايا المتناثرة تجهد أن تتجمع . . أن تلتئم . . أن تتبين وجه الصورة ! . . تفصح الذاكرة عند نقطة البدء . . منذ أن ألقى الجسدان فى الفراغ الكئيب . . الركن المقابل فى وجه الركن المقابل . . وتلاقت النظرة المنساحة فى الآماد ، والصورة المنساحة فى الآباد ، ثم تفرقتا مزقا مرة هنا ومرة هناك ! . . فى حساب الزمن المحسوب شهور قليلة . . لا يمكن أن تحصيها الذاكرة ! . . وماذا عليها ألا تحصيها ؟ !

. . والزمان ممتد إلى بعيد . . إلى أغوار لا يلحقها العمر ! . . منذ أن همَّ الحق الأكبر برفع الراية . . بنطق الكلمة . . بإعلان الحقيقة الكبرى من وراء كل باطل ؛ فالتقى الباطل وتجمع وتساند وحاصر ! . . منذ أن دخل «الشِّعب» فى صحراء مكة أغوار التاريخ وأوغل فى قلب الجاهلية . . منذ أوغل الحقد الكافر فى قلب أبى جهل فطعن «سمية» ! . . ومنذ أن صرخ الرجل الرهيب فى الجمع السادر ونادى فى قومه : «أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ !» .

منذ بعيد هى هنا إذن . . وهما . . وهم . . هنا هم سيظلون حتى لو انطلقت أقدامهم فى جنبات الأرض الواسعة ! . . هم هنا حتى ترتفع الراية ؛ ويفترش الحق الأبلج وجه الأفق ؛ وتعود الأرض المغتصبة إلى مالك الأرض فترتفع عليها أعلامه ! . . هم هنا حتى يتوارى الوجه الأغبر وتنطفئ عيون الشيطان ويتوارى هيكله المفترش الساحة . . يتوارى خلف الآكام !

المعدة تعوى . . الجوع القارس يجوس فى الأعصاب ، يرد اللحظة إلى واقع اللحظة . . ترى كم هى الساعة ؟ . . لابد قد اقترب الموعد . . موعد جفنة الطعام . . إذن فقد اقترب انتصاف اليوم ، واقترب دخول دبيب الحركة فى أعماق السكون ! فالزبانية فى طريقهم الآن إلى أوكارهم التى تظل فارغة ساعات الصباح ؛ سياراتهم الفارهة لابد تقطع الطريق الآن إلى هنا . . . تجتاز الآن الميادين والشوارع الفسيحة يقودها عبيدهم ؛ وهم يجلسون شامخى الرؤوس كغزاة حرب منتصرة !

. . وهنا . . حول المبنى المعزول ، القاحل من نبض حياة ؛ بدأ سريان الحركة . . أقدام ثقيلة تروح وتجيء تُعد الساحة ، ساحة المسلخ ! . . تجمع الضحايا وترصهم حول الجدران ! أمتار تفصل بين الواحد والواحد ؛ الوجه إلى الحائط ؛ والركبتان جاثيتان فوق الحصى ! . . فريق آخر يقف على القدم الواحدة ؛ يرفع الذراعين إلى أعلى لا تلمسان شيئا ، حتى أحجار الجدار الملاصق . . فريق ثالث يجلس القرفصاء ؛ الرأس إلى أسفل ؛ وصوت السوط يهوى بين

اللحظة واللحظة! . . ذلك حتى تنشرح قلوب «صناديد الحرب المنتصرة» لحظة تشريفهم! . . ويكافأ جرذان الساحة على شجاعتهم!

ينتزعها من استغراقها صوت قرقعة السلاح . . ها هم . . وصل ركب عتاة الوحش! . .

فحيح السيارات يقترب، يدلف نحو المبنى المقابل إلى الوكر الكبير . . حسها يحفظ المسيرة . . يراها . . يجسمها . . يغرز بها في الأعماق أسنانا كنصل الخنجر . . لكن ما تلبث أن تتوارى، ويتوارى لذعها وراء التعلق بالراية؛ بالاحتساب والصبر؛ بالصمود في معركة هي معركة الأزل والأبد عن يقين . . الصرخات في الأغوار تعلو، ثم تهوى في برد سكينة تكمن في نهاية الخط!

توقن بزوال الباطل يوما؛ توقن أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده! . . توقن أنها في النهاية يرثها عباده الصالحون . . كل خلية فيها تؤمن بعدل الله وتؤمن بحساب لا محالة آت؛ فتتجلد حتى يأذن صاحب الملك الأعظم بنصر الحق وإزهاق الباطل!

الأفكار في الرأس المكدود تجوب العالم . . أي عالم؟! . . هذا العالم الصغير الذي ترزح تحته . . المسوَّر بالنيران، يخنقه عفن ضمير مات ولم يدفن . . يثقله طوق عذاب دامس؟! . . نعم . . لكنه يفتح في القلب . . في الفكر الدائب التجوال على آفاق الوجود . . يطل على مسارب تاريخ حافل، ومسير قضية هي لب وجود العالم والكون!

إلى الشفتين تتسرب بسمة مقتضبة ثم تغيب . . عجبا للصورة! . . كيف يعيش الإنسان . . هذا المخلوق المعجز بين القطبين؟! . . كيف تعيش هى؛ مشدودا طرفاها بين النور العلوى فى الأفق السامق، وبين أثقال الطين الخانق تحت السطح؟! ما أعظم تلك القدرة فى هذا الضعف . . ما أعظم هذا التحليق المتعالى فى سراديب الموت . . أى إعجاز هذا فى خلق هذا المخلوق؟!

وقع الأقدام ينتزعها انتزاعا من أفكارها . . كل الأفكار تتوه، تتلاشى وتتبدد، يطاردها هول الواقع . . تحفظ وقع هذه الأقدام وتميزها ويرتج لها قلبها وتخور قواها . . أقدام الرجل الرهيب، الوحشى الوقع؛ يسقط على وجودها كالموت؛ ينتزعها من لحظات الأمن النسبى فى زنزانتها ويسوقها إلى هناك . . إلى ساحة المجزرة! . . إلى الاستجوابات المنسوجة من الكذب الخالص . . إلى الرعب المزلزل الذى يرتج لهوله القلب، ويشيب سواد العينين . . لماذا يجيء فى هذه الساعة، والجوع يعوى فى الأجسام يسحق المقاومة . . من أين تجد القوة التى تواجه بها الأسئلة اللئيمة تلك تلف حولها وحول أسرتها حبال البغى! . . لكن الأقدام تقترب رغم الفزع الذى ملأ فراغ الغرفة؛ رغم دقات القلب التى تتسابق فى الصدر، تعلو، توشك أن تطفر من فتحة فمها، والجسد يخور!

ينفتح الباب على مصراعه ويملأ الفراغ الجسد العملاق، وصلافة وجه تنفث ملامحه حقدا، ويترامى الصوت الهادر إلى أذنيها عنيفا قاسيا يقول: «هيا . . قفا أنتما الاثنتان واتبعانى» . . يا للهول! . . ماذا

جرى؟! . . ولم يحدث ذلك قط فيما مضى! . . تستدعى عادة وحدها، وتبقى شقيقتها حين تكون معها، لتعود إليها مهما طال وقت الغياب! . .

الهول ألجم فمها أن يقول كلمة . . سمعت صوت شقيقتها هزيلا مشروخا يسأل: «وأنا أيضا؟» . . وأجاب الضبع بجفوته المعتادة: «نعم وأنت أيضا . . هيا . . أسرعا»!

تقع النظرة فوق النظرة فى فزع ينخر حتى الغور . . كلتاهما تعرفان السر المخبوء! . . الوريقات وما فيها؛ بين طيات الفراش! . . هل وشى بها أحد! . . من يكون؟! . . ولا يمكن للحارس أن يراها! . . كيف يكون الأمر لو كان ذلك كذلك؟! . . كيف لو كان إخراجهما من الغرفة من أجل التفتيش عن هذه الأوراق؟! . . كيف تكون فداحة الكارثة لو عثروا عليها؟! . . لو قلبوا طرف الفراش فلسوف يجدونها فى لحظة، ودون عناء! . . لا تملكان الآن شيئا، فالرجل واقف . . ثم ما الذى تملكانه وكل ذرة فيهما وحولهما تحت سطوة الطغاة؛ وهما أسيرتان فى جحر الذئاب؟! . . كيف تتصرفان، والكارثة ماحقة! . . العجز! . . العجز يغزو كل خلية ويتغلغل حتى العظام!

النظرة تفضى للنظرة فى صمت قاتل . . وتتحرك الأقدام خارجة لا تملك غير الإذعان . . غير تنفيذ الأمر! . .

الصمت مطبق . . الأقدام تدلف؛ تدلف وراء السائق ذى الحجم المهول ينفث رعبا فى قلبيهما . . إلى أين؟! . . لا تدريان شيئا، ولكن

كل خطوة تسقط فى الروع كالكارثة . . كالهول . . كأنما إلى ساحة الإعدام تساق الأقدام!

المسيرة بعيدة بعيدة . . وقعها فى الحس أبعد بكثير من أمتارها! . . الأقدام تخور وتكاد الأجساد تتهاوى وتسقط إعياء . . إلى أين؟! . . المبانى المتناثرة فى الساحة الشاسعة تتراءى ثم تمر ثم تغيب . . إلى أين إذن؟! . . إلى أين وقد ابتعدت حتى صالات التحقيق وأوكار العذاب! . . إلى الصحراء الممتدة من كل صوب حول السجن الرهيب؛ حيث يدفنون القتلى؟! . . أهناك سوف ينفذون . . وينتهى كل شىء؟! . . سمعتهم مرات يهددون بعض المعذبين بدفنهم أحياء فى هذه الصحارى!

ولكن شقيقتها؟! . . هل سوف تذهبان معا؟! . . أم أنهم يأخذونها معها فقط لتشهد المأساة . . لتتعذب أكبر قدر من العذاب! . . ولكنهم اعتبروها خارج القضية! . . قالوا لها ذلك منذ أيام؛ بل ووعدوها بخروج قريب؛ فمالها هى والتعذيب على هذا المستوى؟! . . هى الوريقات؛ ذلك العامل الجديد فى الموقف . . بل هذا البلاء الجديد! . . لكن الوريقات هى التى تحمل مسئوليتها كاملة؛ فهى بخطها الذى يعرفونه جيداً الآن . . فمنذ شهور وهم يستكتبونها : من هى! . . من تعرف! . . مَنْ منْ صديقاتها أحب إليها! . . من قابلت منهن طوال العام! . . كم مرة قابلت؟! . . لقد بذلت كل ما تملك من قدرة حتى تدرأ الخطر عن الجميع! . . فهل يتركها الله لهم؟ . . هل يتركهما وحيدتين فى مخالب الذئاب؟!

المبانى كلها تتوارى والأقدام ما تزال تقطع أمتار المفازة، والشمس فوق الرؤوس تصب حميمها! . . وعلى مقربة من «مصطبة» حجرية صغيرة توقف السير . . قال الصوت المفعم بالكراهية والقسوة: «اجلسا هنا . . انتظرا حتى أعود إليكما!» . . ثم انصرف، لا تعلمان إلى أين . .

بعيون أسبل جفونها تسليم مطلق لله، وبأجساد أنهكتها مسيرة الرعب، ألقتا رحالهما وجلستا صامتتين! وساد الصمت ينقل بينهما ما يدور فى الأعماق وما يغشى الجنبات؛ وينقل الصمت ذاته، الذى أسبل ظله على كل شىء فى داخلهما!

بعد لحظات طالت جاءها الصوت القريب هامسا بتسليم عميق ينفث الراحة فى كل حنية . . قالت الشقيقة: «لا تجزعى يا حبيبتى . . فإنا لله وإنا إليه راجعون . . لتكن هى النهاية فماذا يضيرنا؟! . . ألسنا على الطريق؟ ألسنا على الحق الذى يشهد الله عليه؟ . . لم نتقهقر . . لم نخن الأمانة، ولم نرتد على أعقابنا رغم كل الهول؛ رغم خسائر الدنيا الفادحة! . . حتى تلك الوريقات، ألم نكتبها فى سبيل هذه الدعوة؟ . . أليست جزءاً من هذا الجهاد ذاته؟

قالت وقد تاق صدرها المكتوم إلى حديث حتى لو كان بغير جدوى؛ فالمأساة لا حل لها؛ والأوراق هناك تحمل الإدانة؛ وقد تكون الآن فى أيديهم! . . كل كلمة تحمل وزن الجبال أوزارا فى نظر الزبانية الفجرة . . قالت: «لا أجزع من الموت يا شقيقتى؛ فما أرحم الموت لو قضى الله به؛ وهم لا يملكونه كما لا نملكه إلا أن يشاء الله

به . . الموت سوف يحطم الأسوار والسدود؛ وينهى فى وجودنا قمم العذاب التى نعانيها كل لحظة ؛ ولسوف نذهب إلى رضوان من الله وفضل إن شاء الله . . ولن نلقاه بموضع خير مما نحن فيه الآن؛ تسليما ورضاء وتطلعا إلى مرضاته» . . سكتت هنيهة ثم تنهدت ساحبة نفسا عميقا إلى الأغوار البعيدة فى صدرها ثم أردفت . . «لكننى يا شقيقتى أخشى ما هو أشق كثيرا من الموت . . أخشى بشاعة انتقامهم . . فحتى الآن يصبغ الله على المؤمنات حمايته ، ويعافيهم من هول حقدهم؛ وفضيلة المؤمنات وترفعهن يثيران إلى أقصى حد حفيظتهم ، وهم يعضون على نواجذهم غيظا ولكن الله يحفظنا منهم ، إلا العذاب فقد يسر الله لنا تحمل بشاعاته؛ فكيف بنا لو استثيرت أحقادهم أكثر من ذلك ، وهم الذين لا يرقبون فى مؤمن إلاّ ولا ذمة؟! . . وأنت تعرفين ما تحمل الوريقات مما يستثير ضراوتهم! . . ثم ساد صمت عميق . . لم تجب الشقيقة بكلمة . . فبماذا تجيب؟!

الذاكرة المشوشة القوى تكدح فى إجهاد مر لتتذكر . . تتذكر المكتوب فى الوريقات . . بعض الجمل تتراءى وسط الغبش والبعض الآخر يروغ . . يتهاوى فى لجج الضباب . . ماذا لو قرءوا أوصاف العذاب التى سجلتها يدها عليهم؛ وهم يكرسون إعلامهم كله منذ زمن طويل لينفوا عن أنفسهم الشائعات التى لا تصل إلى شىء من خباياه الرهيبة؛ وليطمسوا معالم الجريمة الشنعاء؟! . . ماذا لو عثروا فى تلك الوريقات على حادثة الجثة التى كانت إنسانا كاملا فى أول الليل فإذا هى جثة ممزقة مهشمة قبل نهايته . . لا يجدون فيها موضعا

يحملونها منه فيربطونها بالحبال ويجرجرونها فوق الحصى وما يزال فيها نبض الحياة! . . ماذا لو وجدوها ماثلة أمام أعينهم يضمها ملف تاريخهم الأسود، تحمله الكلمات إلى الأجيال وإلى العالم الفسيح؟! . . ماذا لو وجدوا أكوام جلود الحرقى تطارد أيامهم حتى أغوار التاريخ فى المستقبل البعيد؟! . . ماذا لو استعادت أعينهم جريمة تمزيق كتاب الله؛ ورأوه أمامهم مداسا بالأقدام؛ شاهداً جهاراً على كفرهم البغيض؛ فاضحًا نفاقهم اللئيم؟! . . ماذا لو . . وعشرات لو؟! . . أفيتركونها دون أن يمزقوها إربا إربا . . دون أن يفعلوا بها الأفاعيل وما تمليه ضراوتهم؟!

وشقيقتها؟! . . هل سوف يتركونها وهى معها فى نفس الحجرة لا تغادرها . . تراها إذن وهى تكتب؛ ثم هى لم تبلغهم عنها؛ وذلك عندهم جريمة نكراء! . . هل يعفونها من عذاباتهم وهى قد كتمت عنهم تلك الجريمة النكراء! . . ألا يقع تحت طائلة قانونهم «علم ولم يبلغ»! . . أليس ذلك بالنسبة لها هى هو كل جريمتها؛ أليست تذوق كل هذه الأهوال لأنها لم تبلغهم أن شقيقها يلقاه بعض من شباب المسلمين يتعلمون دينهم على يديه! . . وهؤلاء الفجار أهل لهذا الفسق كله . . وهم أهل لهذا المطلب الفاجر!

لسوف يسائلونها عن ذلك كله! . . لسوف تنفى عن شقيقتها علمها بشىء مما تكتب هى . . ستقول لهم إنها قالت لها حين سألتها عما تكتب، إنها تكتب تقريرا طلبوه هم منها! . . لابد من أن تبرئ شقيقتها من كل ما يتعلق بما تفعل . . ثم . . فلسوف تنهى ما فى

خطتها من حذرا . . لسوف تواجههم بكل جرائمهم ! . . بكل ما امتنعت من قبل عن قوله لهم ! . . بكل مفاسدهم وبكل خياناتهم وبكل تآمراتهم ! . . ولسوف تبهتهم فى وجوههم بدلائل كفرهم ! وتدمغهم بوحشيتهم التى يتعفف عنها أدنأ الضباع ! . . لسوف تفرغ كل ما فى جعبتها . . كل ما ينوء به كاهلها ، كل ما تكتمه فى صدرها لتضعه يوما فى يد العالم إن كان بقى للعالم ضمير ؛ ولتهديه للمسيرة الممتدة فى الزمن بعدهم حتى يرفع الله رايته ! . . لسوف تضعهم فى أسوأ قفص وضع فيه التاريخ عتاة مجرميه ، بدلا من هؤلاء الشرفاء ، ثم تشهد الله على قولة الحق العظمى فى وجه سلطان جائر كافر ، يحارب دين الله بكل سلاح ، ويطارده فى كل أرض ! . . ثم يقضى الله قضاءه بما قدَّر وكتب ! . . فليس هناك ما تخافه بعد هذه الواقعة !

كان خطأ منها دون شك أن تكتب هذه المذكرات ؛ وهى تعلم أنها وما تكتب فى قبضتهم ؛ تحت سطوة إجرامهم ؛ ربما كان ذلك حماقة لم تستطع تقدير العواقب ! . . ولكنها خاطرت من أجل المسيرة الخالدة حتى ترتفع راية الحق فى أرض الله . . المسيرة الممتدة حتما بعدهم وبعد أعمارهم وحيواتهم ؛ فماهم إلا حلقة فى السلسلة الطويلة ، ما مضى منها وما ينتظر . . ومن أجلها لابد أن تسجل التجربة . . وسوف يكون رصيدها هائلا للخط الطويل الممتد ! . . فهل كانت حماقة منها أن تخاطر ؟ ! . . وهل كان ذلك الهول كله يمكن أن تحفظه ذاكرة تهدّ قواها فداحة أحداث تأكل الكيان وتفرى القوى ؟ ! . . ليكن إذن ما قدر الله أن يكون !

توقن بالقدر وتوقن أن كل شىء قد وقع إنما كان بقدر حتى أخطاء البشر ؛ وحسبها أنها اجتهدت ؛ فإن كانت قد أخطأت فلها أجر ؛ لقد جاهدت لتبين سبيل الحق وتتبين سبيل المجرمين . . ولن يخذلها الله ! . . وهل كان بوسعها أن تحصل على هذا التيسير لتكتب ما كتبت بغير تقدير الله ، والورقة والقلم هما أعسر المستحيلات فى هذه الغابة ؟ ! ولكن الله الغالب على أمره هو الذى أوصل إليها هذا المستحيل لتكتب ما كتبت فلن تأسى على ذلك ! . . لقد أعطوها تلك الوريقات وهذا القلم لتكتب ما أملوه عليها وهى فى عرصات العذاب . فلما عجزت عن أن تكتب فى تلك الساعة أعادوها إلى زنزانتها وأمروها أن تكتب هناك ! . . ثم أنساهم الله ما قرروه ! . . ألم يكن ذلك تيسيرا من الله لتكتب ما كتبت ؟ ! . . أليس وراء ذلك إشارة بأداء هذا الواجب ؟ ! . . فلن تندم إذن على شىء ، حتى لو كان هو الموت ؛ فالموت لا يجىء إلا بميعاد . . فلعلها الشهادة . . يمنحها الله بفضله لمن يشاء من عباده . .

ملأ الخاطر قلبها فانساحت أمام خيالها الصور . . هاهم يأخذونها من جوار شقيقتها ليسألوها . . ها هم يقررون ما قدره الله . . ها هم يعذبونها كل أنواع العذابات التى غدت تعرف أكثرها . . حتى الموت ! . . أو . . ها هم يختصرون الطريق فيأخذونها بعيدا عن المناطق المأهولة في الداخل . . رصاصات قليلة فإذا هى فى فضل الله وجنته . . لكن وا أسفاه ! . . فها هى صورة شقيقتها المسكينة تُشاهد المأساة ! . . ها هى تقتحم عليها المشهد الحزين ! . . ها هى تروَّع ، تصرخ ؛ تصرخ بلا معين ، بلا قلب ينبض معها فيحمل إلى قلبها

بعض العـون وبعض الأنس وقليلا من عـزاء! . . واغـرورقت عـيناها بالدموع . . يا لفجيعة هذا القلب المعذب عند ذاك . . لو تضمـها الآن إلى صدرها . . لو تهدئ الآن من روعـها قبل أن تغيب عنها ويستحيل العزاء! . . وشخـصت ببصرها إلى بعيد . . ترى سوف يقـضى الله عليهما بذلك القضاء . . على شدته وعمق الفجيعة فيه؟!

. . حملقت بعينيها فيهما . . فى جلستهما المتلاصقة الصامتة التى يلجمها الخوف المعلق فى المجهول؛ ترى ستكون هى آخر سويعات اللقاء؟! . . وها هى تمضى بغير احتفال، تشبه لحظات زمن مطمئن، ممتد دون توقع للفراق! . . تمضى بغير كلمة تصل النفس بالنفس! . . بغير نظرة تملأ زمان الفراق الآتى! . . والقلب عاجز عن أن يستوعبها . . عاجز عن أن يغتنمها . . أن ينطق فيها بكلمات تحمل ما فى القلب إلى القلب . . بكلمات عزاء ولوعة مشبوبة للفراق الوشيك! . . والروح عاجز أن يتذكر . . أن يضم جوانحه على زمان ضمهما معا فى العيش الآمن، وضم أحلاما كلون الورود . . كوقع قطرات الندى فى الصباح الوليد، ناوشت قلبيهما فى مستقبل جميل صبوح وشيك البزوغ!

حدقت فى وجه شقيقتها تملأ أعماقها بصورتها قبل أن تنمحى الصور؛ وتندثر الأحلام فى غسق الغروب! . . الرأس، أنهكته الصور والفكر والذكر؛ ومحاولة دائبة مستميتة للخروج من لجة الغرق الكاسح، تطوق كل شىء، تحكم الحصار على كل فكر، تعلو به وتهبط فلا يملك الفكاك . . والشمس؟! . . الشمس فى كبد القبة

القريبة فوق الرؤوس تسلط نيرانها رغم برد الشتاء فتخترق العظام وتحرق ذرات الداخل، والعينان مسبلتان يزوغ منهما البصر، والوعى يوشك أن يغيب. . ترى. . أليس لهذا العذاب من آخر؟! . . ترى. . كيف يكون ذلك الآخر؟!

اللحظات تمضى بعد اللحظات، والدقائق تتلوها الدقائق، والزمن يسير ممتدا بغير وقفة! . . لا حركة ولا نأمة. . معزولتان. . حتى عن عالم العذاب الملموس يحدد معالم الواقع! . . لا يترك للخيال فرصة ليخبط فى الهلاميات، ولا يجهد القلب ذلك الغوص المستميت وراء ستر الغيب المسدل! . . السؤال يلح على الأعصاب. . على القلب المشدود فيه كل عرق: «لماذا هما وحدهما هنا؟ . . لماذا عزلتا حتى عن عالم المعذبين الأحياء؟! . . لماذا جىء بهما إلى هذا الفراغ الرعيب مثقلة ذراته بوخز القلق؟!» . . كل شىء هنا يهمس بالخراب؛ حتى الغراب الزاعق منطلقا فى قبة السماء المكشوفة، المكفهرة بالضوء. . وحتى أصوات عواء الكلاب البعيدة التى تشبه النحيب، تسقط إلى الأعماق كالسهام فوق سطح الخوف الملىء بالشقوق. . والوحش الذى ألقى بهما فى هذا الشتات لم يعد كما وعد!

أتراها مؤامرة من مؤامراتهم للخلاص منهما دون أن يشعر أحد كما فعلوا مرارا بآخرين؛ ثم يبلغون أهليهم أنهم هاربون؟! . . هل يتركونهما هنا حتى تدهمهما ذئاب الليل فى هذه الصحارى الواسعة، الواغلة فى السكون؟! . . هل تلقيان ها هنا بغير طعام ولا شراب ولا فراش حتى يهلكهما الجوع والصقيع؛ بعيدا عن الجميع ويتوه خبرهما

فى طيات الغمـوض والظنـون؛ ثم يقولون إنهما انتحرتا؛ فما أسهل الكذبة الفاجرة فى قامـوسهم! . . وهل يملك أحد مهما أعطى من فطنة أن يكشف ما فى جعبة الطغاة من فجور، أو يتكهن بما يبيتون لهم من ألوان العذاب؛ وقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر.

اللغز يتعقد ويتفاقم فى حسيهما، فهما لا تعلمان إن كانتا بعد داخل أسوار ذلك السجن الرهيب أم إنهما قد ألقيتا بالفعل خارجه وهما لاتشعران! . . لماذا يلجمهما الخوف فتتجمدان فى مكانهما حيث أمرهما ذلك الوحش المخيف؟! . . لماذا لم تحاولا التجوال هنا أو هناك وقد مضت الساعات فارغة من العيون والمساحات تقطع ما بينهما وبين بصر أى رقيب؟! . . الأجسام الهزيلة خفيفة الحركة؛ ولكنها تنوء بعبء ثقيل فلا تملك الحراك!

مرت بخاطرها تلك القصة الحزينة التى قرأتها مرة عن أيام التتار بعد أن نشروا الرعب فى ديار المسلمين؛ حين كان يلقى التترى المسلم وهو فى غير عدته فيأمره أن يبقى مكانه حتى يذهب ليأتى بسلاحه ليقتله؛ فيبقى المسلم مكانه لا يريم يلجمه الرعب؛ حتى يعود ذلك التترى اللئيم! . . فهل عاد الزمان أدراجه؟! . . هل يعيد التاريخ نفسه؟! . . وهل يعيش اليوم المسلمون هجمة تترية تحت عنوان جديد؟!

***

القبة الساكنة فوق رأسيهما غارقة فى صمتها، وقرص الشمس الملتهب يلملم لهيبه ليرحل، يميل رويدا رويدا، ثم يسرع بالانحدار ناحية الغرب. . والأفق القريب تغزوه عروق حمراء ذابلة تؤذن بالمغيب. .

الصمت لا يقطعه غير صدى نباح كلاب بعيد، يقع فى القلب كصرخات وداع يائس؛ وأسراب الطير تولى ذاهبة من المجهول البعيد إلى المجهول البعيد. . والرمال تحت القبة يبهت لونها رويدا رويدا وتتداخل وتنكمش الواحدة فى صدر الأخرى وتغيب فى الجمع! . . ما أخوف الليل وما أرهب صمته الكاسى فى هذا السكون الشاسع. . فهل تبقيان هنا طوال هذا الليل الرعيب المرتقب؟!

تساءلت فى صوت هامس خائف محمل بالرجاء. . أن يجيئها جواب يحمل نبضات أمل. . يجيؤها صوت الشقيقة بعد لحظة صمت، محملا بصمود حزين، وكأنما يصعد من أغوار بئر بعيد القرار: «يا شقيقتى الحبيبة. . علينا أن نعد أنفسنا لكل ما يقدر الله. . هل نسينا أنه الجهاد! . . هل ننكص على أعقابنا فنخسر الدارين؟!» همست فى صوت رافض: «كلا. . كلا». . وأوغل فى قلبها الصمت وغشى على ما حولهما! جالت بعينيها اللتين ضعضعهما شواظ الشمس طوال اليوم فى المكان المترامى من حولهما. . على البعد تتراءى أطراف المبانى التى تنطمس معالمها كل بضع لحظات. . وفى البعد البعيد تحدق بكل قواها لعل حركة إنسان تلوح!

فجأة . . ومن مسرب آخر غير الذى جاءوا منه ، يبرز على بعد قريب الرجل العملاق المخيف ؛ وعلى يمينه يتهادى كلب مزعج السمت فاره البنية مثله ؛ ترتفع رأسه أعلى من وسط صاحبه ! . . يا ألله ! . . من أين جاء ، وهما لم تكتشفا طوال جلستهما هذا الطريق الآخر ؛ ولا تستطيعان أن تتكهنا إلى أين يسوق !

القلوب تدق بعنف ، والدماء تطفر فى الرأس فى دفعات وراء دفعات وتضطرب فى العروق . . ها قد حانت ساعة الصفر ؛ فهى تعرف جيدا دور هذه الكلاب ! . . ها قد اقتربت اللحظات الفاصلة . . جاء الموعد المقدور ! . .

القلوب لا ترهص بشىء ؛ كل شىء متوقف داخل الكيان كأن الزمن والوجود أصابته سكتة مفاجئة ! . . موت أو حياة؟ . . سلام أو أتون عذاب؟ . . حتى السؤال لا يملك أن يطل برأسه . . فقط تتضخم الصورة الماثلة على البعد القريب : الرجل المروّع والكلب الوحش !

قالت لها شقيقتها فى سرعة خاطفة بلهجة حازمة كأنها القرار الذى لا يناقش : «اسمعى يا شقيقتى . . لقد قررت أن آخذ مسئوليةالأوراق على عاتقى أنا . . سأقول لهم إنها لى أنا» .

بهتتها الفكرة التى لم تخطر لها على بال وأشعلت قلبها قلقا ؛ قالت فى رجفة : «كلا يا حبيبتى . . كلا كلا . . ثم إن هذا مستحيل ؛ فهى بخطى أنا ؛ وهم يعرفونه جيدا . . » .

فكرت الشقيقة هنيهة قصيرة ثم أجابتها : «سأقول لهم إننى كنت متعبة فأمليت عليك وكتبتها بخطك ! » .

وبسرعة اندفعت من فمها الكلمات تسابق خطو الرجل إليهما : «حتى هذا لا يجدى ؛ ففيها وصف لمواقف وقعت معى أنا أو أمامى ولم تكونى أنت حاضرة!» .

الرجل يقترب مع كلبه ، يكاد يكون على مستوى السمع . . تهمس الشقيقة فى صوت خفيض : «إذن سأقول إننا اشتركنا معا فى صياغتها ، وهى الحقيقة ، فنكون معا فى أى مصير . . على الأقل!» .

فتحت فمها لتقول : «كلا كلا . . يجب أن . . » ولكن شقيقتها أوقفتها بسرعة هامسة : «صه! . . الرجل على بعد خطوات . . »!

وقفتا صامتتين ، وترامى إلى آذانهما الصوت الأجش يقول : «هيا . . هيا اتبعانى . . فى الطريق المجهول سارتا خلف الرجل وكلبه! . . الكلب هادئ لا يبدى تحرشا . . يمشى بخطى وئيدة ثابتة . . «لم يتلق الأمر بالافتراس بعد» همست بذلك فى داخلها! . . تعرف بشاعته حين يتلقى الأمر بالهجوم! . . مطرقتى البصر كأن الأعين تعد ذرات الرمال ، ولكن الأفكار فى وديان أخر! . . تختلس نظرة إلى عينى شقيقتها فتلتقى مع ظلال بسمة هادئة راضية . . ينساح تسليم راض فى قلبها المضطرب ، ويتوغل رويدا رويدا ، وتكف فى الرأس معارك الأفكار الدائرة . . نعم . . فلن يكون فى كون الله إلا ما قدر الله . . وهل يتربصون بهما إلا إحدى الحسنيين؟! . . يا لله! . . ما أروع أن يجد القلب اللاهث كلام الله حاضرا فى معيته حين يحزبه الأمر!

الطريق يتلوى ويتشعب؛ تجهلانه تماما؛ حتى هى على كثرة ذهابها وأوبتها إلى أوكارهم المنبثة فى الأرجاء، لم تطرق أبدا هذا الطريق! . لكن القلب كان قد استقام إلى قصده واستوى ولم يعد السؤال: «إلى أين تسوق الطريق». . لم يعد يلح على أعصابها!

لكن فجأة. . وبعد أن ينشعب الطريق إلى ساحتين؛ تجدان أنفسهما أمام المبنى! . . المبنى الذى تعيشان فيه! . . المبنى الذى أخرجتا منه فى الظهيرة! . . ما هذا اللغز المعمّى؟! . . أم إنها فى حلم طويل مرعب التفاصيل؟!

نظرت حولها تستوثق! . . كلا ليست فى حلم! . . فهذه شقيقتها بجوارها، يدها تلمس يدها. . وهذا هو الرجل المخيف بقامته التى تنفث الرعب، وهذا كلبه بجواره، صامتا ما يزال، لا تبدو منه عداوة! . . كيف كان ذلك إذن؟ . . ولم؟ . . وماذا سوف يكون؟!

الدهشة تعقد ألسنتهما والرعب المحيط! . . هل سوف تنتهى عند ذلك المهزلة! ففيم كانت إذن؟! . . أم إن كل شىء معد فى الداخل. . فى المبنى المقفر إلا منهما! . . لتكون المواجهة فى قلب الموقع؟! . .

والموقع كله تحت سطوتهم لا فرق بين مكان وآخر. . لا فرق بين الداخل والخارج! . . وإلا فلماذا يصطحب الكلب حتى الباب؟! . . ويزيد اللغز عماء وتعقدا!

يدور المفتاح ذو الحجم المخيف فى الباب الأسود الهائل الحجم. . ويأمرهما الرجل بالدخول. . تهبط الأقدام الدرج مسرعة دون أية

فكرة تخطر فى الرأس ، ثم تدلف الأقدام فى الممشى الطويل إلى باب الزنزانة الذى يكاد أن يكون محفورا فى عيونهما! . . يتقدم الرجل ومعه كلبه ليفتح بابها فتتعالى دقات القلب فى أرجاء الصدر! . . «ترى . . ترى هل جىء بالكلب ليشم الأوراق ويخرجها من طيات الفراش أمامهما؟! . . إذن سيكون ذلك هو الدليل على براءة الشقيقة منها!» . . يتقدم الرجل خطوة إلى الداخل فتهوى القلوب إلى واد سحيق لا تحس قراره وتنزلق الأقدام إلى أرض الزنزانة دون وعى فى انتظار اللحظة القاصمة . . الرجل وكلبه معه هنا . . بجوار الفراش! . . هل . . هل تملكان شيئا؟!

لكن اللحظات تمر . . ثقيلة ثقيلة . . كوقع لحظات الموت . . ثم . . ثم . . ثم يغلق الباب من الخارج . . ثم . . ثم يمضى وقع أقدام الرجل خارجا من المبنى!

لحظات ذهول . . غبش الغروب يغشى جو الغرفة؛ ولكن العيون تحدق . . تملك الرؤية بعد . . والنظرات تملك أن تلتقى . . وتتحادث حديث الصمت . . فالذهول يلجم الألسنة! . . كيف . . لمَ . . ماذا . . لماذا وما الذى سيكون . . ؟! كل كلمات الاستفهام والعَجب الذاهل تتوارد وتتوالى بغير نظام . . ولكن الألسنة يلجمها الصمت!

تنبهت أعصابها فجأة فجرت إلى الفراش المسجى على الأرض . . ها هو بصورته ذاتها التى تركتاه عليها فى الظهيرة . . أيكون . . ثم . . كلا . . ! واندفعت تفتش . . الأوراق ها هى . . بين طيات الفراش كما تركتها . . أخرجتها . . رفعتها إلى الشقيقة فى صمت! . . «ماذا

كان ذلك إذن؟!». . وانهارت واقعة فى فراشها! . . وإلى الركن المقابل مشت شقيقتها بضع خطوات، ثم انثنت على الفراش وهى تتمتم بحمد الله فى استغراق عميق . .

لا تدرى كيف انقضت الليلة . . فى كل الوديان كان فكرها يتوه وخيالها يتسرب ومشاعرها تتبعثر ولم تنم إلا قليلا . . فالطمأنينة الحاسمة لم تقع فى القلب بعد . . فى اليوم التالى حين يعود أصحاب الضيعة لا تدرى ماذا يكون . . هل تتخلص من الوريقات؟! . . وتضيع معالم وذكر خطتها بدماء قلبها وأودعتها من مشاعرها ونبض روحها؟! . . ثم كيف . . ولا مخرج حتى الصباح؟!

فى الصباح كان موعد المرور الأسبوعى للطبيب . . جاء كعادته يرى ماذا فعلت بهما أحداث أسبوع يعرف أنها مليئة كبيسة! . . حين استقر واقفًا وسط الزنزانة سألهما: «هل أخرجوكما هذا الأسبوع الذى انطوى إلى نزهة قصيرة فى الشمس؟! مرة أو مرات؟! . . تلاقت أعين الشقيقتين فى بسمة سريعة مباغتة! . . قالتا: «نعم! بالأمس» . . قال الطبيب متعجبا: «فقط بالأمس؟ . . لقد أنذرتهم! . . قلت لهم إن حياة الأخت الصغرى منهم على الأقل، فى خطر حقيقى! . . لا بد لها من قدر من التغيير إذا كنتم لا تريدونها أن تموت! . . الشمس والغذاء وبعض الأدوية الضرورية . . شىء يوقف هذا التردى المسرع»!

ظلتا صامتتين للحظات قصيرة؛ ثم تنبهتا إلى أن عليهما أن تشكرا له اهتمامه ورعايته!

بعد خروجه . . وقد عاد باب الزنزانة إلى الإغلاق . . انفجرتا ضاحكتين!

* * *

ترى هل يأتى يوم تقصان معا قصة هذه «النزهة القصيرة» فى ساعة سمر رائق بين الجمع المشرق ببزوغ شمس الحق؟! . . همست بها الشفاه وأطل القلب إلى بعيد . . إلى الأفق المحجوب خلف مرأى البصر وسجف الغيب!

الليـــل سرمـدا

مــا يزال خــدر النوم يغــشى على الوعى، ويثـقل كل أعــضـاء الجسد . . لوتفيق . . لو تصـحو! . . ولكـن الخـدر الغالــب يترك الأذرع السوداء تمتد وتمتد؛ تخـرج من الحائط البعيد حيث يتوارى الكائن الهـلامى المرعب؛ ثم تهـوى فـوق صـدرها المغـمـور فى الفراش . . تضغط تضغط حتى تختنق الأنفاس ويتحشرج الصوت؛ والصرخات المخنوقة لا تغادر الحلق؛ ثم تتبدد استماتة المحاولة . . تضيع هباء تحت سطوة الكابوس!

لا بد من أن تفـيق . . أن تصـحـو . . فـهى هنا وحـدها؛ وحـدها تمامــا . . توقن من ذلك . . لا أحـد . . لا أحـد . . لن يناديهـا أحـد لتصـحـو! . . لن يربت عليهـا أحد لتفيق . . لتتـخلص من ثقلة الحلم المزعج . . من الأذرع الـسوداء الممـتـدة؛ تطول وتطول . . كل هنيهـة تطول حتى تسد الفراغ . . تثقل حتى تتقطع الأنفاس . .

ثـم . . ثـم تتسلل خيوط الوعى . . تدخل . . بطيئا بطيئا تزحف فى تلافيف الخدر وثقلة النعاس .

رويدا رويدا تلح براعم الوعى . . تحـاول أن تتـفـتح : «يـجب أن تفيقى بنفسك؛ فأنت وحدك؛ هل نسيت أنك هنا وحدك؛ ليس فى

الزنزانة المحدودة الأمتار فحسب؛ كلا، وإنما فى كل المبنى، وفيما حوله أيضا. . فحتى العسكر الغلاظ القلوب الذين يحيطون به طوال اليوم قد غادروه إلى مأواهم البعيد للنوم! . . وحدك وحدك؛ أتدركين؟! كفى إذن وأفيقى! فالصرخات مهما طالت. . مهما علت. . فلا أحد سوف يأتى إليك! . . أفيقى وأنقذى نفسك بنفسك! . . لا مفر من ذلك، وإلا فستظلين تصرخين حتى الصباح»!

ورويدا رويدا يتفتح الوعى. . ثم يغلب الإدراك. . يمحو ثقلة الخدر العنيد ويقتلع براثن النوم. . تخف بالتدريج ثقلة الجسد. . يتململ الرأس الملقى فى ثقل فادح فوق الوسادة الرقيقة التى لا تكاد تحجب صلابة الأرض؛ وتحاول الأعضاء المتيبسة أن تتحرك. . وفى محاولة مستميتة تحاول الجفون الملتصقة بثقلة النعاس أن تنشق!

بمشقة بالغة تفتح عينيها، تحملق فى الظلام الكاسى، تحملق بكل قوة فى إبصارها. . الذراعان السوداوان ما تزالان شاخصتين، تختلطان بالظلمة، تنفصلان عنها هنيهة ثم تعودان جزءا منها. . والصمت المغلق يطمر الجميع. .

تصحو تماما ويكتمل الوعى. . تتحدث فى داخلها؛ يتحدث إليها الشخص الآخر المتوارى فى الأعماق. . معًا هما دائما حتى فى اختلاجات الأنفاس! . . وهل من الممكن أن تبقى الحياة حية فى هذا القبر المظلم بغير وجوده. . يقول لها وتقول له. . يشاركها نبضة القلب وهمسة الفكر. . يؤنس فراغ الساعات ويجلو رهبة

الوحشة . . لكن حين يستبد الظلام ويطبق النعاس يتوارى عنها فى مكمن بعيد . . وحين تدلهم الوحدة يسارع إلى نجدتها!

الآن يربت على قلبها الخائف بحنو بالغ؛ يهمس فى روعها بنسمات طمأنينة : «يا بنية لا تخافى! . . فلا شىء فى الحجرة غير الظلام . . لا أشباح هناك ولا أذرع! . . حدقى جيدا يا بنيتى فلن تجدى شيئا يخيف . . استعيذى بالله ثم اقرئى الآيات المحببة إليك ، تطرد عنك الخوف وتُطَمْئِن هذا الهلع ، وتطرد كل أشباح الظلام» .

تستجيب . . تقرأ بعض ما تحفظ من آيات القرآن . . الفاتحة ، آية الكرسى ، الإخلاص والمعوذتين . . تكررها مرة ومرة حتى تهدأ . . قشعريرة لطيفة تسرى فى الجسد الخائف ثم يلين . . خيوط طمأنينة تزحف الهوينى ثم تنساح تغطى فى الأعصاب المشدودة أظافر الخوف . . تحملق بعمق : «نعم . . ليس فى الظلام شىء غير الظلمة . . وليس فى الصمت الكاسى غير الصمت»!

الوعى تاما يطارد بقية الأشباح ؛ فلا جديد فى جو الغرفة! . . ترى كم مضى من الليل؟! . . كم الساعة الآن . . وهل نامت طويلا أم إنها كانت بضع دقائق كما يحدث فى أكثر الليلات؟! . . وكم تبقى يا ترى من الوقت حتى تنبثق خيوط النور وتدب الحركة من جديد حول المبنى المنفرد وتهدأ تماما أشباح الليل؟! . . ومن القابع فى الأغوار يأتيها الرد : «لا عليك فالزمن يتحرك لا محالة . . يسير كما يسيره الله كل ليلة ؛ وسيأتى الصباح . . حتما سوف يأتى ؛ فلم يمر على الأرض قط ليل بغير صباح! . . النوم هو الحل . . حاولى أن تنامى» .

تحملق من جديد فى العتمة الناشبة مخلبها فى كل شبر . . الظلام يتداخل فى الظلام؛ فى تداخله تنبثق الهلاميات السوداء، وتتدافع فى الثنايا الشعاعات خفية المصدر، تتراءى فى لمحة خاطفة وتتلاشى فى سرعة فيقشعر بدنها . . تطمر وجهها فى الفراش تختبئ؛ تدفن الظلام فى الظلام . . تحاول النوم . . تهدأ أنفاسها اللاهثة . . تستدعى كل شجاعتها . . كل رباطة جأشها، تجابه بها سطوة الحضور الواقع: «لماذا تخافين؟! . . لا شيء غير الظلام، فلم تخافين منه؟! نعم . . ليس فى الظلام ما يخيف؛ فالمكان هو هو كما هو فى النهار لم يتبدل؛ لم يحدث فيه جديد . . لو يقتنع قلب الطفلة الذى لا يزال يعيش فى الأعماق فتنام . . آه لو تنام! . . لو يطول النوم حتى يمن الله بصباح!

لا تدرى كم هنيهة طواها فيها النوم . . فى حسها الواجف هى لحظات . . لحظات قصار قطعها الهول . . الصراخ يعلو ويعلو فى أعماق الجوف . . تحسه يملأ فراغ الحجرة . . تظنه يدوى فى المبنى كله . . أين الناس؟! . . ألا من منقذ؟!

تنسى . . تنسى أنها وحدها . . ثم تشرع المحاولة الداخلية من جديد . . «وحدك وحدك . . أفيقى وحدك» . . تدور الكلمات فى اللاوعى؛ الهلع الصارخ . . نفس الكلمات «لابد أن تفيقى وحدك . . أنت وحدك فى الحجرة . . فى المبنى . . فى الساحة كلها من حولك»!

ثم . . ثم تبدأ المقاومة . . ثم يتسلل الصحو اللاهث . . تحملق العينان المفتوحتان قسرا . . بكل ثقلة النعاس تحملقان . . بكل أعماق

الفزع تندفعان تجوبان ظلام الأركان حيث تتكاثف الظلمات طبقات بعضها فوق بعض؛ تكوّن أشباحا مجسدة تتحرك فى جوف الظلمة! . . يفتش البصر المروّع عن المرأة السوداء الفارعة الطول التى مرت من هنا منذ هنيهة! . . النظر الزائغ يبحث واجفا عن العينين الحمراوين اللتين مرقتا من أمامه تقذفان شررا غاضبا إلى وجهها! . . والطرحة السوداء خافقة خلفهما فى الهواء؛ والمرأة المارد تمر كالسهم المنبت؛ تتوعدها على نومها هذا فى حجرتهم . . تتوعدها على احتلالها أماكنهم؛ فيشيب قلبها للوعيد!

تصحو . . تتشتت سريعا بقايا النعاس . . يتملكها رعب قاتل . . تلم أطرافها البعيدة وتجلس منكمشا بعضها إلى بعض فى الزاوية الضيقة . . ليست هى المرة الأولى التى تأتيها فيها هذه المرأة . . الثانية؟! . . الثالثة؟! . . لا تتذكر، ولكنها تتذكر مرتها الأولى عن يقين . . هى هى لم يتغير فيها شىء . . طولها الرعيب وسوادها الكاسى . . وجهها بلون ملابسها أسود من ظلام الزنزانة؛ يبرز سواده فى سوادها الحالك؛ عيناها الحمراوان كجمرتين تنبثق منهما خيوط الشرر؛ وأطراف طرحتها السوداء تتطاير فى الهواء كأنما تلوحها رياح عاتية!

جاءتها أول ليلة جىء بها إلى هذه الزنزانة فى ظلمة الليل الدامسة؛ حينها ألقيت فى ركن منها على نفس هذه الحشية وفى نفس هذا المكان الذى كان مجهول المعالم بالنسبة لها فى تلك الليلة فى الظلمة الكاسية . . تذكر ذلك جيدا ولا تنساه، حين ظلت ساهرة أكثر

الليل تخاف النوم؛ ثم أغفت على الرغم منها فى نهاية الجهد . . لقد جاءتها المرأة الرهيبة كما جاءتها الآن . . فتحت الباب الأسود العملاق وانفلتت إلى الداخل كالريح الهائجة . . نظرت إليها شذرا بعينيها الناريتين تهددها وتتوعدها؛ ثم مرقت من باب صغير يقع فى نفس الجدار الذى يقبع تحته الفراش الفقير، إلى حجرة ملاصقة مليئة بصفائح سمن وجبن وخزين طعام من أنواع شتى! أدركت فى لحظتها أنه لتلك المرأة وأهلها! . . وفى الصباح التالى اكتشفت أن فى المكان الذى كانت فيه تلك الحجرة الملاصقة تقع دورة المياه فى هذا السرداب الرعيب!

انقطعت عنها الزيارة الرعيبة فترة من الزمن كان فيها المبنى معمورا بالخلائق الطيبة، حيث كان حفيف أصواتهم المفعمة بالرحمة والخشوع تتجاوب أصداؤه فى أنحاء المبنى بالترتيل والصلاة والدعاء . . ثم انطوى ذلك العهد الذى كان رحيما بها فعادت إلى تلك الوحدة القاتلة تذرع فى ظلمتها الأيام والليلات! . . كان ذلك منذ ذلك اليوم الذى تفتق فيه ذكاء الأشقياء الشرير عن هذا اللون الجديد فى فن العذاب؛ بعد أن امتلأت قلوبهم بحقد جديد عليها وعلى أسرتها جميعها . . كان ذلك بعد محاورة طويلة استغرقت الساعات، أداروها معها فى مكاتبهم مجتمعين لها! وسموها «مناقشة حرة»!

قالوا لها إن التحقيق «العادل» أثبت لهم أن لا علاقة لها «بالقضية!» ولكنهم يريدون فقط أن يجروا معها حوارا «حرا» حول بعض المفاهيم

والأفكار! . . كانت محاورة اختبار؛ مجسا خبيثا لقياس وعى المؤمنين. . وعيهم لحقيقة عقيدتهم وحقائق ما يدور فى الساحة حولهم من كيد! . . كانوا يريدون أن يعرفوا رصيدها من ذلك كله فعليه تتوقف قراراتهم؛ وحسبه تصاغ «الأحكام»! . . كانوا يختبرون تمكنها من عقيدتها واستمساكها بها بعد كل هذا الذى ذاقته وتكبدته . . بعد كل الإغراء وكل التهديد . . كان لابد أن يوزن ثقل كل فرد على حدة . . خطر وجوده على عالم الفسوق الذى يراد له أن يهيمن وأن يستقر فى البلاد والعباد! . . ثم يوضع كل فى المكان اللائق به فى سلَّم العذاب . . سلم العقاب والإبادة . . سلم المطرودين من رحمة «الآلهة الجدد»؛ الموضوعين تحت لافتة: «أعداء الشعب»! . . ومن ثم يفصل على مقاسه دوره فى «القضية» المنسوجة!

هل كان عليها أن تناور؟! أن تختبئ وراء الأغطية الكاذبة؟! أن تتشبث بالقانون «العادل» الذى برأها من أحداث «القضية» فترضيهم بما يحبون؟! هل كان عليها أن تداهن حتى تفلت من بغيهم كما ركب هذا المركب كثيرون؟! هل كان عليها أن تنظر إلى الأمر من ناحية ذاتها الفردية فقط وتنسى أنها تقف فى ساحة شهادة لدين الله حيث تقال كلمة الحق فى وجه سلطان جائر . . فى وجه كفر أسود باغ؟! . . دار ذلك كله فى نفسها فى تلك اللحظات العصيبة قبل بدء الحوار؛ ثم ساقها قلبها الموقن بالحق إلى الطريق الآخر؛ رغم الخوف اللاغب أمام مجمع يضم الاثنى عشر جلاداً الذين يديرون مذابح ساحة الموت فى السجن الرهيب!

كان بيدها أن تنافق؛ أن تتبرأ من جماعتها التي يصفونها كذبا بأنها جماعة باطل، جماعة اعتداء وجريمة؛ جماعة عنف وقتل؛ لتكسب بذلك الأمن والحياة والراحة؛ لتحصل على العودة الهانئة إلى بيتها وأهليها! كان بيدها أن تتملص من كل رباط بالآخرين؛ أن تتملص حتى من مظهرها الذي يحمل في شكله وجهتها؛ وأن تلقى تبعته على أولياء الأمر! ولكن قلبها الموقن بالحق رفض طريق التقية!.. رفض أن يترخص، وأصر على قولة الحق الهائلة التي يفزع لذكرها الطغاة في كل زمان وهم يحاربون سلطان الله النافذ!.. يحلون ما حرم ويحرمون ما أحل؛ ينشرون الفساد في الأرض ويخرجون الناس من أمر الله ماوسعتهم الحيلة!.. ما سولت لهم أنفسهم من رفض لسلطان الله وما واتاهم طغيانهم!

الآن؛ ماذا تستطيع؟! والمرأة الشيطانية تطاردها في عقر زنزانتها فلا تملك منها الفكاك!.. تهددها وتتوعدها إن بقيت فيها وهي لا تملك مغادرتها حتى لليلة واحدة.. حتى لساعة واحدة من ليلة!.. وهل تملك أن تكذب ناظريها؟!.. وهل تملك أن تنفي أمام عقلها مغزى هذا التكرار العجيب!.. أن تكذِّب تلك الصورة التي لا يتغير منها شيء قط، تدهمها المرة تلو المرة، تحمل نفس السمت، نفس الحركة، نفس النظرة الغاضبة التي يتطاير منها الشرر، نفس الحدقتين الجمريتين، ونفس أطراف الطرحة السوداء تحركها زوبعة الإعصار؟!.. أليست توقن أن الجن حقيقة؛ خلق من خلق الله يعيش مع الإنسان على هذه الأرض!.. أليست تعرف كما أنبأ رب الحق أن من هذا الخلق الصالح والشرير كالإنسان سواء بسواء.. منه

المسلم والكافر! . . وهل يسكن هذا الوكر الإجرامى غير الكفار! . . عندئذ تتملكها قشعريرة هائلة تكتنف الرأس والجسد؛ توقف الدم فى العروق؛ والجسد المتقلص ملتصقا بالحائط يتصلب؛ يجف حتى أطراف القدمين! . .

الوجه الأسود الغاضب يتراءى لها، يتردد داخل الطبقات المتكاثفة من الظلمة؛ يتعدد حتى يملأ كل فراغ الحجرة! . . لا تملك أن تغمض عينيها . . تحملق تحملق حتى يتساوى اللاإبصار مع الإبصار!

لا شىء جديد؛ إنها عذابات كل ليلة منذ ذلك التاريخ؛ تعود مع عودة الظلام الذى يطمر الأمتار القليلة المحاطة بالسدود؛ إنها مشكلة الليلات الطويلة التى نسيت أعدادها، منذ قرر شياطين العذاب بعد تلك الليلة، «ليلة الاختبار»، أن يرحلوا سكان الحجرات الثمانية الأخرى إلى مكان لاتعلمه، لتبقى هى وحدها فى هذا السرداب تذوق عذابات الصمت والظلام والرعب المنبث فى كل ركن فى هذه المقبرة الموحشة حتى فى ساعات النهار؛ الرعيبة الرعيبة إذا جن الليل!

هل تجد فى قلبها دبيب ندم؟! . . ما أعمق حزنها إذا حدث هذا! . . فى تلك اللحظات العصيبة وهى تقف أمام مجمع الجلادين مجردة من كل سلاح تحت سطوتهم؛ همس قلبها متوجها إلى ربها يدعوه أن يختار لها الأحب إليه . . إنها شهادة له، وفى سبيل رضاه فيوجهها إلى ما فيه مرضاته . . طلبت منه النصرة على القوم الظالمين؛ طلبت منه ألا يجعل لهم عليها سبيلا فيما تخشى! . . واستجاب الله لها، وفى لحظات قليلة كانت هى، الفقيرة من كل عون أرضى،

المجردة عن كل قوة، كانت هى التى تحاكمهم وتصمهم بما يصمهم به الله من كفر وظلم وفسوق؛ وكان الخزى يتبدى على وجوههم! . . فهل يمكن الآن أن تندم! . . أن يتسرب إلى قلبها شك فيما تحمل من حق تحت وقر هذا الرعب الجاثم؟!

إنها تعيش رافعة الرأس والقلب أمام نفسها منذ ذلك التاريخ؛ رغم كل أهوال النهار والليل. . رغم مضض الوحدة القاتل، خصوصا حين يجن الليل ويسدل الظلام ستره الثقيل. . حين تغلق أوكار التعذيب المجاورة أبوابها، ويرحل وحوشها الكبار بعد يوم حافل بالصراخ والدماء ولذع السياط، مثقل بالسباب البذىء وبلعن الآباء والأجداد، وبافتراء البهتان الفاحش على الأمهات والجدات، وبلعن دين المعذبين ودين آبائهم وأهليهم! . . فإذا حان وقت الغروب ورحل عتاة الوحش، سكنت الأصوات كلها حول المبنى المفرد فى هذه الساحة الواسعة والقابع على بعد أمتار قليلة من مكاتبهم، والمعد إعدادا خاصا لتعذيب العصاة! . . حينها ينفض السامر ويذهب صغار الجلادين إلى أعمالهم الأخرى أو إلى مجالسهم فى الطرف الآخر المأهول من الساحة المترامية؛ ويترك الجميع صدى أحداث مجزرة النهار التى يطن هديرها القارس فى أعماق روحها المفردة فى الصمت والظلام، وينسرب فحيحها كسم الأفعى مع دفقات الدم فى العروق؛ يجسِّم الصمت والظلام كل قطرة دم أريقت وكل نفس روِّعت وكل روح أزهقت. . وفى أغوار القلب يتجسد رجع الأصوت ويتدافع صراخ الاستغاثة المحزن وأنين الألم الفادح كأسنان السيوف. . والأعصاب التى تشحذ قوى الصمود طوال اليوم تحط

رحالها وتستنيم ساعة لضعفها تحت وطأة الواقع المهول . . ثم يسلمها هذا كله إلى النوم المتقطع المحشو بالكوابيس وأحلام الرعب؛ تتناوشها الواحدة تلو الأخرى طوال ليل طويل ملفع بالظلمة؛ حتى تنقذها دقات الحارس على الباب المقفل فى الصباح! . . حينئذ تصحو . . تصحو راغمة الأنف؛ كل ذرة فى كيانها تتلهف على لحظة نوم فى أمن الضوء، بعد أن رحلت أشباح الظلام وقبل أن يبدأ المسلخ الرهيب عمله! . . لكن هيهات، فطقوس الصباح لابد أن تؤدى: لقيمات الصباح ودورة المياه! . . ثم يسلمها الضوء إلى مجزرة نهار جديد . . لتتسلمها بعد ساعات ظلمة ليل جديد!

ماذا تفعل؟! . . كيف تعيش بلا نوم؟! . . كيف تواصل استمساك القلب وشموخ الروح الذى تواجه به العدو اللئيم؛ وهو فرض عين على كل مؤمن؟! . . كيف والنوم حياة لا تبقى بدونه الحياة! . . والنوم سكن لا تبقى بدونه صلابة روح ولا قوة جسد! . . والنوم عدة للصبر والثبات والصمود! . . وها هم أولاء شرار الخلق يحطمونه عن عمد وبأبشع الطرق لؤما وفظاظة حتى يصلوا إلى مبتغاهم اللئيم . . حتى تتحطم صلابة المؤمنين وينهاروا تحت أقدامهم! . . لقد وهب الله الرحيم رحمته لعباده فانتزعها الكفرة غلاظ الأكباد من العباد!

أعضاؤها فى وضعها المنكمش المتكور فى زاوية الحائط تكاد تتيبس؛ وهى فى رعبها لا تستطيع أن تمد ساقيها إلى بعيد فتختطف أقدامها الأشباح! . . والمرأة السوداء العملاقة ما يزال شبحها يجوس فى فراغ الظلمة، يخايل لبصرها المشدود ثم يغيب! . . والنوم الذى

يثقل كل ذرة من ذرات الجسد لا يملك أن يرخى أعصاب الجفنين المعلقين بخيوط سحرية إلى الفراغ الدامس؛ وأعضاء الجسد التى يتغلغل فيها النعاس توشك أن تتهاوى الواحدة فوق الأخرى! . . لو تنام . . بلا أحلام . . بلا أعين كالجمر تحرق بالنظرات الشريرة (. .) وبلا أسلاك مشتعلة تخرج من مكامن فى الجدران لتحاصر وتلتف! . . لو . . لو تنام ليلة واحدة تسترد بها قوى جسمها الذى يوشك على الانهيار؛ وقوى روحها التى تنافح وتنافح لتبقى فى شموخها؛ وأخشى ما تخشاه أن ينضب الرصيد!

تفكر . . يوغل الرأس المجهد فى التفكير باحثا عن مخرج . . تحس أعصاب الرأس مشدودة كالحبال تكاد أن تتمزق . . لابد من إنقاذ . . لكن كيف؟ . . هل تطلب من هؤلاء الأوغاد؟! . . كلا . . فهذا ما يخططون له ويسعون إليه؛ أن ترجوهم يوما؛ أن تطأطئ تحت قسوة المعاناة هذه الجبهة الشامخة! . . لو كان الأمر يخصها لذاتها لطأطأت الرأس منذ زمان؛ ولأفلتت من براثن العذاب الهائل من كل لون؛ ولكنه يخص طريق الله الذى رفع قلبها رايته؛ أعز راية هى؛ وخاسئ خاسر مَنْ ينكسها من أجل عيشه بعد أن رفعها! . . يا ألله . . ألا من مخرج كريم؟!

هل كان عليها أن تطلب من الحارس إيقاد النور فى الغرفة قبل أن يغادر المبنى آخر مرة قبيل هجوم الظلام حين أتاها بطعام العشاء؟! . . ذلك الذى تسميه «نور التعذيب» بعد تلك التجربة القارسة التى مرت بها تلك الليلة . . آثارها الرهيبة ما تزال ماثلة أمام عينيها، لا تنساها ذاكرتها! . .

ليتها فعلت ؛ فقد يكون الضوء أرحم بها ، ولو قليلا ، من أشباح هذه الظلمة ، ومن وجه المرأة السوداء التى تصر على زياراتها الرهيبة ! . . لكن ذلك الحارس المعتم القلب لم يمهلها لحظات تفكر . . مضى سريعا وأغلق خلفه الباب كأنما يفر من مستعمرة الجذام !

حين سألها الحارس سؤاله المعتاد كل ليلة منذ أن أدخل النور إلى هذه الزنزانة ، كانت بحاجة إلى برهة لتقارن بين العذابين وتختار ! فلما رأته معجلا طلبت بغير تدبر أن يظل النور مُطفأ ؛ فلقد كانت صورة الليلة التى أشعل فيها الضوء داخل الزنزانة وهول معاناتها ما تزال جاثمة فى مشاعرها لا تطيق تكرار عذاباتها منذ ذلك التاريخ !

لما قرر الزبانية قبل أيام أن يزودا هذه الزنزانة بمصباح كهربائى حسب مطالب الطبيب الذى يُستدعى إليها فى بعض الليلات بعدما ارتفع ضغطها ووصل إلى درجة الخطر ، ظنت أن عذابات لياليها قد ذهبت إلى غير رجعة ، وظلت فرحة طفولة تغمر مشاعرها طوال اليوم ؛ وتفتح فى قلبها أفق أمل غامض الملامح ؛ تهون فى ثناياه هموم الرحلة ! . . وفى ذلك النهار مرت الساعات التى سبقت مجىء الليل خفيفة هنيئة ، رغم كل عذاباتها المألوفة ؛ كأن القلب الغارق فى لجة الموج العاتى قد وصل إلى مرفأ أمين ؛ وكأن أبواب فرج واسع توشك أن تنفتح ؛ كان روحها يمتلىء بشعور من يحط رحاله بعد رحلة واغلة البعد ويستلقى ليستريح ؛ وكان كيانها كله ينتظر المساء كأمل حلو ، حين تخرس أصوات السياط ويكف الأنين الموجع وفحيح الصراخ الساحق لنياط القلب ، ليستلقى الكيان المرهق ساعات مع أنس الضياء

بغير أشباح فزع؛ ويهدأ الجسم القابع تحت سطوة الرعب وتسلُّط الصور الوحشية، ذلك الذى دمر قواه سهر الليل بعد الليل!

لكن.. ويا لخيبة المسعى فى تلك الليلة!.. لاتقوى على أن تستعيد فى حسها معاناة تلك الليلة ولا أن تنساها!.. معاناة الدقائق، دقيقة إثر دقيقة ثم ساعة إثر ساعة؛ هنيهة وراء هنيهة تخترق اللحظة منها العظام وتصل إلى عمق النخاع!.. لكم تتعدد فى دنيانا الصغيرة هذه أنواع المعاناة! ولكم تتداخل النعمة والنقمة ويختلط الأسود والأبيض فيتوق القلب إلى هناك إلى عالم النعيم الخالص.. لكنها كانت درسا.. درسا رائعا كريما من عند الله!

* * *

رويدا رويدا تبدأ القصة التى خطت فى قلبها وفى مشاعرها معلما من معالم الطريق!.. كانت الفرحة تتسلل إلى حواسها كلها حين سطع جو الزنزانة لأول مرة منذ أن وطأتها قدماها بالضوء الباهر.. ينير الأركان التى يتجسد منها الخوف كل مساء وتتكدس فى ظلمتها الظلمة وتتحرك فيها الأشباح.. فى النور المشرق تتجلى كل الأشياء، كل صغيرة كانت تتوارى حتى فى ضوء النهار الخافت فى هذه الأمتار المسدودة، المحرومة أبدا من لون الشمس، برزت واضحة للعين وللقلب.. حتى لون الجدران الباهت أصبح يتلألأ تحت انعكاسات هذا النور الساطع المتدلى من أعلى.. حتى السقف المتوارى دوما عنها فى بعده عن مقعدها الدائم فى الأسفل!.. فرحة الضوء تزغرد

بين الأرجاء وترتد إلى الروح نشاطا؛ أملا غامضا يفتح أفقا في السد الجاثم!

ثم . . ثم يتراخى الجسم المنهك من سهر الليلات وراء الليلات؛ يشتهي النوم، يستلقي في استرخاء، يسبح في طمأنينة هانئة وقد ذهب الخوف، وتوارت في الأعصاب المسترخية بعد الشد الطويل كل هاجسة للرعب . . اختفت الأطياف والأشباح وقد طردها كلها النور الباهر وأجلاها . . قالت في أعماقها المطمئنة : «لا أحد في المكان الشاسع كله؛ نعم، ولكن لا بأس فالنور أنيس، بل خير أنيس في الوحدة . . لن يترك للوحشة مكانا والقلب عامر بالله . . ولا مكان الآن لهلاميات الشيطان»!

لكن الوقت يمر، دقيقة في إثر دقيقة . . الجسد يثقل، يثقله النعاس الغامر، يتغلغل في خلاياه . . يهفو . . بحنين واغل يهفو إلى النوم . . يشتهيه بأعماقه، بكل خلية استرخت وحلمت بلحظات نعيم ناعم فيه!

أين النوم؟! أين الحلم المرجو منذ بعيد؟! لماذا لا تسكن الأجفان؟! مشدودة إلى أعلى كأنما تستعصي على الإقفال؟! . . الضوء؟! . . الضوء الأنيس؟! . . الحلم المرجو؟! . . يا للخيبة! . . حتى هذا الأمل المرتجى . . الأمل الذي أشاع اللون الأبيض في أعماق السواد حين تحقق؛ وفي أغوار الروح! حتى هذا سوف يشارك في التعذيب!

لكن لا تيأس ! . . تحاول المرة بعد المرة بعد المرة ! . . تحاول أن يسترخى الجسد الممدود على راحته حتى أطرافه . . أليست هذه نعمة ! . . نعمة تكفى الجسد حتى لو لم يأت النوم ؛ أن يتمدد الجسم بلا خوف . . أن يستلقى الرأس المشدود الأعصاب على وسادته كيف يشاء . . أن تمتد الأذرع كل فى وجهته حيث يريد !

تحاول إذن أن تستمتع بنعمة هذا الأمن . . بنعمة العصب المسترخى . . تحاول إغلاق الجفنين . . تتحسس بيديها الموضع . . تضع الأذرع فوق العينين المقفلتين . . لكن ما بال الضوء يمر ؟ ! يدخل يدخل ؛ يخترق الحدقات ، يغرز فى عمق العينين ! . . حسنا . . فلتستبدل الجنب الأيمن ، على راحته ، بالجنب الأيسر ، فيكون الوجه إلى الحائط حتى ينكسر الضوء قليلا !

كلا ، لا يغنى ! . . فطلاء الجدران الباهت يلمع تحت الإشعاع العاتى ! . . المصباح قوى والحجرة أمتار معدودة ! . . لا بأس ؛ فالغطاء الرمادى الغامق كفيل بصد الضوء . . بصد المنافذ على قوة نفاذه التى لا تحفل بغطاء الأيدى ! . . تدفن الرأس داخل الغطاء ، تسد حولها كل ثغرة ؛ لكن النور يمد ذراعيه العاتيتين ؛ يمزق الغطاء ، يتخطى الحاجز ، ينفذ ينفذ ، يسرى حتى العمق ، فى البؤرة يتوهج ، ويستقر ! . . كيف يكون المهرب ؟ ! أين تخبىء تلك الأعين ؟ ؛ كيف تغطى الأحداق ؟ كيف تحول بين الضوء الوحشى وبين الحدقة !

تنهض ! . . الجسد المسترخى يجرجر أعضاءه . . بصعوبة يحمل خلاياه إلى الركن الآخر . . فى جعبتها تبحث عن أطمار ، كل ما هو

منهـا له سـمك أو لون مـعـتم؛ ترجع . . لا بأس، فـمـا زال الليل فى أوله؛ ما زال الأمل طموحا يأمل فى ليلة نوم هانئ بغير أشباح!

تمضى ساعة . . ساعات . . الضوء يزغرد فى فراغ الحجرة وفوق كل شىء فيـهـا؛ يشبـه الصراخ ويخـتـرق خلايا الرأس؛ مـا أقسى إلحاحه؛ يفترش الساحة وينفذ فى ذرات الفضاء المسجون، يطفو فوق الأشكال ويبرزها حتى تصطك بلحم الوجه، بعظمه، تصطدم بعظم محاجر العينين؛ تتوهج فى الخدين! . .

النور يسقط كل غـطاء؛ لا مهرب ولا منجى؛ يسرى يسرى لا شىء يوقف سـريانه؛ لا شىء يصـده، يختـرق الذرات، يمـزق كل حـجـاب، يدفع كل غطاء مـهـمـا تكـدس من أطـمـار فـوق الـرأس يجوس؛ مهما تدثر الجسد المتخم بالنوم؛ ينفذ لا شىء يعوقه، يستل براعم النوم من كل خلية!

تمر اللحظات! . . رهيب سـريانه، يخـتـرق عظام الرأس؛ يأكل أطراف الأعصاب الممتدة . . والرقبة؟ . . قوة مجهولة تنزعها من فوق وسادتها كأنما تشدها إلى أعلى . . تتحسسها، تضغط عليها لتبقيها فى موضعهـا . . بيديهـا تضغط فـوق الجفنين، فـوق الأطمار المتراصة فـوقـهـا . . لا شىء يحـول . . مفتوحـة حتى أعمـاق البـؤبؤ رغم الإغلاق؛ رغم الأطمار، رغم الكفين المشدودتين!

الضـوء . . يا للضوء المتوحـش! ينصـب ثقيـلا مـحـمر العـينين فـوق الجسد النائم . . ينشب أطرافا كـالأسلاك محـماة تنفذ حتى العظم . . تخترق العظم، تندك عـميقا فى مدخل كل خلية! . . . يا

للأمل الخائب . . يا للضوء الخائن! ناعم الملمس كالثعبان الأرقط هذا الضوء!

الساعة إثر الساعة تزحف؛ لا قطرة نوم؛ أين المهرب . . تجلس . . تقف . . تمشى . . فى ثورة؛ فى حدة؛ تصرخ، تدق الباب المسدود بكلتا كفيها! . . كيف تنام؟! . . كيف تعيش بلا نوم؟! . . تبكى . . تجهش . . ماذا تفعل؟! . . حتى لحظات النوم المخطوفة بين كوابيس الظلمة لا تقرب عينيها! . . أين المهرب، والباب المغلق سد مانع والحل جد يسير يقبع خلفه؛ لمسة واحدة لمفتاح النور على مد ذراع؛ ولكن الإنقاذ بعيد؛ أبعد من الوصول إلى نجم فى فضاء؛ حركة واحدة هى أيسر من رشفة ماء توقف هذا العذاب القارس كله وتنهى مأساة هذه الليلة؛ تترك هذا الجسد المتلهف الأعصاب على نوم يغفو ساعة؛ يرتاح هنيهة . . يا لعذابات ويا لقسوة المعاناة فى دنيا تتحكم فيها شراسة الكفر! . . لو يتوارى الليل من الكون! . . يذهب إلى غير رجعة!

* * *

لكن فى أعماق المأساة، فى أجدب أرض؛ تنبت زهرة . . تطرق القلب آية من آيات الله تذكر بالله وتدفق فى جنبات الروح نسائم رحمة: «قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» . . نعم . . كيف؟!

كيف لو امتد هذا «النهار المزعج» . . نهار هذه الليلة ، إلى ما لا تحصى من زمن؟ ! . . إلى طول أجلها الباقى ؛ وقد كادت تتحطم من بعض ليلة؟ ! . . وكيف لو امتد ليل الأشباح المظلم ؛ ليل الليلات السابقة ؛ إلى طول أجلها الباقى؟ ! . . كم مرة مرت بهذه الآيات وهى تقرأ وردها القرآنى كل يوم غافلة القلب عما تحمل من أعماق؟ ! . . تلمس قلبها لحظات ثم تغيب ! . . كم كان الأمر فى حسها يسيرا هينا ، طبيعيا ومعتاداً ؛ دخول الليل كل ليلة وطلوع الصباح كل صباح ! فهل حرك ذلك فى قلبها من مشاعر الحمد الشاكر لله ما يكافئ صنيعه؟ ! . . هل أدركت أعماق النعمة وضخامة الرحمة وهى تنام ملء جفنيها فى الفراش الوثير ، تفكر فى مشاغل الساعة ومشاكل دنياها الصغيرة ؛ وعلى مقربة من يدها مفتاح المصباح الماثل بجوارها ، تفتحه حتى تستقر طمأنينة الأمن فى القلب ، وتطفئه حين يتهادى النوم إلى الجفنين الناعمين فى عطاء المنعم ، هكذا دون رقيب؟ ! . . هل عبدت الله بما يكافئ آلاءه وهى تصحو ملء عافيتها فى كل صباح منير . . تخرج من حجرتها إلى حمامها الذى يشرق بالنور ! . . تهبط البيت الواسع فتجد رخاء يومها مشرق البسمات وهى غافلة عن المنعم به ! . . هل أحست حينذاك رحابة نعم الله الوهاب بغير مسألة؟ !

هل ترفض اليوم أن تعانى بضع ليلات مشقة لتجربة فى طريق هذا الوهاب الكريم ! لا تقاس بأعداد ليال مرت وليال سوف تجيء مغمورة بالنعم . بنعمة الليل والنهار يتواليان . . والليلات على مشقتها يقطع أشباح ليلها صباح ، ويقطع عذابات نهارها ظلام ليل !

رفعت كفيها المتشنجتين من فوق الباب المغلق الصامد؛ ومشت فى خطى وئيدة هادئة إلى الفراش، استلقت مسندة رأسها وكتفيها إلى الحائط القريب. . من الأغوار، تطل إشراقة نوروتنداح؛ وفى العمق تتفتح براعم كانت بعد مغلفة فى الغبش، وتتفتق عن أنوار علم. . كم لآيات الله المقروءة من آفاق للعلم الحق؛ وكم لآياته المرئية من علم للواقع؛ تطل على حقائق الكون الكبرى وما وراء الكون! . . وكم ضل الذين علمونا فى مدارسنا ذلك العلم القاصر!

تكبر. . كل معالم داخلها تكبر. . تنضج. . فى بضع دقائق، فى لمحة نور تسطع فى الأعماق تنضج بضع سنين. . وفى القلب تستوى الموازين. . تبرز معالم وتتهادى أفكار عليا وتنساح مشاعر كاشفة كانت مكنونة. . كانت مغلفة بالصمت ملتفة بظلام سكون، بأغلفة جهل، برفاهية النعم المكرورة! . . كم تملك تلك النعمة وحدها أن تشمل من خلائق حتى لو حرمتها هى بعض ليلات؟! . . خلائق تسكن حين يجن الليل، ترتاح وتغفو. . وكم هى تلك التى تشملها نعمة الإصباح كل صباح! . . كم خلق من خلق البارئ تشملها هذه اللحظة نعمة سكن النوم؟ أهلوها منهم وأحباء كثروا أو قلوا، وخلائق تربطها بالقلب وشائج قربى، وشائج رحمة، وشائج عيش شامل! . . فما أعق هذا القلب لو يغمط فضل النعمة أن غابت لحظات عن موضع قدمه!

هل كان حتما أن تتلقى هذا الدرس القارس حتى تعى! . . أن تدخل فى التجربة الكبرى حتى تدرك! . . حتى تفقه آية من آيات الله

فى كونه وفى قرآنه! . . هل هذا ما تعنيه الآية حين تقول: «واتقوا الله ويعلمكم الله . . » . . حقا . . ما أبدع أن يتلقى القلب عن الله وهو يمارس، فيعلم . . فيتعلم من علم الله! . . السبيل هو التقوى؛ والتقوى لا تتم فى القلب حتى يهب الإنسان حياته فيتقبل الله الكريم منه حياته! . . يخوض بها فى عرصات الشوك والنيران حتى يتمهد فى الأرجاء طريق الحق! . . ألم يقل للمؤمنين بعد أن أدلجت قلوبهم فى الطريق إليه: «انفروا خفافًا وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله . . » .

الآن، هى والجمع المستهدف لعذابات الظلمة فى أشرس غابة وحش؛ هم فى أحضان المدرسة الكبرى يتلقون العلم؛ العلم الأعلى؛ علم الحق الأكبر . . والمعلم ـ سبحانه ـ هو رب الكون! . . ما أبدع هذا! . . هذى هى أجمل زهرة تتفتح فى أعماق عذابات الليل . . لكن فى قلب النور!

* * *

توارى شبح المرأة السوداء فى تلافيف شريط ليلة النور وغاب عن ناظريها . . داهم خيالها سؤال آخر وألح عليه فأبعد عن جفنيها إلى حين ثقلة النوم: ترى أين الآن وحوش الغابة هذه وزبانية المسلخ؟! . . ورئيسهم الأعلى فى القصر الكبير؟! . . كيف تراهم يقضون الليل؟! . . ترى أين هم فى هذه الساعة بالذات؛ وهى هنا وهى تخوض عذاباتهم تتمتع بفضل من الله رغم أنوفهم؛ وفى أعماق روحها تتفتح براعم نور آتية من عنده، وعلم يقين! . . ترى

هل مـرت بخـاطرهـم لحظة نور من هـذا النـور الملـهم؟! . . ترى هل يشعرون لحظة واحدة في ظلمة ليل بعين القـوة العظمى تراهم وهم يبيتون الكيد لدين الله؟! . . هل تحس قلوبهم لحظة في عمق ليل أنهم سوف يساقون إلى الملك الجبار فينبئهم بما عملوا؟! . .

* * *

لا تدرى متى توقف في ذهنها سيل خواطرها؛ ولا تحدد متى أخذها النعاس وقطعها عن ذلك كله . . ولكن الصباح جاء كما يجيء كل صباح . . وعاد الليل يغمر الأكوان ويغمر دنياها السجينة بظلام دامس ككل ليل . . وجاءها الحارس يسألها ككل مساء هل يوقد المصباح أم يتركه مُطفأ!

في حسها تتعاقب الصور بسرعة . . الليل سرمدا . . النهار سرمدا . . الظلمة القارسة وأشباح الليل الرهيبة . . النور الغارز أسنانه في عمق الحدقات . . هذه هي إرادة الطغاة بها؛ ولكن الله غالب على أمره! فالليل يعقبه النهار دوما؛ والنهار يعقبه الليل، والزمان يمضي بهم وبها وبالجمع كله مسرعا في المركبين، حيث يحط في آخر اليوم الطويل رحاله . . وعندها ـ يتجلى الحق الأكبر ويسيطر النور . .

المـــــائدة

تبكى؟!.. فاجأها الحدث على بساطته.. ليس غريبا أن تبكى، فلكم بكت فى هذه الظلمات المدلهمة؛ المثقلة بأطنان العذاب!.. ولكن نفسها ارتجفت خجلا لهذه الدموع التى انهمرت فى ضعف متهالك؛ فتحجرت للتوّ فى العينين المحملقتين.. أمن الجوع تبكى؟!.. كالطفل الصغير الذى لا يعى؛ الذى تنحسر هموم دنياه فى وجبة الطعام؟!.. هى.. القائمة على ثغرة من ثغرات هذا الجهاد الهائل المقدس؟!.. هى التى تماسكت تماسك الجبال الرواسى فى مواقف يتفتت فيها الصخر ويشيب لها القلب؟!.. هى التى وقفت صامدة والسياط تنوشها من كل صوب؛ لا تبقى موقعا فى الجسد الذى لم يألف العسف؛ الرافل طوال العمر فى نعيم الصون، فلم تنبس ببنت شفة ولم تدمع لها عين؟!.. هى التى صمدت أمام التهديد الفاحش القاتل؛ يزلزل الأعماق ويمزق الوعى؛ وتحجرت فى عينيها نظرات السخط والاحتقار؛ تلقيها من فوق على دناءة وجوه الذئاب فيبهتهم عنف صلابتها؟!.. أفتبكى هى من أجل الطعام؟!

هالها الخاطر فانسحبت من مشيتها الذاهبة الآيبة فى غير هدف وبغير انقطاع على أمتار الأرض السجينة، تمارسها منذ وقت لا

تدريه ، منذ أن أنشب الجوع أظافر مسنونة فى باطنها ، تنهش هذا الباطن البعيد عن سلطة يدها ، وتمزق فيه الأحشاء . . انسحبت إلى الفراش القابع فى ركن الحجرة الصغيرة ، وألقت إليه بجسمها البالغ النحول الواغل فى الإعياء ، وبكل قوى ذراعيها الواهنين ضغطت على معدتها الخاوية ، تحاول جاهدة أن تسكت العواء الذى تحسه يمور فى الحنيات . . يعض . . يقضم كالوحش الجائع!

على الرغم منها تنساح الدموع من جديد ، تهطل حتى تغمر خديها الضامرين! . . رغم كل الحياء الذى يتصبب فى حنايا نفسها فيغمض عينيها عن أن ترى هذا الوضع المعيب!

لم تتصور للحظة واحدة فى عيشها الذى انطوى أن إنسانا يستطيع أن يبكى حقا بسبب الجوع! . . لم تتصور قط أن تكون للجوع هذه السطوة البشعة على إنسان يعتز بكرامته ، بكيانه الإنسانى ؛ كيان روحه وقلبه وآفاق فكره الواسعة ؛ وخطرات مشاعره التى تحلق فى ملكوت أسمى من عالم الأرض لا تعنيه كثيرا مطالب الجسد!

ولكم صامت من قبل فلم يطفئ الجوع نور القلب ، بل زاده توهجا! . . ولكم مارست الجوع فى هذا السجن الفادح المعاناة فى كل ميدان وفى كل لحظة ، فصبرت واحتسبت . . فزاد ذلك قلبها إخباتا وروحها صفاء! . . فمالها اليوم تفقد الزمام؟! . . ومالها اليوم ترسب فى الاختبار؟!

اليوم يغوص هذا الجوع الوحشى فى أعماق لا تطولها خطرات النفس ولا آفاق الفكر ولا إشعاعات الروح! اليوم يغرز بآلامه فى

القلب فتحسه يهوى ويهوى ؛ يسقط عند القدمين ! . . اليوم تشعر به ينهش فى حنايا الداخل البعيد كأنما يفرى الأمعاء ويقذف بها تهوى فى أغوار بئر سحيقة ! . . اليوم تحسه وحشا كاسرا ناشبا مخلبه يجوس كالموت فى فراغ هائل، يدمر فى الجسد الواهن ما تبقى له من أطلال حياة !

العينان المثقلتان بالدمع مشدودتان إلى الباب المغلق، رغم أنفها ؛ رغم كل إرادتها ؛ رغم عزة نفسها القوية فى أعماقها التى لم تفقدها حتى فى لحظات الهول ؛ رغم الخجل الأسيف الذى يغرق وعيها . . مشدودتان تنتظران !

كل ذرة فيها مشدودة إلى اللحظة القادمة، مشرئبة الأعصاب تنتظر جفنة الطعام ! . . جفنة الطعام الفقيرة المظهر والمحتوى ! . العينان الدامعتان لا تكفان عن التعلق بالباب الأسود القائم كالرصد، ترقبان عنده لحظة حركة ! . . الأذنان مشدودتان إلى الخارج ترهفان السمع لوقع أقدام تخفق وراء السدود ! . . وهاجس فى الأعماق خفى يتلهف فى وجل وخجل إلى لحظة فرج يهل فيها وجه الحارس البغيض !

تَمضُ قلبها الصورة المهينة وتدوس بثقلها فوق كرامتها ! . . لكم هانتَ . . ولكم هان المؤمنون فى هذا العهد الأسود ؛ حين استعلى موج الباطل الضارب أطنابه فى جنبات الأرض ! . . ومن بين الدمع الذى لا تملك ردعه ترامى إلى قلبها ذلك الدعاء الخافق الخالد : «إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس . . أنت رب

المستضعفين وأنت ربى . . . » وتراءت لخيالها صورة صاحبه الكريم مفردًا تضرب قدماه الشريفتان فى أرض الكفر فى الزمان البعيد . . ترى هل دار الزمان دورته ، وعاد الدين غريبا كما بدأ ، وعاد صحبه إلى غربتهم الأولى وصحراء عيشهم القاحلة؟!

وتمضى الدقائق طويلة ثقيلة ، ويزحف الوقت ويمضى ؛ ويمضى معه موعد جفنة طعام الغداء الذى يحين عادة ظهر كل يوم . . ويبعد الرجاء فى وصول الجفنة المرتجاه ؛ ويغوص الكيان كله فى أغوار غثيان يشبه الإغماء! . . ترى هل يستعمل المجرمون الحرمان من هذا الطعام . . هذا الذى تعافه كلاب الطريق كأداة تعذيب جديد؟! . . ولقد كان الطعام هذا ذاته مستعملا كأداة تعذيب . . تعذيب غائر الوقع للنفس والجسد ؛ وكان معلما بارزا فى عذابات العيش فى هذه الغابة الرهيبة ؛ أوقع لذعا من لذع السياط ؛ وأدمى على النفوس من ساقط السباب الذى لاتكف عنه ألسنتهم ، والذى ينهال على الأشراف من عباد الله بغير انقطاع ! . .

كان هذا الطعام بالنسبة لها فرضا من فروض المقاساة العصيبة التى لابد لها من أن تمارسها فى رحلة الشوك والدماء هذه ، وأمرا من أمر الجهاد مغرقا فى الصعوبة مفرطا فى العناء ، تعد له النفس عدته وتجند له الروح قواها ! وتحفر لحظاته فى أيامها أخاديد ألم تجمع أطراف كل يوم وتلقيه فى لجة العنت الغامرة!

تذكرت . . تَذْكُر جيدا فلا تنسى ذلك الصباح . . أول صباح داهمها فى هذا القفر ؛ تذكر النقلة الهائلة من عالم الحياة إلى عالم

الموت ومن عالم الإنسان إلى عالم الوحش؛ غصته ما تزال فى كل ذرة.. فى القلب والبصر.. فى النفس والجسم.. وفى كل حاسة تتكيف فى الإنسان بالعادة وتتلون بلون الحياة فى الأحياء!.. تتذكر جيدا تلك اللحظة، حين انفتح الباب الأسود المتصدر الواجهة دوما كجسد الشيطان.. حين انفتح عليها لأول مرة، واندفع من فتحته دون كلمة استئذان واحدة، ذلك العملاق الأسود بحذائه الثقيل يدك الأرض الرمادية المليئة بالنتوءات والحفر كوجه شوهه الجدرى؛ كان يحمل فى يديه الغليظتين الباديتى الوسخ هذه الجفنة الحديدية المقززة للحس ولكل شعور يملك أن يحمله مخلوق حى؛ وفوقها كان يقبع الرغيف؛ لونه من لونها؛ لا يمكن لعالم فى الألوان أن يسمى ذلك اللون! ووسخه مع وسخها كانا يعزفان على أوتار القلب أصداء الهول المقبل الوشيك!

حين ألقى الحارس هذا أمامها ذلك الصباح الرهيب لتفطر؛ كأنما ألقى إليها بقدر العذاب الهائل الذى كتب لها أن تقاسيه هنا؛ وكانت تلك الجفنة بما تحمل رمزا وإشارة تحمل فى طياتها صوت النذير!

لاتنسى ما عاشت تفاصيل ذلك الصباح!.. كانت الموازين كلها فى حسها غير الموازين اليوم!.. كانت ساذجة ما تزال؛ وكان عودها هى أيضا لينًا لم يصلب بعد.. كانت الكرامة والمهانة فى حسها تتحقق فى مظاهر العيش، وفيما يعامل به الخلق الخلق؛ وكان ذلك الذى حدث فى نظرها مهانة لا تحتمل!.. بكت كثيرا يومها ذاك وغرق قلبها فى حسرة طاغية!.. يومها، لم تلق نظرة على ذلك

الغثاء المقزز؛ واعتبرته جزءًا كريهًا من هذه الإهانة التى لحقت بها! . .
لم تستطع وقتذاك حتى أن تمد يديها لتكشف عما تحت الرغيف ، رغم عض الجوع ورغم الغثيان الذى كان يمور فى الجوف الفارغ الذى لم يدخله طعام منذ الصباح الفائت؛ والذى قضى الليل كله ساهرا لم تغمض له عين! . . كان لون الجفنة ولون الرغيف ذاته يضاعفان فى المعدة الفارغة ذلك الغثيان!

كانت أول مرة بالنسبة لها فى دنياها ترى فيها رغيفا لونه بلون تراب الأرض؛ ولأول مرة فى تاريخ عمرها تسمع أن علف بهائم الروس يصنع به خبز للناس من عباد الله؛ وكانت أول رحلة لها فى جنبات الأرض ترى فيها وعاء كهذا الوعاء المفزع الذى تمنع قذارته كلاب الطريق الضالة أن تأكل فيه!

حين عاد الحارس وقتها ليسترد وعاءه وسألها لماذا لم تأكل ، تضاعف فى قلبها الجرح؛ وملأ نفسها الحرج ولم تستطع أن تجيب! . . حينها واجه قلبها سؤال مزعج : «أوَيُمكن أن تأكل ـ مهما فتك بها الجوع ـ من هذا الوعاء المقزز لكل عصب؛ ومن هذا الخبز الذى يعافه الحيوان الضال؟!» .

ولكن الزمان سار بخطاه الوئيدة يجوس فى كيانها الذى عاش عمرها الماضى كله؛ يمحو ما كان قد استقر فيه من معالمه؛ وتوالت الأيام تحمل ساعاتها ، ساعة بعد ساعة؛ دقيقة فى إثر دقيقة تحفر فى الكيان متطلبات الواقع الجديد ، وفرض الجوع القارس أوامره وداس بثقله فوق ترف العيش الذى غاب وغابت معه كل ملامح الحياة من

حوله؛ ودخلت أعصاب الحس كلها الساحة الجديدة، ساحة الجهاد والصبر والثبات وتحمل الأذى واجتياز المشاق . . كل المشاق!

وفى تلافيف خطو الزمن، الدائب فى مسيرته لا يوقفه شىء مهما عظم؛ تعلمت الحواس الكثير من العلم الجديد! . . تعلمت المعدة المترفة العيش، المرفهة الحس، كيف تمسك بهمس نبضها؛ وكيف تلقى بعيدا بنزق رفاهيتها! . . وتعلم اللسان، وكل أعصاب التذوق التى كانت لا تقبل على الطعام إلا أن يكون متقنا بالغ الإتقان، أن فى الحياة أمورًا أشهى من طعم كل الأطعمة! . . وتعلم الجسم كيف يمارس الجوع والعطش ولا يضيق ولا يشكو . . تعلم كيف يصبر على قسوة الأرض اللاصقة بعظامه فى الليل والنهار . . تعلم كيف يغض الطرف عن قذارة الفراش . . عن بقع الصديد وبقع الدماء . . عن الرائحة التى تستثير أغوار الجوف . . وقد أدرك كل عضو دوره الجديد، وقرر الجميع دخول ساحة المعركة وقبول الطعان بصدر مفتوح! . . وفى عمق مشاعرها تقرر حفظ الحياة بلقيمات من هذا الغثاء، مهما تكن قسوة المعاناة . . لقيمات تعصم من انهيار القوى ونفاد الطاقة وتحطم المقاومة حتى نهاية المطاف حين يقضى الله بما يشاء! . . ودخلت وجبات الطعام فى جرعة عذابات اليوم المعتمدة . . عذابات كل يوم!

لقد قررت أن تعيش بشاعة المعاناة فلا تعجزها عذابات المجرمين ولا نيران بغيهم التى يوقدونها للمؤمنين فى كل لحظة وفى كل فج من فجاج العيش لتُفنى وجودهم وتُذل أرواحهم فينقلبوا خاسرين! . .

لقد أدركت حقيقة المعركة؛ أدركت أنها ليست معركة مصالح ولا اختلافات وجهات نظر؛ ولكنها معركة الأزل والأبد؛ معركة الحق الأكبر والباطل الخاسر. . معركة الأنبياء والمرسلين مع أتباع الشيطان فى التاريخ الطويل؛ فاختارت الصمود الذى لا يغلبه ضعف ولو طال طريق العذاب واستعر!

قررت ألا يغلبها جسدها بضعفه، بذلك الرخاء الذى ألان عوده!. . وضعته تحت سلطانها منذ استبان لها الطريق!. . هذه المعدة التى أتعبتها هناك فى دار الرخاء بعنف حساسياتها؛ عليها أن تطأطئ الرأس هنا!. . عليها أن تزدرد طعام الكلاب هذا من هذه الجفنة المقززة؛ وهى تعرف أن هذا الطعام كان قبل فى السطل الكبير الذى رأته قبل ساعات مملوءا بالمياه وقد غمرت فيها ملابس داخلية للجند وأحذية!. . تزدرد الطعام دون تمرد. . تتقبل منه ما يسد الرمق. . لقيمات تحفظ الحياة وتكفل الصمود! فالكل فى المعركة الكبرى. . ليست معركة حياة أو موت. . كلا؛ إنما هى معركة محو أو وجود لدين الله!. . أضخم بكثير من الموت والحياة!

بدأت ممارسة عذابها اليومى فى حفنة الطعام بقلب منشرح؛ تذوب فى حرارة إشعاعه فداحة المعاناة. . فى الصباح تحمل لها هذه الجفنة «الفلافلات» الثلاث أو قطعة الجبن القديمة أو جفنة «الفول المدمس» السوداء يعمرها السوس وتطفو فوق وجهها طبقة دود أبيض صغير لا يرى إلا للعين الفاحصة، وفوقها يقبع دائما رغيف العلف!. . حسنا. . فجرعة الماء المسموح بها، فى قعر العلبة الصغيرة التى كانت

في وقت قريب معبأة بالسردين، والتى رأتها مرارا تحت صنبور المياه في المرحاض؛ كفيلة بسد النقص! قادرة بغير شك على دفع اللقيمة الجافة في الحلق الجاف؛ معينة على ازدراد الحصوات التى تحفل بها «الفليفلات»! . . وجرعة الماء قادرة أيضا على طى مرارة الملح تغص بها ذرات قطعة الجبن القديم؛ وهى تغطى، بتسهيل سرعة ازدرادها، على تلك العفونة الكريهة المنبعثة منها! . . فإن لم يكن ذلك ممكنا فلا مشكلة هناك، فجرعة الماء بذاتها كافية؛ وقد بارك الله لها فيها بركة واسعة، وبضع لقيمات مغموسة فيها تكفى لسد الرمق! . . تحفظ الحياة وتحفظ عزيمة القلب وتبقى للروح إشراقها . . تسد غائلة الجوع في انتظار جفنة الغداء! . . آه لو علم الطغاة ذلك! . . إذن لمنعوا عنها جرعة المياة كما منعوا كتاب الله!

فى الغداء لا تعدم من رزق الله ما يحفظ الحياة ويتكفل بصمود القلب واستعلاء الروح . . ومن ثَمّ سلامة السير العسير فى أدغال الشوك . . فى جحيم يؤججه أعداء دين الله لعباده . . بضع لقيمات من وجه «رغيف العلف»، فباطنه لا تستطيع الأسنان طحنه وقد كان معدا من قبل لأفواه البهائم! . . لقيمات قليلة تغمس بطرفها فى السائل الغريب الطافح فى الجفنة حول الكتلة الرمادية التى لم تستطع مرة واحدة أن تدرك مكنوناتها؛ ولكنها تعلم يقينا أنها كانت فى مبدئها الأول من نبات الأرض؛ وهو خير دون شك من طعام المجرمين هناك حين يحين يوم العدل الأكبر! . . بضع لقيمات كفيلة بسد الرمق؛ بحفظ الحياة حتى المساء . . وهى كفيلة بإزجاء الحمد لله

الذى جعل لها بها قربة لأصحاب «الشِّعب»؛ ذلك الرهط الكريم مع الرسول الكريم فى ذلك الزمان البعيد القريب!

فإذا انطوت الساعات تتلوها الساعات وهفا الجوف الجائع إلى مدد يسكت الجوع وعواءه الملح، وتلهف الجسم الخاوى إلى سند من طاقة تنتصب بها أعضاؤه المتهافتة وتنتعش بها قواه.. وإذا هبط المساء وكست ظلمته أرجاء الزنزانة المغلقة؛ تكرم البغاة عليهم بوليمة العشاء! فى ذات الجفنة التى تعافها كلاب الطريق!

فى احتفال حزين راض تبدأ المعاناة كل ليلة.. معاناة وجبة العشاء!.. ماذا تملك الأسنان أن تمضغ وماذا يملك الحلق أن يزدرد وما الذى يمكن أن يستقر فى الجوف مما فى هذه الحفرات؟!.. «الأرز»؟.. نعم.. فلتبدأ إذن به؛ فما أشهى أن يطعم الفم المحروم طوال اليوم والأيام أرزا، وما أشد لهفة هذا الجوف الجائع إلى مثل هذا الطعام؛ وما أشد حاجة هذا الجسم الذى نزفت على الأيام قواه إلى هذا الغذاء!.. لكن واأسفاه.. يا للمأساة!.. فكيف لها فى هذه الظلمة الكاسية أن تفرز الأرزة من الحصاة؟! وكل منهما تجاور الأخرى وتلتصق بها؟!.. ولكنها فى الزمان المديد، والحاجة أم الاختراع، قد ابتكرت طريقة تجمع بها الحصوات باللسان قبل أن تطبق الأسنان؟ فلا يمر منها غير القليل!.. انحلت المشكلة إذن وساغت ملاعق الأرز القليلة واعتمدتها قاعدة للغذاء كل ليلة، فما تبقى من هذه الوجبة لا يملك الكائن الحى أن يسيغه؛ فرائحته المزعجة التى تملأ جو الزنزانة وتنفذ فى الخياشيم، تتسرب حتى أغوار الجوف وتستثير

ما تبقى له من أنفة سابقة لجَّمتها قسوة الصمود العنيد! . . فأما اللحوم فلا مطمع فى شىء منها وقد تكفل العسكر بإتلافها وهم يخرجونها من وعاء السلق الكبير على الأرض المفروشة بالحصى والتراب فيقطعونها هناك ثم يبقون لأنفسهم ما يريدون منها نظيفا لوجباتهم؛ ويوزعون منها ما لا تستطيع أن تبتلعه حتى الحيوانات الضالة!

يستكين الجوف الجائع اللاهف إلى الغذاء حسيرا . . بضع لحظات . . لكن القلب لا يلبث أن يضىء بنور الرضاء . . أليس ذلك من الجهاد . . أليس ذلك كله فى سبيل هذا الحق الأعظم . . أليس الجزاء الكريم على مقربة . . عند نهاية الطريق؟! فما أقصر الطريق ولو طال! . . لسوف يمضى الليل . . ولسوف يأتى صباح يسطع فيه نور الحق . . ولسوف يأتى يوم يهيمن فيه عدل هذا الدين السامق وينير الآفاق . . فهل مع هذا اليقين تبقى حسرة؛ ولو كانت الدنيا كلها فى كفة الميزان، لاوجبة من طعام!

وتمضى الأيام، ويعتاد الكيان كله تباريح المعاناة ويرضى القلب، وتستريح الروح لهذه القوة الصامدة التى وهبها الله إياها، تقود بها كل جزء فى هذا الكيان الذى يعانى فى ساحة الاجتباء الأليم العظيم . . تسيطر، حتى على خفقة القلب، حتى على أعماق الجوف! . . الكل سائر فى الطريق . . النار والشوك والمعاناة التى لا تغيب ساعة من يوم . . الكل سائر على استقامة وأنفة وصمت وصمود، وعلى الوجه الذابل بسمة تبده الرائى وتغيظ الفجرة المتربصين للحظة سقوط يفرحون بها ويمرحون! . . الكيان كله وكل

جزء منه يغرقه الألم والشوك والحرق، ولكن يلفه الرضاء الجميل كالرداء الكاسى، لا تبين تحت ستره الجميل مواقع الجروح والقروح. . فما لها اليوم؟!. . ما لها اليوم يفلت منها الزمام؟!

اليوم يبكيها الجوع!. . لأول مرة منذ وطئت قدماها غابة الوحوش هذه تنهار صريعة تحت أنيابه!. . لماذا ولم يتغير فى الأمر شىء؟!. . ولم يجد فى هذا الأمر جديد! ما لها اليوم تستثار فى حسها الأمور كأنها طارئ عليها جديد؟!. . هل أفلت الزمام الضابط وذابت المقاومة. . وهم ما يزالون فى أول الطريق!. . والطريق لاغب بمرارات العذاب من كل لون وبأحداث كبار تبدو فى ظلها مشاكل الطعام فقاعة من هواء!. .

ألا تتذكر كيف مرت أيام رمضان القريب الذى جاءها هنا وكيف كان يظللها فضل الله. . كانت تخاف قبل مجيئه أن تسقط إعياء فلا تستطيع الصيام بغير زاد. . بهذه اللقيمات الفارغة من كل غذاء. . ولكن الله أعانها فمر بها خفيفا ميسرا؛ أيسر من كل ما مضى من أعوام صيام لها فى عيشها الغنى بأطيب الطعام!. . كان سحورها هو تلك اللقيمات المعدودة لا يتجاوزها إلا حين يمن الله عليها بين الحين والحين بقطعة من «الفجل» أو بتمرة جافة يدسها الحارس فى يدها سرا قبل أن يغلق الباب فى المساء؛ إكراما لها فى ذلك الشهر الكريم!. . وكان قلبها مفعمًا بالرضاء الجميل، مشرقا بطيف سعادة هادئة لم ينعم بمثلها وهو فى نعيم دنياه هناك فى البيت الناعم والأمن الوريف؛ فى دفء الأسرة وفى إشراقة الأمل المفتوح. . فما الذى دهاها اليوم لساعات جوع؟!

يقـول الطبـيب إن هذا الدرك الذى وصلت إليـه صـحتـهـا وهذا المستوى من الهزال الذى أصاب جسمها ينذر بخطر حقيقى! . . فى كل مـرة يمر مروره الأسبوعى يطلب من مرافقه تبليغ المسئولين ذلك! . . يقول لهم إنه غير مسئول عما يصيبها فيما يأتى من أيام! . . يقول إن جسمها قد فرغ أو كاد من مقومات الحياة! . . يقول إن أجهزة جسمها تنذر بالتوقف الواحدة بعد الأخرى! . . يقول الكثير الكثير فلا يهتم بقوله أحد! . . فهل إلى هذه الأسباب ترجع آلام الجوع القارسة فى هذا اليوم وقد تجاوز موعد اللقيمات الساعات؟ . . هذه الآلام التى تنبش الجوف بقسوة لم تعهدها . . قسوة طاغية تتحدى القدرة وتمحق الصبر؟! . . أم أنها هزيمة الروح وقد طفح بها العذاب . . وخمود أنوار القلب؟!

ولكن سؤالا يلح يريد أن يتبين لماذا ألغى المجرمون اليوم وجبة الغذاء؛ أهى وحدها المستهدفة لهذا أم أنها عقوبة جديدة تنال الألوف! . . فقد اقتربت نهاية النهار ولم يحدث ذلك تلك الشهور الطوال! . . فهل وراء ذلك مؤامرة عذاب جديد . . ولم تأخذ لهذا حذرها فى وجبة الصباح فقد كان اليوم من أيام حفنة «الفول» وكان إفطارها هو تلك اللقيمات المبتلة بجرعة المياه! . . هل قرر المجرمون إذلالها بهذا الجوع القارس حتى تنهار قواها! . . حتى تلجأ إليهم ترجوهم خافضة الرأس! . . هذا الرأس الذى لم يحنه عذاب السياط ولم ينكس هامته قتل الأحبة الأقربين؟!

تتذكر، حين جاء أحدهم منذ أيام قلائل يساومها أن تسكت عما فعلوا (برفعت) فلا تذكر على لسانها أمر ذلك التعذيب الذى قتلوه

به، لا لهم ولا لغيرهم فى يوم من الأيام! . . لا تهددهم على جريمتهم بعذاب الله فى الدنيا والآخرة كلما واجهتهم! . . جاء يساومها بطعام فاخر يأتيها كل يوم من بيتها إن أرادت، أو من جانبهم إن أحبت! . . ينقذها من هذا الهزال الذى صارت إليه! . . تذكر كيف امتقع وجهه بالغيظ حين رفضت ذلك العرض السخى! . . فهل تكون هذه الحادثة وراء هذا الابتلاء الجديد؟!

انتفضت جالسة فى الفراش حين صك سمعها على حين غفلة صوت المزلاج فى الباب الخارجى للمبنى! . . فها هو لا بد فرج من عند الله يجىء! . . لا بد أنه الحارس جاء أخيرا يحمل إليها وجبة الغذاء التى طال عليها الأمد حتى قارب وقتها موعد الوجبة التالية!

لم تمض دقيقة حتى فتح باب الزنزانة؛ وبدا فى فتحتها الكيان الضخم الذى يفزعها حضوره، ويجفل قلبها لرؤيته؛ وطالعتها ملامح الوجه الوحشى تقودها إلى مكاتب التحقيق! . . يا ألله!

قلبها تشعر به يهوى إلى مكان سحيق! . . تتحامل على نفسها لتقف ولكن قواها تخونها فتهبط فى فراشها! . . تعيد المحاولة وفى صدرها تتهاوى كل قوى إرادتها حتى توشك أن تسقط من الإعياء . . تخشى ـ لأول مرة فى وجودها فى هذا المكان الرهيب ـ تخشى أن تفقد تماسكها . . أن تجهش ببكاء منهار يبدى كل ضعفها الذى تحسه ينبع من منابع بعيدة لا تملك لها مقاومة . . تخشى أن تعلن ملامحها عن كل الخواطر الحزينة التى تناوش قلبها كل تلك الساعات! . . لماذا؟! . . لماذا يصل العذاب إلى ما فوق القدرة؟! . . لماذا بعد أن

خاضت هذا الجهاد المرير لكى تصمد؟! . . هل يتركها الله تهوى أمام جبروتهم المطلق اليد بغير رادع؟! . . هل يضيع الله عملها وجهادها وصبرها وتصبرها، فيذهب كله هباء منثورا؟! . . هل يرضى الله لها ذلك المصير التعس، وقد ظنت أنها أخلصت له وجهها وابتغت بعملها رضاه؟! . . إنها لم تحن رأسها أمامهم قط، فهل يتركها الله تتهاوى فى حضرتهم؟! . . لم يكن ذلك حمية لنفسها، لكرامتها؛ فليس هناك مَنْ يستطيع أن يطيق هذا العذاب من أجل شىء من أمر ذاته ومن أمر دنياه . . من أمر هذه الدنيا بكاملها؛ ولكنه كان فى الطريق الواحد الذى فيه يستطاع حمل هذا البلاء . .

كانت حركتها تسرع على الرغم من ضعفها البادى؛ تلاحق فى غير وعى حركة الأفكار التى تمور فى جنبات روحها وتذرعها فى هلع بالغ صامت، ويمتلئ قلبها بخوف غامض . . تخشى شيئا غامضا يطاردها . . كأن هناك كاميرا سحرية ترقبها من داخلها . . تسجل عليها خطرات أعماقها المضطربة . .

تلتف حول نفسها تبحث عن معطفها وحذائها ثم تخرج مسرعة كأن عصا لاذعة تسوقها . . يتبع خطوها المضطرب خطو الوحش العملاق الثابت الخطى الذى يقتلع الأرض اقتلاعا؛ فيحدث خطوه الواثق المتعجرف فى روحها المزلزلة ذبذبات دوار ورجات تيه . . تمور فى ساحتها تساؤلات تائهة لا تهتدى إلى جواب: لماذا هم هكذا والآخرون فى قمة وجودهم وسيطرتهم . . لماذا تخور قواها كلها هكذا دفعة واحدة فتنقلب فيها الصورة!؟ . . لماذا يتخللها شعور كشعور الآبق من حكم مقدور، حين يساق فجأة إلى قدره؟! . .

في الطريق الطويل كان فكرها اللاهث مع أنفاسها يهدأ رويدا رويدا؛ ويتحدد في وعيها مساره: إنها ذاهبة إليهم. . هم العدو. . عليها أن تلملم جراح قلبها. . عليها أن تلم شعث مشاعرها حتى تلقاهم بصمودها المعتاد؛ فلا شيء جديد إلا هذا الجوع القارس والإعياء الجسدي المفرط. . هل ينسيها ذلك موقفها؟!. . مهمتها؟!. . دورها في معركة لله قامت؟!. . معركة الكفر فيها هو الباغي!. . هو المهاجم في غير اعتداء من جانبهم هم!. . رفعت رأسها إلى السماء. . الضوء ما يزال ساطعا رغم قطع الغيوم المتناثرة. . والبصر طليق يخترق الضوء إلى زرقة السماء الرائقة. . لماذا تبتئس، ورب الحق قائم على الحق فوق سبع سماوات؟!. . وماذا تخشى والحياة كلها لحظة عابرة؟! وهم وهم فيها حصانا سباق؛ الكاسب والخاسر فيهما لا يتحدد إلا في نهاية السباق!

ترى إلى أين تساق؛ فالطريق جديد بالنسبة إليها!. . ترى ما الذي جد في الساحة حتى يستدعوها في مثل هذه الساعة وهم يلملمون دفاترهم استعدادا لرحيلهم؟!. . ترى إلى مَنْ منهم تساق هذه المرة؟!

الجوع يعوي في الأحشاء لا يريد أن يهدأ أواره. . الأمعاء الفارغة تموء بقسوة تحدث صوتا تخشى أن يسمعه هذا السائر أمامها لا يفصلها عنه غير بضع خطوات. . تدعو الله ستره الجميل. . في صمت وفي دعاء لاهف. . لا ملجأ من الله إلا إليه. .

تصل المسيرة إلى نهايتها. . المبنى جديد تماما بالنسبة إليها، يبدو أيضا أنه جديد في مبناه. . يدخل الرجل وتدخل وراءه. . ردهة

واسعـة أنيقـة الأثاث . . المكان أشبـه «بڤيـلا» خاصة ، مـغاير لمبانى السجن القديمة المتناثرة فى الفضاء الشاسع . . لفت انتباهها بعد برهة قصيرة رائحة شواء تزخم أنفها ، تخترق خياشيمها وتنفلت إلى خواء الجوف فتجتاحه . . تدهمها غرابة الموقف ويسرى إلى نفسها قلق مفاجىء . . لماذا يؤتى بها إلى هنا ؛ ولا شىء هنا يوحى بأنه مكتب للتحقيق ! . . ماذا يراد بها فى هذا المكان . . هذا المسكن الخاص؟ !

ولكنها تسير ؛ تتبع خطو الضبع المخيف لا تملك التوقف ! . . يتحول القلق الثابت فى قلبها ، مع كل بضع خطوات إلى فزع قاتل . . ولكنها تسير ! . . هل تملك من أمر نفسها شيئا . . هل تملك العصيان . . يتطلع قلبها إلى الله فى دعاء خافق !

الطريق يفضى إلى ردهة واسعة بالغة الأناقة . . بكل هلع قلبها تتفقد عيناها المكان . . حجرة مائدة فاخرة كحجرات موائد القصور . . المائدة المستطيلة تحتل مساحة كبيرة من فراغ الحجرة الواسع ؛ تصطف حولها المقاعد الوثيرة الأنيقة فى تناسق تام وبذوق رفيع يجذب النظر . . بجوار الحوائط تمتد خوانات لامعة تتلألأ فوقها المرايا . . تفاجئها صورتها فى المرآة الممتدة بعرض الحائط المقابل . . يا ألله ! . . أهذه هى؟ ! . . أين هى التى تعرفها؟ ! . . كيف صارت إلى هذا الكائن الجديد ! . . لا تدرى كيف تواجهِ هذا الكائن الجديد الغريب ! . . لكن القلق الغامر يشغل القلب ويبدد كل خاطرة سواه !

تجابهها روائح شهية تهجم على خياشيمها دفعات إثر دفعات ؛ تمد بصرها دون إرادة منها إلى سطح المائدة . . أطباق واسعة فاخرة الصنع

تحفل بألوان طعام تتهاوى أمامها إرادة أكثر الناس شبعا وأغرقهم فى النعيم! . . ألوان لا تحصيها؛ تعرف بعضها من زمان ترفها البعيد وتجهل الأخرى!

قبل نهاية المائدة توقف الرجل مشيرا إليها بأن تقف لحظات هناك حتى يعود . . ابتعد قليلا ثم دلف إلى فتحة تتدلى فوقها ستارة مخملية حمراء فاخترقها وغاب وراءها! . . فاجأها التصرف الغريب وملأ قلبها رعبا؛ فهو لم يكن يتركها وحدها أبدا حتى يسلمها إلى آخر قبل أن يمضى؛ فماذا يعنى ذلك كله؟! ولماذا يتركها فى هذا المكان على وجه التحديد؟! . . ترى ما الذى يبيت لها فى هذا المكان الغريب . . ترى هل هناك علاقة ما بين إلغاء وجبة الغذاء وبين مجيئها إلى هنا . . ما بينه وبين تركها أمام هذا الحشد الغامر من الإغراء بعد جوع يوم طويل . . ترى هل هناك علاقة بين هذا الذى يجرى اليوم وبين رفضها قبل أيام قلائل لمساوماتهم؟!

على الرغم منها تجوس عيناها فى ألوان الطعام . . منظر الطعام البديع التنسيق فى الصحون يشد جوفها الخاوى، تتنزى المعدة الجائعة حين تتسلل إليها رائحته الشهية! . . منذ كم من الزمان الذى لا يحسب بالسنين والأشهر والأيام كانت تلك الأيام الواغلة فى أعماق التاريخ! حين كانت ترى مثل هذه الأطباق الأنيقة المعدة بذوق فائق على مائدة بيتها الكبير الذى كان يحفل بالضيافات الكبيرة؛ ما تنتهى ضيافة إلا لتعود أخرى! . . وكم من التاريخ انطوى منذ كانت تمارس هوايتها المحببة فى تلك الأطباق الشهية التى تزدان بها المائدة فى فر

بديع تتقن صنعه حتى يصير حديث إعجاب الزوّار وموضوع ثرثرة الأصدقاء بعد حفلة العشاء الوثيرة! . . هل كان ذلك فى واقع الوجود الحقيقى . . وجودها ووجود بيتها وأسرتها . . أم إنه حلم طاف فى سنة نوم ثم غاب حين صحت على هذا الواقع الثقيل!

لكن . . إلى متى سوف تظل فى هذا المكان المريب، تناوشها هذه التيارات الغامضة كالإعصار يتحرك فى كل اتجاه فى اللحظة الواحدة؟ . . إلى متى سوف تظل موقوفة أمام هذا الاختبار العسير . . وحدها تواجه أعصاب الحس الثائرة يطوقها جوع قارس، وتجبهها رائحة شواء تزلزل أعصاب الجوف الخاوى . . تكاد تدفع بالفم والحلق إلى الأطباق المرصوصة فى إغراء مفتوح! . . وفى أعماق الداخل، المستور حتى عن ملامح الوجه، يموج الموج فى إعصار دوامة لا تتبين إلى أين يسير . . سخط ورضاء . . توجس وطمأنينة . . هلع وأمل . . جوع وامتلاء . . رغبة لاهفة وصدود نافر!

تحملق . . على الرغم منها . . تتملى أصناف الطعام الشهى الذى تزخر به المائدة الفاخرة النسق، تفصل بين كل طائفة منها أحواض الزهر الرائعة التنسيق . . لا تستطيع أن تحصى الأصناف المبذولة فى سخاء وترف ظاهرين والناس فى الخارج تلعق الفقر . . كل أنواع الفقر! . . فى لحظة خاطفة جثم الواقع كله فوق قلبها . . لحظة مفعمة بالحسرة والحرمان القاتل تجثم فوق مشاعرها . . أين هم وأين الناس . . الناس المغبونون الذين يعانون هم ما يعانون لينقذوهم من غبنهم وهم سادرون فى جهلهم! . . ويبرز فى حسها سؤال مظلم

يقول: لماذا؟! . . لماذا كتب على المؤمنين هذا الكدح المرير فى متاهات العذاب والحرمان والقحط؟! وأغرق المجرمون فى نعيم عيش يزيدهم طغيانا فوق طغيان وصلفا على صلف وباطلا مضاعفا فوق باطل؟!

فجأة خطرت فى نفسها قصة ذلك الشاب الذى سقط فى الاختبار منذ أول الطريق؛ الذى خان الأمانة وخرج على العصبة المؤمنة واستسلم للعدو من أول يوم! . . قال لها أحدهم مرة وهو يغريها بسقوط مثل سقوطه، أنه يشاركهم طعامهم أحيانا ويأكل معهم على مائدتهم إذا تأخر وصول طعامه الخاص! . . ترى أين مكانه على هذه المائدة الفاخرة؟! . . لعله الآن يستعد للحضور إلى هذه الردهة الوثيرة . . ماذا يا ترى لو جاءوا الآن وجاء ذلك المسكين معهم وواجه وجودها هنا! . . كيف سوف يواجهها؟! . . أى خزى سوف يواجه به نفسه؟! . . كيف تراه يواجه صورته فى المرآة أمامه وهو جالس بينهم ووجهه ينضح مثلهم صحة ونعيما؛ هؤلاء الذين كانوا فى الأمس القريب أعداء دينه؛ يندد بأعمالهم فى كل لقاء ويتحمس حماسا أرعن لقتالهم! . . ترى ماذا يكون لون مشاعره وهو يتلذذ بهذا الطعام الفاخر الشهى؛ وإخوان الأمس القريب الذين كان يحرضهم على المقاتلة فى ثورة هائجة فيحاولون تهدئة ثورته الهائجة؛ يلوكون محتويات الجفنة الحديدية التى يعرف ما تحمل من مذاقات العذاب، وقد غدوا جميعهم هياكل عظمية مخيفة! . . ألا يمر بقلبه طائف من حياء؛ من احتقار يُغص به فى حلقه الطعام الشهى! . . ترى كيف يعيش الخائن مع ذاته حين يسقط مثل ذلك السقوط، حتى لو كان

ذلك تحت مطارق العـذاب . . فكيف يكون الأمـر حـين يكـون حب الدنيا وزيغ القلب هما مبعث السقوط؟!

تشعـر بأعصـاب مـعدتها تتقلص؛ تمور بقـرف مفاجئ يضاعف الغثيان الذى يتناوبها منذ ساعات . . ألا تنتهى هذه الوقفة البغيضة فى هذا المكان!

* * *

حين عـاد الرجل وتبعته إلى ما بعد الردهة الفسيحة، كـان خـواء الجوف الذى أتعبـها الساعات الطوال قد سكن وامحى فيه أثر الجوع؛ وكأنها تناولت وجبة دسمة مكتملة؛ وكان الشبع حتى الامتلاء يصد شهيتها عن أى لون من ألوان الطعام!

فى الطريق توقف بها الرجل عند أحد الأبواب المغلقة ونقـر عليه نقرات خفيفة فما لبث أن انفتح أمامهم، فإذا بحجرة واسعة يرتاح مكتب أنيق فى أحد أركـانها؛ وعلى مقعد خلفه يجلس أحد زبانية المسلخ الكبير فى لباسه المصقول؛ وجهه المنتفخ البادى النعيم تطفر فى خديه الصحة والبهجة!

بادرها بسؤال عن صحتها على غير المعتاد فى هذه اللقاءات؛ ولما أجابته أنها بخيـر تساءل فى استنكار: ما بال الطبيب إذن يقـول لهم دوما إن صحتها فى خطر؛ ثم استدرك بعد برهة قصيرة ينبئها أن رئيسهم، بإنسانيته العظيمة وقلبه الكبير، سوف يأمر لها بطعام غير طعام بقية المعتقلين؛ طعام يأتيها من الخارج؛ إما من بيتها إن أرادت

ذلك ، وإما من أحد المطاعم الكبيرة! . . كل ما عليها أن تكتب التماس بذلك؛ ترجو فيه الرئيس أن يسمح لها ، نظرا لاعتلال صحتها بطعام غير طعام السجن ، وبدواء يأتيها من بيتها!

قالت وقد أدركت كنه ما يجرى طوال اليوم : «شكرا للطبيب ولكن لست بحاجة إلى طعام يأتينى من أى مكان!» .

بهت الرجل الرافل فى مقعده الوثير هنيهة ثم أجاب :

ـ هل يرفض إنسان أن يعفى من طعام الكلاب هذا؛ ليأكل طعام فاخرا دون أن يتكلف شيئا؛ فلسوف نتكفل نحن به إن اخترت . . يأتيك من طريقنا . . نحن نتعامل مع أحسن المحلات . . وعندنا هنا ناس يأتيهم طعامهم من (جروبى)! . . قالت :

ـ وهل ما تقدمونه هنا تعتبرونه طعام كلاب؟! . .

اندفع فى غباء يقول :

ـ بلْ أسوأ! . . فكلاب الطريق الضالة تعاف ذلك الطعام! نحن نقدم هذا الطعام هنا لكلابنا!

ابتسمت ، وقد امتلأ قلبها بانشراح مفاجئ ثم أجابت :

ـ ومع ذلك يا سيدى فأنا لا أبغى بديلا! . . لن أكتب التماس لأحد! ولن تخط يدى كلمة واحدة! . . هل هذا هو ما دعوتنى من أجله؟!

قال في هياج ظاهر وقد استثار كلامها غيظه فانتفخت أوداجه وازداد احمرار وجهه:

ـ نعم.. ولكن ما تصورت أن تكون إجابتك هكذا.. أنا لا أتصور أن يرفض إنسان الكرامة! ولكن يبدو لى أنكم جنس لا يحب النعمة.. جنس لا يصلح معه إلا الإهانة!

حدقته بنظرة طويلة تذرعه جيئة وذهابا؛ تلقى عليه كل ما يحمل لهم قلبها من احتقار.. قالت بعد برهة صمت:

ـ هل هناك سؤال آخر؟!

أجاب موجها حديثه إلى صاحبه:

ـ اذهب بها إلى زنزانتها.. ليست وجه نعمة!.. ماذا نفعل لها؟!.. سوف نبلغ رفضها للطبيب الذى ما يفتأ يهددنا بموتها.. فَلْتَمُت.. مع السلامة!

خرجت من الحجرة الواسعة الأنيقة مسرعة كالهاربة، تلاحق خيالها الأوداج المنتفخة التى تتفجر بالنعمة والغيظ، والأعين التى يتساقط منها الغباء.. مشت بخطو واثق حازم تقطع أمتار البهو الواسع، وحين مرت عائدة أمام المائدة المكتظة بألوان الطعام، ألقت عليها نظرة استهانة ساخرة، وطافت بقلبها آية كريمة من كتاب الله تعرض فى كلماتها القليلة تفاصيل واقع هائل يعيشون حقيقته لحظة لحظة: «إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من

تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم»!

حين خرجت إلى الفضاء الواسع أحست بطلاقة تملأ مشاعرها، تهز قلبها بحنين خافق إلى شيء لا تكاد تتبينه، وبإشراقة نور تدفع مشيتها طافرة خفيفة فى الطريق إلى مكمنها. . هناك فى الزنزانة المقفلة، تجد رحابة عالم فسيح، يضيء الله بنوره جنباته، وتسطع فيه آفاق رحيبة من تطلعات القلب. .

الباب المغلق

ها هى بوادر الأزمة التى تخشاها منذ أول النهار . . علاماتها بدأت تلوح . . تتبدى بوضوح . . كلا ، بل تخطت الأزمة البوادر ؛ الغثيان يزحف حثيثا . . شىء يشبه الدوار . . يقترب من الإغماء . . يدخل فى مرحلة الشك الأخطر . . تسمم؟! . . ذلك أرجح!

الأزمة تتفاقم . . تتلاحق الأعراض بسرعة . . تتزايد . . كل دقائق تتضاعف! . . ليست أزمة تمر كما مرت أزمات من قبل! . . يا للهول! . . فى غور الظلمة ، والوحدة ، والليل الكاسى ، والسكون المخيم يأتى . . ذلك الزائر المخيف؟!

أتراها تكون فى هذه الليلة كتلك التى كانت تلك الليلة فى الزنزانة المقابلة؟! . . شبحها ما يزال ماثلا فى القلب ؛ جاثما فوق الأعصاب لا ينسى! . . ولكن الرجل هناك كان مسنّا وأنت بعد فى ربيع الحياة ؛ فلا مجال للمشابهة! . . هه! . . من قال إن الآجال بسنى العمر! . . الآجال بقدر الله المكتوب فى اللوح!

فى الزنزانة المقابلة . . فى ذلك المساء القارس البرد ، الكاسى الظلمة ، كان الرجل الكبير يتأوه فى أغوار العتمة . . كان ينادى

بصوت مبحوح . . لم تعرف مَنْ كان ينادى! . . ربما كان ينادى أهلا له اشتاقهم بجواره فى تلك اللحظات القارسة الوحدة، ابنًا أو زوجة أو أخا . . ربما كان يتحدث فى وحدته الموحشة إلى الخالق يشكو قهر الباطل للحق! . . دق الباب الموصد . . مرة، ومرات . . تحشرج الصوت بالاستغاثة . . أنا أموت . . افتحوا لى . . الله شاهد على بغيكم . . . . ترددت الآهات خافتة الهمس . . فترة لم تدر مداها أحستها دهرا من العذاب . . همت أن تجاوب الصوت الخافت من خلف الباب المغلق لكن أجفلت . . ظلت تتسمع إلى الحشرجات ويتفتت منها القلب . . ثم . . ثم خفت الصوت . . صمت! . . صمت إلى نهاية الدهور . . دهور هذا العيش المقدور على هذا الكوكب!

فى الصباح . . صباح تلك الليلة الليلاء، التى لم تنم فيها دقيقة، وشبح الرجل الذى لا تعرفه ماثل أمام عينيها وفى كل عصب، وشبح الموت الرهيب يحومّ . . يجثم فوق المبنى الذى يضمهما وحدهما . . المبنى الممتد إلى أعماق الظلمة! . . فى ذلك الصباح كانت ترجف منها الأعماق وترجف الأوصال؛ والزبانية يتبادلون الحديث الساخر عن الحدث المفجع . . تسمع كلماتهم الضاحكة الجذلى! . . فى ذلك الصباح فتح الباب الأسود الرهيب، المغلق باستمرار . . ترك لأول مرة مفتوحا؛ ذهب الحذر فلا شىء الآن يخاف!

الرجل الذى لا تعرفه . . الرجل النكرة . . الرجل الاسم . . الرقم! . . ظل هناك . . وحده . . بين قلوب لا نبض لها . . وجاء

الطبيب، عرفت صوته من بين الأصوات لا يلهو بالحدث الفاجع . . لكن . . لا يفصح عن شيء قط ! . . قال الخبر العادى المكرور الذى فقد رنينه ؛ الذى ضاع صداه فى غور العتمة وانمحى وزنه ! . . بغير احتفاء، بغير تأثر، بغير انزعاج ! . . قال: «أزمة قلبية . . مات منذ ساعات . . حوالى الثالثة صباحا . . يصرح بالدفن»! وأغلق الملف ! . . الصوت كرنين نحاس أجوف . . لا تهتز فيه نبرة . . لا تتحرك فى أطوائه بادرة رحمة . . رحمة للإنسان ! . . لا تنبض فيه عبرة . . والموت فى المواجهة ! . . أين القلب ؟! . . أين الإنسان . . حتى فى مواجهة الموت . . أمام هول الموت . . أمام قداسة الموت . . أمام مصير الإنسان . . كل الإنسان !

الكلمات الباردة كفحيح الثلج . . والهرج اللاهى فى كلمة، فى ضحكة، فى نكتة، كان لها وقع كالخنجر يهوى فوق الأعصاب، يمزق شغاف القلب ؛ يطمس نبض الروح ! . . والرجل الذاهب ملقى وحده ينضح بالغربة . . لا يعرف حاله شيء فى الأرض ؛ لا أهل ولا صحب . . لا يعرف موقعه إلا خالقه هنالك فوق . . فى الملأ الأعلى . . فى عالم الحق وآفاق النور . . بعيدا عن ضيق الوعى المحدود بأوهاق الطين الملوث بعفن الصلصال والحمأ المسنون ! . . فى ذلك الصباح بكت . . ملء القلب بكت . . بكت «رفْعت» الذى وقف الموقف وحده ! . . بكت كل واحد فى أحراش الغَابة ؛ بكت نفسها وبكت الإنسان !

والليلة؟!.. الليلة هل جاء الموعد؟!.. هل جاء الموقف المفرد العصيب؟!.. هل جاء الدور عليها؟! فادح ذلك إن جاء هنا!.. أفدح من ذلك فى تلك الليلة!

فى الزنزانة المقابلة كان العاجز عن أن يدفع عن نفسه رجلا!.. لم يكن هنالك، رغم الألم الفادح، جرح حياء.. الكل رجال، والجسد المسجى بغير قدرة جسم رجل.. لم يكن من حد فارق بين الخصمين غير الموت.. معنى الموت.. عجز الموت.. حرمة الموت وقداسة الموت!.. فى قلبها.. من وراء الباب المغلق، ملأ ذلك كل حنية، غشى آفاق الروح.. وهم؟! هم فى مواجهة الحدث الهائل فى عمق الإنسان، داسوها بالكلمات بذيئة؛ بالضحكات لاهية والسخريات!.. لم يطرق حسهم المثقل بالطين من معنى الموت سوى عجز الموت!

كيف يكون الموقف حين تكون فتاة فى الموقف.. والكل رجال فجرة.. والكل عدو، عدو مطموس القلب.. عدو فى دين الله؟!.. يتراءى الأمر رهيبا يحفر فى أغوار القلب.. يضاعف غثيان الروح!

.. يشتد الغثيان.. القلب يهوى.. الأنفاس تتعالى.. تتقطع! هل آن أوان تمام الرحلة؟!.. ترى كيف يكون الغد؟!.. بل حتى الليلة.. كيف تمر الأشياء؟!.. تتراءى لعينيها قصعة الطعام.. ما أبشعها!.. لماذا ضغطت على نفسها حتى تتناولها؟!.. هذه الليلة وصل الأمر إلى أقصاه.. كان طعام السمك هو الشىء الأوحد الذى

قهر إرادتها فى تلك الأحراش الشهور الطوال ـ قالت: «كلا؛ لن تترك فى هذا الكيان شيئا يتمرد! . . يضعف أمام التحدى . . حتى حس التذوق . . حتى المعدة فى أعماق الجوف! . . فلتأكل، حتى من هذا الذى تلفظه كل الأعراف وكل الأذواق . . حتى أذواق كلاب الشارع الضالة!».

قالت: «لا يجوز لها أن تعجز أمام الفتنة . . فتنة الناس . . فهى لا شيء إذا قيست بعذاب الله» . . تعرف أن ثلاثة فى الشهر الماضى، فى هذا السجن الوحشى العابث بالإنسان ماتوا فى ليلة؛ وكانت قصعة الطعام هذه هى أداة الموت . . الأمعاء تمور بألم كاسح يعلو كل دقيقة . . المعدة تطفو فوق الصدر . . ماذا تفعل؟! . . الباب المسدود يطوف بعينيها المتكسرتين كشبح للموت! . . الصمت يدوى فى المبنى . . حول المبنى . . على مَنْ تنادى فى أعماق الليل؟! . . والكل بعيد . . بعيد مكان، بعيد قلوب، بعيد مدى . . سبحان الخالق! يبهتها الخاطر: بُعد الإنسان عن الإنسان، أبعد من مساحات الكون الواسع . . أوغل من افتراق النور عن الظلمة . . سبحان الله . . تتمادى أبعاد فى الخلق الواحد، أبعد من كل استيعاب العقل، أبعد من أمداء كل خيال!

وفى أمتار الزنزانة يسود الواقع . . سكون مطبق يتداخل بالظلمات، وبالوحدة وبشبح الموت.

فى الماضى . . قبل شهور . . حين تراءى شبح الموت فى ظلمة ليلة . . كانت ملء القلب طمأنينة! . . كانت شقيقتها معها فى نفس

الزنزانة . . وكان المبنى مأهولا بالأحباب . . كل الحجرات كانت تنفث أصداء حياة وأنفاس حب . . كان الموت أنيسًا فى تلك الليلة! . . رحيما لا يفزع! . . كانت تغمض جفنيها فى استسلام هادئ . . فلسوف يدثرها الستر حتى تخرج من أسر كتب لها فى أيدى أعداء الله . . لن تُلقى هملا مكشوفا دون عناية . . ستحيط بها قلوب محبة . . تجل الموت . . تعطى للعجز البشرى المقدور احترامه . . حتى تتوارى فى أعماق الصون! . . لن تنهبها عيون الفساق، ولن تخدش كرامتها ضحكات الفجرة! . . فى تلك الليلة كانت لا تخشى الموت . . كان الموت حميما . . وكانت جنات الله الرغدة تتراءى خلف الحاجز . . والنفس المطمئنة، كانت تشع بنور يغطى جنبات الظلمة!

الليلة تفزع . . يفزعها الموت حتى الأعماق . . ترتعش فيها الأوصال حتى الأغوار . . صورة الزنزانة المقابلة تتراءى أمام خاطرها . . صوت الضحكات الجذلى تتنزى فجورا تخترق قلبها، والكلمات المشحونة حقدا وشماتة تطن فى أذنيها، والسخرية الحمقاء تسحق فى روحها قداسة كل عزيز، تخترق جميع القيم، تمزق الإنسان!

يفزعها الموت الليلة . . يهز فى حنايا قلبها كل أعماق الخوف . . أرهب ألوان الخوف . . لكن هل تملك رد الموت إذا جاء! هل تملك تأخيره حتى إلى أن يحين صباح، وينفتح للحظة هذا الباب المغلق! . . حتى تستدعى إنسانا تواجه به لحظات الشدة

وسكرات الموت ! . . لكن . . أين ستجد الإنسان هنا . . فى أدغال وحوش الغابات؟ !

كيف يكون الموقف إذا قضى الله قضاءه ! . . حين يجىء الحارس ككل صباح حين ينفتح الباب المغلق عن هذا العجز الكاسى ! . . حين تنطفىء هيبة الحياة التى تردع حتى فى أقصى مهابط الضعف . . حين تخمد صولة الحق تشع بها العينان تخيف الباطل فى أعلى قمة صولجانه . . حين يُستدعى الذئب الوحشى ويجىء الثالث والرابع !

كيف يكون الأمر حين يشاع الخبر المؤسف عبر زنازين السجن الموحش حتى يصل إلى إخوتها ! . . كيف يكون وقع الخبر المأساوى على الأهل هناك ! . . وهل سوف يسلمونهم الجثمان الميت أم يدفن فى الصحراء المجهولة كما دفن العشرات ! . . ثم ينسى الأمر . . يتوه المكان المجهول وتنقطع صلات القرب . . وصلات الدم !

حتى اليوم تعيش فى تلك الأحراش مصونة، يحميها الله بفضله . . يزودها بقوى لا تعرف هى كنهها، تردعهم؛ تكف أذاهم عنها رغم الضعف المطبق فى كل الموقف . . قوى لا تدرى من أين تجىء . . من الغيب تجىء يقدرها الله . . تكف عنها حتى نظرة سوء . . حتى كلمة فحش تتفوه بها ألسنة فجور ينتن منها فضاء المجزر . . يحترمها الجميع رغم شراسة البطش ! . . فكيف يكون الحال إذا سلبت مصدر كل القوى وغشاها ضعف الموت . . عجز الموت؟ !

الألم بعنف ينساح، يغشى الجسد كله . . الأمعاء كأنما تتقطع جزءا جزءا . . التسمم يسرى فى الجسد المطروح على الأرض لا يقوى على

حركة . . اللعاب يسيل والعرق البارد يتصبب فوق الجبهة، يتقاطر من كل مسام الجلد ويغطى الجسم الواهن . .

يذرعها القىء! . . يا ألله . . ماذا تفعل؟! . . أين ستذهب؟! أين ستلقى بهذا السيل المتدفق فى المعدة والأمعاء؟! . . والحجرة أمتار معدودة! . . ولا منفذ غير الباب المسدود . . كيف ستتصرف؟! . . تجول بعينيها فى الجدران، فى الباب الموصد، فى الطاقة فوق الرأس بأعلى الحائط . . لا منفذ؛ لا مخرج قط! . . دورة المياة بجوارها؛ لا يحجزها إلا هذا الحائط! . . تدق الحائط . . بكل القوى الواهنة، بكل الأعصاب المختنقة تدق الحائط . . كلا . . لا مخرج . . كيف تواجه الكارثة!

كيف يكون الموقف صباح الغد؟! . . حين لا تملك أن تخفى شيئا! . . يا ألله . . إن عجز الموت رهيب! . . إن ضعف الإنسان رهيب! . . تتضاعف الرهبة حين يصير تحت سطوة العدو! . . كم يحتاج الإنسان إلى الإنسان؛ يتقوى به من ضعفه! . . حتى الموت يحتاج إلى الأمن . . إلى الجمع . . إلى السلم . . ليهب القوة . . ليهب الستر!

لأول مرة تدرك قيمة الحياة! . . هذه الحياة المأسورة . . المستنزفة ليلا ونهارا بمعاناة تدك الجبل! . . هذه الأنفاس الصاعدة الهابطة التى تبقت لها من زاخر الحياة التى وهبها الله لها! . . ما تبقى فى الصدر من نبض القلب ودفق الدماء فى العروق! . . كثيرا ما تنعاها؛ ما تحقرها، ما تقارنها بالموت . . كثيرا ما تراها بغير قيمة، مجرد أنفاس

لا تغنى، لا تهب قوة ولا تفعل فعلا! . . الآن تدرك ما فيها من نعمة . . من قوة . . من ذخر . . كانت لها سلاحا أقوى من باطلهم . . سلاح يحميها فى أدغال القذر! . . قوة حق تملكها تصد بها شراسة الوحوش وأشواك الغابة! . . لم تدرك إلا الآن أنها كانت ما تزال تملك الكثير . . أن نعم الله مهما توارت عن الأعين فهى أكبر من أن تحصى . . مهما سلب منها وحوش الأدغال فهى لا تنتهى لا تنفد!

تتحامل . . يدفعها إلحاح الغثيان وذرع القيء أن تتصرف . . تتخبط خطاها تحت العينين المسبلتين فى إغماء يوشك أن ينداح؛ يغشى كل الأعضاء، حتى تصل إلى حقيبتها الصغيرة فى ركن الزنزانة . . تفرغ ما فيها كله . . تلقيه على الأرض بجانبها . . تبحث فيها عن شيء ينقذها؛ شيء تخفى فيه السيل يوشك أن يندفع إلى الخارج لا تملك رده! . . لو تملك أن تردعه حتى الغد! . . الغد فقط؛ حتى يأتى الحارس؛ حتى ينفتح الباب القائم بالمرصاد؛ هذا الباب الموصد دومًا بينها وبين الحياة . . بينها وبين دورة المياه على بعد خطوات . . بينها وبين ضرورات العيش! . . كلا كلا . . لا يمكن . . فالأمر خطير . . عاجل . . قهرى!

لا مفر! . . تستعمل الحقيبة كوعاء . . ليس هناك حل آخر! . . تنقذ أرض الحجرة . . تنقذ صورتها . . تخفى خصوصياتها الحميمة عن عين الغرباء! . . ليسوا فقط غرباء . . أعداءٌ هم . . هم خلق شائه فقد ملامح الإنسان! . . ليسوا أعداء دنيا؛ لكن أعداء دين! . . ما أعجب هذا وما أسوأه . .

يتراءى شبح الموت . . فى عمق الأزمة يتبدى المفر بعيدا ! . . كيف يكون الحال حين يجىء الغد؟ ! . . حين ينفتح الباب المغلق كيف تكون هى؟ ! . . بغير حياة؟ ! . . بغير حراك؟ ! . . بغير حيلة وبغير تصرف؟ ! . . إذن سوف ينكشف المستور ! . . سوف يضحك الفجرة ملء الأفواه ! . . هذا المارد الأسود لا يسقط أبدًا عن يده السوط ! . . كيف يكون الموقف مع جمع كلاب الغابة ! وسيأتى الوحش الكاسر يتشفى . . يلعن «الدين» الذى أتى بهم إلى هنا وأوقعهم فى أيديهم كما يحدث كل صباح ومساء فى عرض الساحة وعلى طول أحراش الغابة . . سينفجر الكفر المتعفن كالقيح من الدمل ؛ من أفواه يغلقها الشيطان على كهف مظلم تتفجر منه الأقذار طوال اليوم . . الفرق سيكون هو العجز المطلق يطبق هذا الفم . . يغلق كل مجال دفاع . . يمحو رهبة وجود حى يردعهم ، حتى بالصمت ! . . سيكون هو هذا الجسد الملقى بغير قوى ! . . لو كانت تملك أن تخفيه عن أعينهم . . حتى لا تعبث به جرذان الغابة . حتى بالنظرة . . حتى بالكلمة !

تزحف الخطى الواهنة إلى الركن الآخر . . إلى الفراش فوق الأرض . . يتهاوى الجسد الواهن فى إعياء كامل . . لتشد عليها ملابسها وتحكم الغطاء قبل أن تفقد كل قدرة ؛ قبل أن يدهمها العجز حتى لا تتبقى فجوة تنفذ منها عين ! . . الخدر يغشى الأطراف . . يزحف يزحف . . يشمل كل الأعضاء . . يتسلل فى جنبات الرأس !

يتملكها فزع قاتل . . تخشى فقدان الوعى . . بكل قواها تتشبث بأطراف الحس . . قهرا تفتح عينيها المقفلتين . . ترفع جفنيها

المسبلين . . تتحسس بيديها المرتعشة أعضاء الجسم المسجى . . تطارد بكل الخوف الزاحف خدر النوم وتدفع بكل إرادتها طيف الموت! . . لكـن ما أغبـاها . . إذا كـان هـذا حقا هو الموت، فهل يملك مخلوق رد الموت! . . حتى هؤلاء الفجرة العتاة هل يملكون رد الموت إذا جاء القدر المقدور؟!

من جديد يخيم الغثيان فوق الصدر . . تتخايل فى عينيها المقفلتين قصعة الطعام . . رغم إرادتها تتراءى . . تحاول جاهدة أن تدفعها عنها . . شكل السمك المخلوط يملأ عينيها . . رائحته تدهم فمها وتهاجم خياشيمها لا تملك ردها . . قشر السمك وأمعاؤه؛ الشوك وسلسلة الظهر . . الكل خليط واحد يكسوه اللون الأسود . . لون الجلد المهروس ولون الدم! . . أفّ للصورة! تطارد أغوار الباطن . . تقتلع المعدة والأمعاء؛ تدفعها دفعًا للقىء! . . والباب الموصد يقطع كل طريق! . . يكفى يكفى . . يكفيها ما تم . . ليس هناك مكان . . لا موضع لجديد!

تحاول . . بكل عزيمتها تحاول طرد الصورة . . تجاهد حتى تطرحها العينان . . المعدة تهبط بالتدريج حتى تسكن فى موضعها . . تقترب العاصفة الهوجاء من مناطق السكون . . هل هو التمهيد لسكون الموت؟! . . كأن الأعضاء تتفكك . . يتراخى كل منها وحده . . تنقشع القصعة بعيدا خلف الخاطر . . يقع بصرها لحظة على ما كان فى الحقيبة الصغيرة؛ ملابسها القليلة وأدوات العيش المحدودة . . كيف ستتركها هكذا فى ركن الغرفة . . ماذا لو قلبها الأوغاد صباح الغد وهى لا تملك لهم دفعا! . .

أوه . . لو تنسى . . لو تنسى أمر الموت . . لو تنسى الغد . . ترى كيف يجيء الغد! . . كيف تكون هى حين يجيء الغد! . . أفلا تترك الغد لصاحب الغد؟! . . لكن الخاطر يهجم، يلح رغم التسليم الثابت فى عمق القلب: ترى ستظل تعيش! . . تحمل فى الجسد الخامد أنفاس حياة! . . تخفى ما كان عن الأعين الفاجرة! . . عن فساق فى أحراش الغربة؟!

لكن . . حتى لو عاشت حتى الغد . . لو قدر الله أن ينبلج صباح ولديها أنفاس حياة؛ كيف ستخفى هذا عن عين الحارس! . . كيف ستحمل هذه الحقيبة إلى دورة المياة تفرغ ما فيها دون أن يرها! . . كيف ستسع الدقائق العجلى المسموح بها هذا العمل الشاق لتعود بها بعد نظافتها صالحة لحمل الأشياء كما كانت تحمل! . . ما الذى سوف تقوله إذا سئلت عما فيها! . . ماذا لو أصر الحارس على التفتيش؟!

لو كانت تعيش فى هذا المستنقع بين نساء . . أى نساء . . لكان الأمر يهون! . . لكن البطل المغوار . . لكن عهد الثوار . . عهد الحرية وكرامة الإنسان، قرر أن يتحدى . . أن يتخطى كل الحرمات . . أن يحلل كل حرام ويحرم كل حلال . . أن يفرغ حقد التاريخ المقهور، حين أطاح الحق بظلمات الباطل . . حين أزال النور القاهر أوكار الحيات!

مسكين هذا الشعب الغارق فى الغيبوبة لا يدرى ما يُفعل به! . . لا يدرى إلى أين يقاد! . . فى هدأة العاصفة تتملى الخط الدالف نحو الهاوية منذ جاء الأبطال إلى الساحة! . . وجه «أتاتورك» عدو الله

يلون وجه الصورة وخباياها! . . هم أنفسهم قالوا ذلك . . قالوا إنهم امتداد له . . إنهم يسيرون على نهجه ويقتفون أثره ويهدفون هدفه؛ لكن الشعب الغارق فى فقره لا يدرى شيئا عن تاريخ الثعبان المارد . . لا يعلم شيئا عن هدفه؛ لا يعرف أن الهدف الأكبر عنده هو محو بقايا دين الله فى أرض الله . . لا يعلم أنه كان رسولا للشيطان يرد السلطان إلى صهيون وحملة مفتريات الباطل!

لأول مرة فى تاريخ هذا البلد المنكوب يسكن هذا السجن نساء! . . لم يفعل ذلك حتى المستعمر . . كان المستعمر يخشى غضبة أهل الحرمات للحرمات! أما الأبطال فتدثرهم أسماء تحميهم من غضبة أهل الحق! . . لماذا تنتزع نساء الأسر المرموقة دينا وفضلا لتلقى فى أوكار الفسق؟! . . لماذا، حتى لو كان هناك جريمة؟! وقد أعفاها ـ حتى قانونهم الآثم من كل جريمة ـ لماذا تحيا تحت سطوة هذا العدد الهائل من قطاع الطرق؟!

لماذا؟! . . هه! . . وكم فى الساحة من . . لماذا . . ؟! . . فى الساحة ألف لماذا ولماذا . . لا يحصيها القول لكن لا تنطق بها الألسنة . . أى لسان ينطقها يُقطع! . . القهر الفاجر لا يبقى حرا يتساءل . . لا يترك على قيد الحياة رجلا ينكر؛ حتى تعتاد الأنفس كل بلاء دون لماذا! . . حتى تتقبل . . حتى تستحسن! . . أما هم فقد ظلت فئة منهم ترفع صوتا يقول «لماذا»؛ وتهمس أخرى تقول «لماذا»! . . لذلك امتلأ حقدا وكراهية قلب الطاغوت؛ فوراء عشرات «لماذا» أمر خطير!

لماذا تُنظم للفلاحات وقد عشن فى الصون دهورا، رحلات إلى العرى الفاحش فى الشاطئ فى كل مصيف؛ تمزق.. تمحو قيما كانت مرعية فى هذا البلد المنكوب بثواره؟!.. لماذا يتخطى الإعلام المرئى، وهو أداة الإفساد الكبرى فى الأرض، المدن الكبرى ليزحف حتى قاع الأكواخ!.. قبل العلم.. قبل الماء وقبل النور، بل قبل اللقمة؟!.. لماذا لا يرفع شأن العامل والفلاح الغارق فى بؤس الفقر وبؤس الجهل، سوى أغنية فاجرة تمحو فى الأرواح بقايا حياء كانت تبقى فى أعماق الفطرة رغم مسيرة قرن كامل للكيد اللئيم؟!.. لماذا تلك المؤامرة العابثة القذرة ضد رجال الدين، شيوخ الأزهر ممثلة فى عالمين فقيهين بغير جريمة!.. لماذا؟!. لكن الألسنة العاجزة تكف عن الدوران، حتى داخل أفواهها!

الجيش على خط النار.. الخط الفاصل بين العزة وعار الدهر الماحق.. يتلقى الضربة تلو الضربة خائنة فى الظهر وهو يواجه عدوا كالثعبان الماكر؛ عدو يحاول منذ قرون وقرون أن يطفئ نور الله على أرضه، أن يمحق دينه، أن يغتصب الأرض وينتهك العرض!.. رأس الحربة للباطل كله فى كل الأرض.. يحاول أن يطمس شمس الحق.. لماذا يزود هذا الجيش على خط النار بكل مثبط.. بالرقص الداعر، بالصور المبتذلة؛ برخاوة الأغنيات المتهالكة الروح المخنثة النبرة!.. أذلك من أجل النصر؟!.. ومن أجل النصر تتمطى الفتيات بجنب رجال يتعلمن فنون الحرب!.. وجه العدو الكاره لله ودينه يتمطى فوق الساحة.. يلصق اسم الله وينافق به.. وتتم هزيمة

يتحدث ببشاعتها العالم، وتسقى للشعب المقهور الجاهل باسم النصر! . . وبالنصر تسمى نصف الأحياء ونصف الأشياء فى هذا الوطن العاثر! ويتردد فى كل الإعلام حديث النصر! وتلبس أبخس هزيمة ثوب بطولة! ويرقص فى الطرقات الشعب يحيى النصر! . . لماذا؟! ألف لماذا تطل برأس خائف ثم تغيب! تغرق فى أوحال نفاق . . تدفن فى أعماق الغيبوبة!

والناس؟! . . أين الناس؟! الناس نيام فى غيبوبة جهل، تدير رؤوسهم أبخرة الإعلام القاتل . . الناس تقبل أقدام القتلة . . جبنا أو جهلا . . ويتلاطم بحر نفاق! . . ما أبشع أن يلبس أعدى أعداء الله مسوح الدين، يتزيا بالأسماء الحسنة ويتغطى بالألقاب؛ يتخفى فى الوطنية ويجوس فى عرض الوطن الغافل!

الهدف رهيب، بعيد المدى . . تتولاه على الساحة الواسعة أذرع الأخطبوط . . بسببه هم يعيشون هنا وسط الأدغال، وتسكن القصور رؤوس ضالعة فى الكيد!

وعى مشبوب هم وسط البحر اللاجب بالغيبوبة! . . قلب مجلوّ هُمْ وسط بحار نفاق آسن يغمر وجه الأرض . . يموتون هم خلف الباب الأسود ليتم الزحف الكافر من بؤرة قيح فى قلب الجسم المطعون؛ ولتدوس أقدام القردة أرضا كانت للحق، طهرها دين الله قرونا بعد قرون؛ فلا أمن للغاصبين إذا ساد جنود الحق بأرض الحق! . .

تغفو رغم كل مقاومة للنوم أو استسلام، تغفو؛ تغفو رغم هذا الحديث الحارق يجوس فى أغوار القلب؛ ينتصر الجسد المقهور القاهر!

* * *

يتحرك المزلاج فى الباب فتصحو مذعورة! . . يا ألله . . ها قد جاء صباح . . حية ما تزال هى فحمدا لله . . تبقى المعضلة الكبرى لا تدرى كيف تحل!

ينفتح الباب . . عليها أن تتحرك بغير إبطاء . . تخرج لتؤدى طقوس كل صباح . . دورة المياه، الوضوء، ثم العودة . . هى الفرصة الوحيدة المتاحة للنفاذ من الباب المغلق حتى ساعة الغداء . . كيف سوف تتصرف والرجل واقف بالمرصاد؟! . . بماذا سوف تجيب إذا سألها الحارس عما فى تلك الحقيبة، وأدمغتهم المملوءة بأكاذيب الإعلام ترتعد شكا لأية حركة؟! . . هل تحكى له القصة؟! . . هل تصف بشاعة تلك الليلة، ليعرف هذا المسكين سفاهة أسياده! . . ليعرف فى أية جريمة نكراء هو يشارك . . بقلبه ودمه وأعصابه يشارك، وبكل قواه وقدراته! . . ليتحرك فى جنبات روحه المظلم عرق حياء!

يزعق صوت فى الخارج ينادى: «سعيد»، اجمع هنا مسرعا! . . هو صوت النمر المخيف! . . يرتجف قلبها يكاد يسقط فى قدميها ويلفها دوار! . . ماذا حدث؟! . . أية مفاجأة جديدة! . . فهذا الصوت لا ينطلق لخير . . لا يجلجل إلا ببلاء

جديد! . . ماذا تفعل لو جاء يستدعيها الآن . . ولماذا يستدعيها في هذا الوقت المبكر ولم تذهب حتى إلى دورة المياة! . . حتى رائحة الحجرة المغلقة طوال الساعات تشى بالواقع المؤلم! . . ثم لماذا الآن قبل أن تفتح أوكار العذاب أبوابها؟! . . ترى هل حدث جديد لأحد من إخوتها . . لأى من أهليها . هل . . هل . فلابد أن الأمر يعنيها هى فليس فى هذا المبنى كله غيرها!

تردد الحارس وهو يهم بإغلاق زنزانتها ليمضى خارجا بعد أن جاوب النداء فزعا . . قالت مندفعة فى قلق لم تستطع أن تخفيه :

ـ ولكنى متعبة طوال الليل وبحاجة ماسة إلى دورة المياة!

تلجلج الحارس لحظة قصيرة ثم تمتم :

ـ على كل ، فليس فى المبنى غيرك . . سأترك لك الباب مفتوحا وأغلق الباب الخارجى حتى أعود . . حين تنتهين عودى إلى زنزانتك! . . سوف أعود حالا . ثم خرج مسرعا!

«سبحان الذى بيده ملكوت كل شىء» . . وقفت لحظة مبهوتة وهى تردد ذلك التسبيح فينداح فى الحنايا حتى أعماق الغور . . تجتاح القلب قشعريرة تنساح فى الجسد المرتجف كله . . كيف حدث هذا؟! . . بأبسط حل وجد الحل! فما أهون الأمر بالنسبة لمدبر الأمر ، وهو الذى يقول : «كن» فيكون!

حملت حقيبتها الصغيرة التى عذبتها الساعات الطوال وانطلقت إلى دورة المياه . . قضت كل مآربها فى سرعة ، ولكن فى أمن

كـامل . . أمن كـان قـد اسـتقـر فـي روحـهـا بصنع الـله القـادر الذى لا يعـجزه شيء؛ ثم عـادت إلى حـجرتها طليـقة من القيـد! . . من كل قـيد . . فى الروح تتفـجر طاقة نور . . فى أعـمـاق بعيـدة تحس أنهـا تتـحـرر . . تجـتـاح طلاقـة الحـرية كل القـيـود . . تتـحـرر من حكم الفـجـار . . من هذا البـاب المغلق، الأسـود كـالمارد يتـحـدى حـتى الأنفاس . . ومن كل الأسوار . . تحلق فى الأفق الواسع فوق . . فوق الجـدران . . فـوق الأمس الماضى وفـوق الحـاضـر . . فـوق الأوهاق وفوق الحكم الجبرى يغل رقاب الجـميع، يحـيل الأحـرار سـوائم أو فـئرانا . . تحـلق فـوق الضعف وفـوق الخـوف . . فوق النقص وقلة الزاد وفقر العتاد .

هـذا الشعب المسكين! . . يجـوس وحـده فـى وعـورة الصخور، قـاطعـا حـباله مع القـوة العظمى؛ مادّا عنقـه إلى قـاتله يسـتـمـد منه العـون! . . غـارقـا فى ذل ضعـفـه وجـهله، يتكفـأ فـى كـهـوف الظلمة . . يساق بلؤم حـاقـد بعيـدا بعيـدا عن منابع القـوة! . . عن مـوطن التـدبير الأعـظم! . . عـن الذى بيـده الأمر كله . . عن الذى بيده ملكوت كل شىء .

صـدرها يذخـر بحنين واغل إلى صـلاة حـارة لله شكـرا . . قلبـهـا يتدفق مـنه النـور يضيء أفق المستقبل . . تطوف فى روحها أمنية حارة أن تنقل انطلاق قلبها إلى الناس قبل أن يضيـعـوا فى الطوفـان . . إلى الطيبين الذين ضللوا عن النهج . . أن تبثهم إشراق الروح الذى يتلألأ ناصعـا فى الحنايا . . أن تحكى لهم كـيف يتـحـرر القلـب وراء البـاب

المغلق، وكيف ينطلق محلقا من وراء كل السدود! . . أن تفتح أعينهم على طريق النجاة، والطوق المجرم يوشك أن يطبق فكيه! . . تتلهف أن تأخذ بيدهم إلى السبيل الواحد الواصل . . فهناك . . هناك فقط سوف ينظر إليهم من بيده ملكوت كل شيء نظرة حب . . نظرة رحمة . . يدبر لهم المخرج . . ويهبهم النصر . . النصر الذى لا يأيتهم إلا من عنده .

نداء إلى الضفة الأخرى

عائدة لتوها الآن من رحلة سحيقة؛ وحين وطئت قدماها أرض الغرفة الضيقة، سمعت أذناها اصطكاك المزلاج فى الباب، وانطوى وقع أقدام الوحش خارجا من المبنى. . يلفها دوار؛ دوار موغل يشبه الغيبوبة. . فى حاجة ملحة هى لأن تستجمع قواها؛ لأن تلتقى بوعيها وتتحقق من وجودها. . رفعت قدميها وأعادتهما إلى الأرض؛ حركت ذراعيها وهزت رأسها تريد أن تستوثق. . تستوثق من حضورها. . من صحوها، ومن معالم الواقع حولها. . ها هى ذى وحدها، فى حجرتها المغلقة، بكل حياتها الجديدة التى ألفتها؛ بحاجة هى إلى هذه الوحدة الآن، بحاجة لأن تفكر، لأن تستوعب أبعاد تلك الرحلة السحيقة، لأن تتدبر أبعاد هذا الواقع المزلزل؛ بحاجة لأن تتدبر معناه وإشاراته، لأن تلم شعث مشاعرها التى انفلتت تتبعثر منها فى كل وجهة وهى تمسك بخطامها بكل قواها، بكل محاولاتها للثبات فى وجه العدو! . لقد رأت اليوم وهى فى طريقها إلى مكتب من مكاتب «التحقيق» البعيدة ما لم تره أبدا من قبل، على كثرة استدعاءاتهم لها فى الأشهر السابقة، وعلى تعدد الأماكن التى ذهبوا بها إليها!

اليوم كانت الرحلة إلى ذلك الوكر طويلة طويلة، لا تدرى مداها من الزمن ولا أبعادها فى المسافة؛ ولكن قلبها هو الذى استوعب حتى الثمالة أعماقها فى العذاب، أبعادها فى الهوان وأغوارها الساحقة فى الهزيمة.. هزيمة الجميع؛ هزيمة العصر والإنسان، والحياة.. وهم!

العشرات؟ كلا.. المئات؟.. لا، بل تظن الألوف.. جباه لاتحصى ملتصقه بالجدران.. أجساد تتعذب، تكاد تهوى إعياء وهوانا فوق القدم الواحدة التى تحملها!.. والقدم ـ مزقتها السياط ـ تخترق جراحها الغائرة العشرات من أطراف الحصى فلا تتململ!.. والسوط؟.. السوط يهوى بين الحين والحين على الجسد الواهن الموغل فى الصمت؛ الملتف بالسكون؛ المحنط بالرعب!

الساحة تمتد تمتد تمتد؛ ألا نهاية لهذا الهوان؛ ألا آخر لهذا العذاب!.. لكن المشهد الجديد يفجأ القلب والبصر والوجود ونبض الحياة!.. الجباه إلى الأرض والركبتان عاريتان تحفران فى الرمال؛ الرأس العارى من كل غطاء حتى من بضع شعيرات يتلقى لذع السوط.. والزبانية ينتقلون كل لحظة فى بهجة ونشاط ونشوة غامرة من ذبيحة إلى ذبيحة!

حتى فى المسلخ؛ بين الحيوان والبشر تنبت فى الوجوه قطرات الرحمة؛ وتكف الألسنة عن تقيىء القذر؛ وتبهت فى العيون ضراوة الوحش وتلين القلوب!

لا تدرى مقدار الزمن الذى استغرقته الرحلة إلى الوكر البعيد، فقد امّحت كل معالم الزمن ومعالم المكان أمام فسوق المشهد؛ وضاع

الوعى بالأشياء فى تلافيف السوط وهدير السباب! . . وفجأة وجدت نفسها هناك!

كم من الوجوه؟ ثلاثة . . أربعة؟ . . لم تعد تتحقق . . لم يعد يعنيها أن تتحقق . . فاجرة هذه الوجوه؛ كل وجه كالآخر؛ فجورها ينضح هناء وعافية ولين عيش! . . كان الاحتقار والبغض يتفجر من أعماقها البعيدة . . فما أقبح ملامح الكفر إذا فجر! . . دعاها أحدهم لأن تجلس؛ لماذا هذه المرة؟! . . ما الغاية إذن من الرحلة القاتلة؟! . . ترددت . . أحست بالنجس يملأ المكان، يتناثر فوق كل شىء . . يلطخ كل شىء . . والمقعد، والجدران والأرض! . . ظلت واقفة! . . وعرض المشهد: شاب يسوقه اثنان فى أيديهم سوط يرتفع ويهبط باستمرار . . يهوى فوق الرأس . . فوق الكتفين . . يهوى أعمى أينما اتفق! . . الشاب يجرى يجرى . . يلهث تتقطع منه الأنفاس . . يدخل . . يقف . . اصفرار الوجه المشوه بالحروق يفجأ عينيها، يغوص فيهما حتى العمق! . . مَنْ هذا . . من أين جاءوا به . . ولم!؟ لماذا وهو لم يبلغ مبلغ الرجال بعد . . وهو يكاد أن يكون طفلًا؛ ملامحه لا تشى بأنه منهم؛ فهم رغم كل العذاب . . هم كبار . . يحملون ملامحهم المعتزة؛ ذواتهم تطل من أعماقهم البعيدة بوسامتها فى صمت متجمل مهما كانت تشوهات وجوههم؛ أما هذا الصبى الصغير المفزَّع . . قال أحدهم: «انظرى إليه جيدا» . . حدقت فى وجهه هنيهة . . قالوا: «أتعرفينه؟» قالت «لا» . . قالوا له: «هل تعرفها؟» أجاب فى صوت متخثر: «لا» . . وانتهى المشهد! . . سيق الفتى الزائغ العينين المضطرب الملامح المختل الحركة؛ يجرى وخلفه

السياط، يلهث من الجرى ويتقلص كتفاه من لذعات السوط . . وتسلمها منهم الوحش المكلف بإرجاعها إلى زنزانتها وقفل عائدا. داخلها يمور كموج البحر الصاخب، تتقاذفه تناقضات لا تحصيها؛ الموجة فى إثر الموجة تدهمها، تكاد تطيح بتماسكها . . تكاد تقلب الموازين فى روحها الثائر . . كل شىء قد غدا فى حسها ثائرا متخبطا لا يرسو إلى قرار . . أحست أن الأرض تميد تحت قدميها فانسحبت مسرعة إلى الفراش وأهوت بجسمها النحيل إليه، وأسندت ظهرها إلى الحائط . . كم تريد أن تتبين وسط الغيوم المتكاثفة ! . تتبين ماذا؟ . . لا تدرى ! ولكنها تحس بعمق أنها تهوى . . أنها فى حاجة ماسة إلى رفيق . . إلى معين . .

فركت عينيها تستوثق . . هل كانت فى حلم مزعج؛ أم أن هذا هو الواقع البشع الذى لم تكن تراه؟! . . وهل من الممكن أن يتأجج الحقد فى قلب الإنسان إلى هذا الحد الوحشى حتى لو كان الصراع صراع الباطل والحق؟! . . هل يمكن أن يصل الإنسان فى أية ساعة من ساعات وجوده، ولأى سبب من أسباب الأرض إلى هذا الدرك؛ ولماذا لم يفعل ذلك أبدًا المسلمون فى تاريخهم الطويل مهما أصابهم من اعتداء المعتدين وظلم الظالمين؟! . . هل يملك الإنسان أن يهبط إلى أدنى من خسة ضبع، وأشد سعارا من وحش جائع، حتى لو كان صراع حياة أو موت؟! وماذا إذن يتبقى للإنسان!

الحقد الكافر . . الدرك الأسفل . . نعم . . كانت تقرأ فى القرآن أن الكافرين لا يرقبون فى المؤمنين إلا ولا ذمة . . كان خيالها يمد الخيط

إلى أقصى مداه؛ لكن ما أبعد الشقة بين خيالها الساذج وما جابهها اليوم! كانت الصورة ألطف بكثير. . أرقى بكثير. . كانت لائقة بالإنسان. . حتى وهو فى الدرك الأسفل. . حتى وهو فى أوحال الكفر! . . كانت كلما مرت بآية من القرآن تقول: «أولئك هم الكفرة الفجرة» تعجب. . تقول فى نفسها: «كيف يكون بعد الكفر فجور» . . لقد رأت اليوم. . عرفت تلك الساعة كيف يضاف إلى الكفر فجور فيتميز كفر عن كفر. . تعرف اليوم الفارق بين الكفرين، كفر الإنسان وكفر الوحش!

ترى كيف يعيش هؤلاء الوحوش؟! . . فى أسرة؟! . . لهم أمهات وأخوات وإخوة وزوجات وأبناء. . من البشر؟! . . كيف يعيشون معهم. . كيف يعاشرهم أهلوهم؟! . . يحبونهم. . يتعاطفون معهم. . يتعايشون كما يتعايش البشر. . كالإنسان مع الإنسان؟! . . لكن كيف؟! ليتها تستطيع أن تستدعى أمهاتهم وزوجاتهم وبناتهم يشهدون ذلك المنظر التعس. . يعرفون ذئابهم على حقيقتهم فيلقونهم فى. .

أيقظها من تساؤلاتها صوت أنيق اعتادت أن تسمعه كل يوم فى هذا الموعد؛ صوت سيارة تدلف مسرعة نحو الخارج تعلن بصوت بوقها المتأنق خروجها! ثم تتلوها أصوات عربات أخرى، أصواتها كأصوات أطفال فرحة بفكاكها من سجن يوم دارسى طويل! . . يا لسخرية هذاالواقع النكد! . . فهاهم ذئاب الذئاب عائدون. . عائدون إلى دنياهم؛ إلى بيوتهم وأفراح حياتهم. . إلى

زوجاتهم وأطفالهم، وأمهاتهم وأخواتهم. . موفوري العافية كما رأتهم؛ وجوههم تطفح بالنعيم وقلوبهم لاهية لا تظن أن في هذه الدنيا ألم! . . كل شيء فيهم يضج بالأناقة والنعمة . . ملامحهم تنضح بالغرور، ونظراتهم متعالية كأنهم ملكوا الزمان والمكان والحياة. . أجسامهم الممشوقة الفارعة في الملابس الفاخرة ومشيتهم المتألهة الواثقة توحي لمن يراها أنهم يظنون أنهم مخلدون في النعيم؛ أنهم أمنُوا. . أمنوا كل مكروه. . حتى الموت الذي هو نهاية عن يقين، قد غاب تماما عن خاطرهم في بهجة عيشهم الرغيد!

كيف حدث ذلك كله في غفلة من البلاد والعباد؛ وكأنهم ورثوا البلاد والعباد! . . كلا، بل حدث بسبب من غفلتهم هم؛ بل بترتيب ومساعدة منهم هم، وهم الناصحون المخلصون للبلاد والعباد! . . أهو العقاب من الله لهم على غفلتهم، على نقص علمهم وضعف بصيرتهم. . أم إنه العقاب للجميع وقد تركوا السبيل الواحد وتاهت أفئدتهم وأقدامهم في السبل؟! . . ولكن. . لكن هل يحدث شيء في كل كون الله بغير إرادة الله؟ . . فالله هو الذي أعطاهم هذا الملك الواسع وألقى بهذا البلد التعس في قبضتهم! . . ليفتنهم فيه؟ . . نعم. . ولكن. . هل بقي في الساحة الحزينة مَنْ يقاوم عبثهم الضال وقد مكنهم الله من الجميع حتى من هذه الحفنة التي وهبت نفسها لله ولطريق الحق؟! . . تداهمها الصورة. . الصورة التي شهدتها اليوم تنزف دما . . الصورة التي تحوي آلاف الصور الحزينة، وآلاف الجروح يعبث الذئاب بها ما شاء لهم حقد قلوبهم؛ بلا رادع، بلا خوف من

عقاب، يفعلون بهم مالا يفعل وحش الغاب بفريسته فلا يملك أحد دفاعا! بل لا يملك حركة والألم يصرخ فى ملامح الوجه؛ بل لا يملك حتى رمشة عين! . . لَكَمْ تعذبها الصور، لكم تتمنى أن تنسى فلا تستطيع . . لكم تتمنى أن تبكى فلا تملك الدموع! . . الصور القاتلة كأنما التصقت بمقلتيها فما عادت تملك التخلص منها ما عاشت . . كيف تطيق . . كيف تعيش وقلبها لا يملك الفكاك حتى ساعة من هذا الهم الثقيل . . أتراهم باقون ليلتهم حيث رأتهم، فى موقفهم المرير انتظارا لعذابات الصباح الجديد؟! . . أم تراهم منُّوا عليهم بأرض زنازينهم يلقون عليها بجراح أجسادهم التى تثعب منها الدماء، فى انتظار إذلال يوم جديد؟! . .

أحست أن صدرها يتحطم، تكاد عظامه أن تتفجر، تدوى فيه حتى أعماقه صرخة مدمرة! . . هؤلاء . . هذه الهياكل الملقاة بجوار الحائط كأنها أكوام قمامة تافهة، فى إذلال قاتل، فى عبث فاجر! . . إنهم أهلوها . . إخوتها وجماعتها . . إنهم منها وهى منهم، لا تستطيع ألا تحس بألم الجسد الواحد! . . إنهم كذاتها . . واغلون فى أعماق مشاعرها! . . وهم جند الله فى هذه الأرض . . يا ألله! . . هل تقول كما قال الرسول الكريم من قبل: «إن تهلك هذه العصابة يا رب فلن تُعبد فى الأرض»؟! . . كلا . . فالله قادر على أن ينصر دينه، بهم أو بغيرهم . . وأرض الله واسعة! . . ومن يستطيع أن يطمئنها أنهم جميعهم على الطريق الذى يرضاه رب العالمين؟! . . إن أخشى ما تخشاه أن يكون ما يقاسون هو ابتلاء غضب . . سببه نقص

فيهم أو تسيب أو تفلُّت من تبعات الحق وقصور فى إدراك الواقع! . . فهل أخطئوا الطريق فغضب الله عليهم . . فعاقبهم . . فألقاهم هكذا للذئاب كالكم المهمل، المعذب بلا حدود!

كأن يدا قاسية تطبق على صدرها؛ تعتصر ما تبقى فى قلبها من قطرات حياة؛ فما أبشع أن يكون ما يقاسون هو غضب من الله! . . القلب يحتمل كل شيء؛ سعيدا، حين يستيقن من رضوان الله . . فأى هاجس شيطانى هذا الذى يلقى فى روعها هذا الشك المخيف؟! . . ضغطت بيديها على عينيها الجافتين وانكفأت فى الفراش وألصقت وجهها إلى الحائط القريب! . . لو تبقى هكذا بلا حراك حتى تجف! . . حتى تنطفئ الذبالة الضئيلة الباقية . . هذه الكومة الصغيرة من العظام! . . بلا أهل . . بلا أحباء . . بلا انتظار لغير مرور الساعات إلى يوم جديد مفعم بعذاب جديد!

بلا أهل؟! . . أحقا هى بلا أهل، بلا بيت؟! . . وجاست الكلمات فى كيانها لاذعة قاسية . . لقد نسيت حقا أن لها أهلا . . غريبة مفردة هى منذ وعت . . تغرق فى أعماق قطيعة من الدنيا قاطبة؛ ينبذها الناس، والعالم والحياة والأحياء! . . كيف تسنى للأشقياء أن ينبتوا مثل هذا الإحساس فى قلبها؟! . . كيف توغل هذا فى كيانها كأنه حقيقة؟! . . كيف تملك الكذبة أن تتجسم حتى تملأ الفضاء؛ وتملأ فى النفس كل خلية؟! . . و«الحق» . . «والحقيقة» . . كلمات غدت ينطقها اللسان بلا رصيد! . . وهكذا استطاع شياطين الباطل أن يستزرعوا الكذبة الكبرى فى أعماق كل قلب! . . عرفوا

النقطة الحساسة فى قلب الجميع . . . الشوكة المزروعة فى قلب وجودهم والخنجر المنغرز فى شرايينهم فكذبوا كذبتهم الكبرى! . . طوقوا بالكذبة الفاجرة رقاب الجماهير وساقوها كالأغنام إلى حتفها وهم يرددون لها أغنية النصر الكبير!

حين يختل الميزان يختلط كل شىء . . يأخذ الباطل مكان الحق ويلبس الحق ثياب الباطل . . تبرق الكذبة بإشعاع الحق ويتوارى لمعان كل حقيقة! . . حتى الحقائق الصغيرة؛ فما الذى يملأ قلبها الآن . . الحقيقة الواقعة أم الوهم الباطل الذى زرعوه! هل يستطيع قلبها الآن، وهى فى وحدتها المهجورة المنبوذة هذه، أن يستشعر الحقيقة؟ . . أن يدرك أن لها أهلا يحبونها . . يحبونها حتى أعماق قلوبهم . . تتلهف تلك القلوب عليها وترف حولها وتحلم بعودتها؟ . . هل تصدق أن لها أصدقاء ومحبين فى جنبات الأرض يبكون غيابها! . . وهى هنا كم مهمل لاوزن له ولا وجود! . . أيهما الكذبة؟ . . أيهما الحقيقة؟ . . أيهما هى؟ . . فما أبعد الشقة!

تغرق فى فراغ . . تحس أنها تغرق حتى قمتها فى التيه . . أين حقائق الأشياء فى دنيانا؟! . أين «الحقيقة» فى هذا الوجود الدنيوى . . كل حقيقة . . وكل الحقيقة؟! . مَنْ لها باليد العليا الحانية تنتشلها من عمق الظلمة؛ من هلاميات التيه! . . مَنْ لها بلين رحمة الله تعبر بروحها إلى شاطئ الأمن من هذا المخاض فى اللجة العاتية! . . ولكن الجفاف يغمرها الليلة بما لم يغمرها من قبل . . تغرق فى موج الظلمة والشك : ابتلاء رضاء أم ابتلاء غضب؟! . .

وتضيع كل المعالم فى التيه المترامى . . ثم . . ثم تلقى هكذا كالكم المهمل المنبوذ . . لا أحد يهتم لأمرها . . ضاعت أم بقيت . . خرجت من لجة التيه أم غرقت فيه ا . . لا أحد تقول له كلمة . . تفضى إليه بشيء من دوامة أفكارها السود . . يتشقق قلبها من صلادة الجفاف!

أطبق الصمت فمها وعينيها وخيالها ؛ وتوقفت حركة الحياة فى نفسها وفكرها ومشاعرها ؛ وبدت لمن يراها كأنهما هيكل جاف قديم لإنسان حنط على هذه الهيئة منذ بعيد!

لم تشعر بالنهار وهو ينفلت من بين يديها وينضم إلى الركب الهائل ، الزاحف إلى ظلمات العدم ؛ ويسحب أواخر إشعاعاته من جو الحجرة ؛ وبدأت جموع العصافير القاطنة فى فتحات المبنى تغادر أماكنها وتنطلق إلى الخارج استعداداً للاحتفال الجماعى بالمغيب ، وتترك المبنى الموحش الصامت أشد وحشة وصمتا ، وتخليه تماما من كل نأمة حياة! . .

بدا المكان بكل ما فيه ، لمن يتملاه ، لوحة للموت ؛ وجهها الشاحب ، وعيناها الغائرتان المنطفئتان ، وشعرها المشعث المبعثر فى غير اهتمام . . كومة جسدها الضئيلة ملتفة فى غطاء رمادى قديم لا يبدى منها غير رأسها وذراعيها النحيلتين ، والجدار الوسخ يلتصق بها حانيا على الجسد الواهن حنو جدران القبر ، ولون الأرض الرمادى يلتف بلون الكومة الملقاة ، يلفه كله صمت موجع ثقيل نسيت الحياة أن تطأه منذ زمن بعيد!

وحدها وحدها وحدها . . تغوص فى الصمت ويتوغل الصمت فى أغوارها ؛ وحدها بلا معين فى محنة اليوم بكل صقيعها ؛ بكل قسوتها . . وحدها تخبط فى دياجير أظلم لجة شهدتها سنون عمرها، بغير سند يلجأ إليه قلبها!

منذ تفتح وجودها للحياة، كان شقيقها الذى تسلمها برعما صغيرا، هو الملجأ والملاذ فى دنياها؛ إليه تلقى بمشاكلها وآلامها الصغيرة؛ تدفن رأسها المكدود فى حبه الواسع فتنساب الثقة والطمأنينة فى قلبها، ويفرش اليقين ظله الظليل وتوغل البسمة المشرقة فى الحنايا تذيب جحافل الضباب . . واليوم . . اليوم ما أقسى حاجتها إليه، تحكى له هم اليوم الثقيل ؛ تصف له ما مزق نياط قلبها وزلزل روحها . . تسأله وهو قائد المسيرة: لمَ وكيف؟ تسأله: أهو ابتلاء الاجتباء أم هو غضبة الله على المخطئين! . . على أمتار منها هو . . أو خطوات؛ ولكنها لا تدرى أين! . . لا يمكن أن تدرى؛ فلقد حيل بينها وبينه . . بل حيل بينها وبين كل الوجود! . . لقد قطع الذئاب كل ما أمر الله به أن يوصل! . . لا تعرف ماذا فعلوا به . . لم تسمع عنه غير أكداس التهم تكال عليه بغير حساب فى أوكار العذاب . . وحدها خاضت لجة العذاب منذ شهور طوال، طالت كأنها الأبد! . . لم تتعود قبل هذه المخاضة أن تقضى فى أصغر أمور دنياها بدونه! . فى هذا الجب القارس الظلمة يفطم قلبها وروحها وعقلها وإرادتها بضربة واحدة قاصمة! . . ما أقسى حاجتها إليه اللحظة يأخذ بقلبها من دياجير الظلمة إلى ساحة النور المتوهجة فى روحه دوما؛ ومن صحراء القلق يطمسها ذلك النبت الشيطانى إلى

بحيرة اليقين الهادئة الرقراقة التى يتسع لها دائما قلبه . . يحكى لها بصوته الهادئ الواثق الحنون قصة «الأخدود» ؛ يشرح لها معالم الطريق ويمد ببصرها إلى خارج دنيا الباطل . . إلى النهايات التى تبدو فى أعين الظالمين بعيدة وهى منهم قريبة قريبة ؛ فيستريح قلبها المعذب وتعتدل فى روحها الموازين ! . . مَنْ لها به لحظات . . فقط لحظات ! . يقول لها لماذا وإلى أين ؛ مَنْ لها به ترى فى ساحة رؤيته الشاسعة العملاقة قمم الصواب وبؤرات الخطأ ؛ فتهدأ فى قلبها نواقيس العذاب التى تدق بصوتها المفزع فتزلزل كل ساكن فى حناياها ؛ وتزرع الفكرة السامة التى تجوس فى أعماقها تنهش كالكلاب المسعورة كل قطرة أمن وكل خطرة رجاء . . مَنْ لها بلحظات معه يفسر لها هذا الهول الغامض المعقد السمت ؛ يقول لها مَنْ هم ، وأين هم فى واقع الحق الكبير ؛ يقول لها هل حقا هم جند الله ؛ أم أنهم أخطأوا الخطى إلى الطريق ، وأنها إذن جولة خاسرة . . وأنه العقاب !

الخدر يتسلل إلى عظام رأسها الموجعة فتستسلم له ، ويغشى أفكارها الحزينة طائف من كلال . .

استرخى جسمها النحيل المغمور فى الفراش ، وتسربت غشاوة من النعاس إلى جفنيها . . لحظات . . لكن دقائق الراحة القليلة لم تطل ؛ فما لبثت أن انتفضت صارخة ؛ تحملق فيما حولها من الظلام الذى ساد جو الغرفة الضيق فزادها ضيقا . . تحاول أن تطرد أشباح الكابوس الذى مد إليها بذراعين طويلتين كأذرع الأخطبوط يتحسسان رقبتها !

أحست أن يدا عاتية تضغط على صدرها تسحق قلبها سحقا! . . ألا يتداركها الله الرحيم برحمته وهى توقن بسعة رحمته، لا يغيب فى قلبها ذلك اليقين مهما اندلعت فيه نيران الواقع القارس. . لكن . . لكنها الليلة مغلقة القلب مطموسة الشعاع؛ فكيف سوف تقاوم هذه الكوابيس التى تداهم نومها كل ليلة، فى هذه الليلة العسيرة؛ والحاجز صلدا سميكا يغلق الطريق بين روحها وبين مصدر النور؟! . . كيف ستلجأ إلى آيات الله حين تدلهم الظلمة؛ وقلبها تزلزل فيه اليقين، وروحها تخبط فى دياجير البعد والقلق واليأس؟! . . أى شيطان هذا الذى يجوس فى أعماقها فيهز بيده الأثيمة كل الموازين! . . يسلب من نفسها طمأنينتها وينشر بين طياتها فكرة الخطأ والغضب المفزع ويسلب من قلبها تلك القوة التى عصمتها من السقوط فى كل لقاء بالزبانية؛ والتى أغاظتهم وأعيتهم حتى أعلنوا احترامهم مرغمين رغم تألههم وجبروتهم! . . لم تشعر طوال عمرها بوجود الشيطان حقيقة مجسدة، كما تحسه الساعة حولها؛ تكاد أن تلمسه يداها!

انتفض جسمها فى قشعريرة اكتنفته من الرأس إلى إخمص القدم؛ ثم قامت هاربة تقطع فراغ الغرفة جيئة وذهابا تخوض فى الظلمة التى أغرقت المكان وأوغلت فى قلبها!

على الرغم من إرادتها يجتر قلبها الأحداث تُعرض فى ساحته الصور القريبة والبعيدة كأنها شريط سينمائى غير متقن العرض، يختلط فيه الحاضر الواقع بالماضى الذى غدا كالوهم، وبالأمنيات،

وبأحلام طفولية تستغرق القلب فى مهرب بعيد! . . لوينتقم الله لدينه . . ولهم! فيأتى بالطغاة إلى هنا! . . إلى هذا المبنى ذاته الذى دفنت حياتها فيه! . . إلى هذه الزنزانة التى تجوب قدماها الآن أمتارها القليلة المظلمة ذاهبة آيبة! . . يعيش كبيرهم فى هذا المدفن الكئيب الذى تعيش فيه منذ شهور . . وحده يبقى . . بغير همسة قلب بجواره، حتى قلب حيوان! . . يقاسى فيه بقية أيام عيشه حتى يأخذه الله، ويأخذهم جميعهم أخذ عزيز مقتدر إلى مثواهم الذى توعد به أمثالهم! . . لو يقاسون كما تقاسى هى : الوحدة والظلام والظلم والقهر ؛ ولكن فى سبيل شيطانهم الذى ألهوه وفى سبيل أهواء دنياهم! . . لو يقاسون ليلة كليلتها هذه بين براثن يأس قاتم فلا يملكون ما تملك هى من لجوء إلى رحمة الله! . . لو يقاسون ليلة كليلة الأمس حين كانت تعانى نزعات الموت وحدها بلا معين! . . لو يوقع الله هؤلاء اللئام فى أسوأ أعمالهم فيساقون فى ليلة ليلاء إلى هذا الجب السحيق . . لو . . لو . .

قطع عليها حلمها الطفولى صرير المفتاح فى الباب الخارجى على غير انتظار! . . تيقظت حواسها جميعا إلى الصوت وأرهفت أذنيها تتسمع . . ترى ماذا جاء بالحارس فى هذا الوقت على غير اعتياد؟! . . لعل الله قد لطف بها فذكَّر هذا الحارس الظلوم فجاء يشعل ضوء الدهليز وقد تكاثف فى المكان كله الظلام! . . لحظات قليلة يتفاقم فيها الهمس . . أصوات غامضة لا تفصح . . ثم تدلف الأقدام إلى الداخل . . ليست أقدام الحارس ؛ نعم، فهى تحفظ عن ظهر قلب وقع تلك الأقدام وتميزها من بين الأقدام! . . كلا ،

ليست هى بكل تأكيد. . إنها أقدام غريبة وكثيرة؛ وقعها يحدث ضوضاء غير منتظمة!

تسمرت قدماها حيث وقفت، ومدت بسمعها وبصرها إلى الفتحتين الصغيرتين فى أعلى الحائط الذى يفصل زنزانتها عن الدهليز، وتوفزت فى كيانها كل قوى الترقب والانتظار. . ترى ماذا؟ . . وأجفل قلبها للحدث الجديد وتضاعفت دقاته؛ ترى هل جاء الوحش فى هذه الساعة من الليل ليأخذها إلى دورة جديدة من دورات التحقيق؛ فهى تلمح صوته بين الأصوات الهامسة! . . ترى هل كانت ظلمة قلبها كل تلك الساعات إرهاصا بهمٍّ جديد فى هذه القضية المفتراة؟! . . لا تملك أن تنفى هذا الخاطر المفزع رغم مغادرة الزبانية الكبار مكاتبهم؛ فالأوكار الأخرى تعمل؛ والوحوش صفوف إثر صفوف؛ والعمل الإجرامى دائم فى الليل والنهار؛ «واعترافات التعذيب» تبنى طابقا إثر طابق فى القضية المطلوب منهم إحكام بنائها. . وهذه الأوكار الليلية هى التى تقوم بالتعذيب المتخصص من أجل تثبيت «الوقائع الكبار» التى تبنى عليها «الأحكام الكبار»! وهى التى تُعد الضحية للانهيار فى أواخر الليل من أجل «الاعتراف» فى صباح اليوم التالى أمام «هيئة الوحوش» فى مجلسهم الموقر! . . أتراهم جاءوا ليأخذوها إلى واحدة من تلك المسالخ؟! . . فى هذا التيه الرهيب كل شىء جائز الوقوع؛ وأوكار العذاب وألوانه التى لا يسهل إحصاء ضراوتها تتناثر فى كل أرجاء المبنى الشاسع؛ دائمة الاستعداد للعمل فى كل لحظة فى ليل أو نهار!

الأقدام تدلف إلى الداخل فى الممر الطويل فتزداد دقات قلبها تسارعا وتتتالى دفقات الدم إلى رأسها . . ثم تهدأ قليلا حين تتجاوز الأقدام باب زنزانتها ولا يفتح! . . الأقدام تظل تسير . . إلى . . إلى نهاية الدهليز؟! . . أيكون فى المبنى غيرها وهى لا تشعر؟

استجمعت أعصاب رأسها تشد على ذاكرتها تسترجع أحداث اليوم، تسألها فى إلحاح: «هل فتح الحارس اليوم بابا آخر فى المبنى غير بابها حين جاء يناولها الطعام»؟ . . كلا . . تستيقن من ذلك . . بابها وحدها الذى فتح حين تسلمت طعام العشاء، وحين أخرجت إلى دورة المياه . . إنها وحدها فى المبنى كله عن يقين! . .

مشدودة الأعصاب والقلب، ترقب كل همسة؛ مشرئبة العنق إلى الكوتين الصغيرتين فى أعلى الحائط . . هاهوذا باب إحدى الزنازين يفتح . . هاهى الأصوات تتجاذب جملا متقطعة لا تميزها؛ ثم ها هى الأقدام تروح وتجىء فى حركة سريعة غير منتظمة . . باب الزنزانة يغلق بعد لحظات محدثا الصرير المحفوظ . . ثم تندفع الأصوات والأقدام نحو الباب الخارجي . . تخرج ويغلق الباب الكبير بالمفتاح . . ثم . . ثم يخيم الصمت من جديد!

ظلت واقفة ترهف السمع؛ شاخصة ببصرها إلى الفتحتين كأنما شدت عيناها إليهما بخيوط غير مرئية! . . أفكار كثيرة تموج فى خاطرها وآمال . . من يدرى . . فلعل الله قد نظر إليها نظرة إشفاق فعلم حالها ووحشة قلبها القارسة فأرسل إليها مَنْ يعينها وجوده فى

هذا الفراغ المخيف على قضاء الليلات فى ظلمة الشتاء المقطوعة فى العزلة الساحقة هذه . .

اهتز قلبها هزات رجفة خاشعة ؛ وملأت كيانها كله رعشة تسرى فى جسدها من رأسها إلى قدميها . . أو حقا هى قريبة هكذا من الله ؛ تدعوه بحرقة فيستجيب . . وهو ـ سبحانه ـ منها هكذا قريب ؛ يسمع وجيب قلبها الخائف المفزَّع ويستجيب ؛ كما سمع لتلك المرأة تجادل الرسول فى زوجها وتشتكى إلى الله؟! . . وهل حقا تعيش هى فى ذلك الواقع السعيد البعيد فى الزمان . . واقع اللقاء بين السماء والأرض؟! كما سمعت من المؤمنين الكبار حين قالوا إن الزمن قد استدار من جديد لنبدأ من نقطة البدء فى ذلك اللقاء الرائع الذى انبثق منه النور وأشرقت به الظلمات؟! . . لو مَنَّ الله عليها بذلك . . ترى هل يطمئن قلبها ويستريح وتعلم موقعها من الحق الكبير؟

خيل إليها أنها تسمع صوتا فتشبثت قدماها بالأرض وشخص بصرها وأذناها إلى الفتحات فى أعلى الجدار ؛ وقد تحول كيانها كله إلى آذان متوفزة مشدودة إلى خارج الغرفة . . أتراه صوت إنسان؟! . . ماذا لو مَنَّ الله عليها بقلب حى ينبض فى هذا القبر الموحش! أفتراها تنام ليلاتها فى أنس بغير أشباح المساء؟!

. . صمتت لحظات وكتمت أنفاسها . . كلا ، لا شىء ؛ لا صوت ؛ لقد توهمت ؛ فالصمت يلف المكان كما كان ؛ والسكون البارد يجثم بكلكله ويتمطى فوق المقبرة الممتدة لا يقطعه شىء! . .

خبا بصيص النور فى قلبها وأحست أن إشعاعات الرجاء التى انطلقت منه منذ قليل تعود فتلقى برأسها المخذول فى ظلمته من جديد! . . لسوف تقضى الليلة ككل ليلة . . والليلات! . . وحيدة خائفة فى انتظار الصباح؛ حين تهجم الأصوات الكريهة المنكرة على جو زنزانتها مع أول خيوط النهار بعد الانتظار الطويل! . . إلى متى؟! . . لا تدرى! . . كأن الزمان قد فقد حدوده وفقد فواصله وانساح سائبا! . . هى هنا منذ وعت وإلى غير انتهاء!

ساقتها قدماها بلا قصد إلى الفراش فأهوت بجسدها الواهن إليه فى غير اكتراث وتمتمت: «لسوف تنقضى . . كلها . . لسوف يمر المساء ويمر الصباح؛ حتى ينتهى من أيامها كل صباح وكل مساء . . وهناك سوف تستريح!

توقف قلبها عن الرؤى وكفت مشاعرها عن الهمس، وانطوت الصور فى خيالها ولفها السكون؛ وآوى الرجاء حسيرا إلى الصمت؛ وبدا الهيكل الساكن المغمض العينين كتمثال حزين ران عليه السكون والغبار مع تعاقب السنين! . . ومرت الدقائق تجر أقدامها بطيئة متثاقلة فوق أكداس الصمت المتراكمة على جسمها الساكن وعلى كل المبنى حواليها تنتظر أذان العشاء . . تؤديها وتنام!

كانت لحظات الصلاة هى لحظات الحياة والأنس فى عيشها كله منذ جاءت إلى هذا المكان خاصة؛ وكانت حين ترهقها الوحدة ويلح على أعصابها الصمت، وتثقل قلبها المخاوف وتطوقها الأحداث المتكالبة عليها من كل فج؛ تقوم إلى الصلاة حتى فى غير أوقات الصلاة؛

وهناك يلجأ القلب إلى الله من وحشته فيجده قريبا؛ يجد عنده الطمأنينة والأنس، ويجد المودة والرجاء والندى؛ وفى غمار هذا القرب تنجلى الظلمات ويشرق النور ويعتدل فى روحها الميزان. . ترى الحق الكبير من وراء الأحداث الجسام والأسوار. . من وراء علو الباطل وانسحاق رأس الحق فى تلافيف الظلمة المدلهمة وضجيجها الذى يصم القلب؛ وقسوتها التى تدير الرؤوس!. . وترى الباطل ضعيفا مهما تسلح بالقوة. . مقطوعا عن مصدر القوة الأعظم. . خاسرا فى ميزان الحقيقة مهما تلفع بنصر بهلوانى كاذب ينكشف بعد حين!. . ولكنها الليلة كسيرة الخاطر، مقلوبة فى روحها الموازين، طاغية فى حسها ثقلة الدنيا، تطوق قلبها ظلمة الواقع القريب المحيط وتدهمها صور الرحلة الحزينة فلا تجد منها مهربا!. . الليلة تنتظر الصلاة وفى روحها انتكاسة كامدة؛ تنتظرها. . لا لتلجأ إليها تحاول أن تتصل بمصدر النور؛ ولكن فقط لتؤديها؛ لتفرغ من واجب لا تقبل النكوص عنه. . ثم تغمر جسمها وقلبها ورأسها فى الفراش المظلم تغلف به ظلمة قلبها. . وتنام. . إن مَنّ الله عليها بالنوم!

من بعيد ترامى صوت المؤذن ضعيفا متقطعا يعلن حلول موعد الصلاة. . الله أكبر. . الله أكبر. . الكلمات تصطك بقلبها. . تنفذ إليه كالسهام. . ثم تسقط فى فراغ التيه الحائر!. . ترى مَنْ هم على وجه اليقين؟. . أين هم من أمر الله؟. . أهم فى رضائه؟. . أهم حقا على الطريق الواصل؟. . على المحجة البيضاء بكل نصاعتها؟. . أهم حقا هؤلاء الأحباب. . الغرباء؟ أم أن قدمهم قد ضلت فى الشعاب؟. . لو تستطيع أن تطمئن!. . لو يبعث الله

برحمته إلى قلبها بشعاع من نور . . فترى . . لو يرزقها بشىء من عنده يطمئن به قلبها ويهدأ . . لو . .

فجأة رفعت الغطاء المطبق عليها وانتصبت واقفة : لقد سمعت صوتا ! . . حقا سمعت صوت إنسان ! . . إنسان داخل المبنى ! . . أفيمكن أن يكون ذلك؟ . . ولكنها على يقين هذه المرة ؛ فالصوت واضح النبرات يردد النداء للصلاة . . الصوت فى داخل المبنى بكل تأكيد . . فليس خارج هذه الزنازين المتراصة صوت يذكر الله ! . . يا ألله . أيكون شعاع رحمة من عند الله ! . . ترتعش . . كل جسمها يرتعش من رأسها إلى قدميها . . أسنانها تصطك فلا تملك وقف اصطكاكها ! . . اقتربت من الباب . . كل شىء فيها مرهف مشرئب إلى هناك ؛ إلى الداخل ، كأنما تحولت مسامها كلها إلى آذان !

ها هو الصوت . . يعود بعد لحظات صمت . . يكبر للصلاة . . يا ألله . . ما أبدعه ! . . صوت مؤمن خاشع يعرف الله وسط الظلام الدامس والضلال ! . . وسط الأصوات الكافرة تتفجر بالفحش ؛ بأقبح اللعن وأقذر السباب ! . صوت يطهر المكان ويمحو ما تراكم عليه من رجس ! . . صوت إنسان . . من جنسها ! . . معها ! . . أيمكن أن يكون ذلك ، بعد أن أقسم لها الزبانية أنها سوف تبقى فى هذا الجب وحدها حتى تدفن فيه وحدها ! . .

. . لا تصدق أذنيها ! . . تخاف أن يخونها سمعها كالمرة السابقة ! . . أن يكون ما سمعته وهما ينتابها ! . . يصنعه خيالها ليهبها بعض الأمن ! . . كل ذرة فيها مترقبة ، مشدود إلى هناك ! . . كلا

كلا . . ليس وهما . . لم يعد بعد شك . . فها هو الصوت يترامى إليها واضحا يرتل القرآن . . إنه يصلى العشاء . .

فى هدأة الصمت ينفذ الصوت إلى المكمن العميق واضحا جليّ النبرات . . يا لجمال الصوت الخاشع ! . . إن قلبها ليرتعد، وتجتاح جسمها قشعريرة حلوة، وتهتز روحها بفرحة مشرقة . . منذ متى لم تسمع القرآن يتلى بمثل هذا الصوت المؤمن الخاشع . . منذ كم حرمت هذا الندى؟ !

أحست أن روحها وقلبها وكيانها كله يهتز ويربو كما تهتز وتربو الأرض المجدبة حين تدركها رحمة الله بغيث من السماء؛ كل ذرة فيها يتخللها الندى فتنتعش لوقعه اللين الرفيق . .

الصوت المخبت العميق النبرات يتهدج بالآيات . . يتسرب كل لحظة إلى الحنايا المظلمة والدروب البعيدة التى شققها الجفاف؛ يحمل إليها نورا وطمأنينة وندى ورجاء . . ينقلها من ضفة الظلام القارس التى تقبع فيها . . ينقلها إلى الضفة الأخرى! . . يا ألله . . هذا الإيمان المخبت الخاشع الذى يتهدج به الصوت عميقا مشرقا . . أفيتأتى ذلك لبشر بعد ذلك العذاب . . بعد هذه الهزيمة . . بعد هذه المعركة الخاسرة . . بعد هذا الأسر المذل الذى لم تر له فى الأرض مثيلا إلا فيما ينسجه الخيال عن فظائع النازى وبشاعات محاكم التفتيش؟ ! . . يا للمعجزة! . . ويا لضخامة أمر هذا الشىء العجيب الذى يذخر به القلب حين يعمره الإيمان!

قفز إلى خاطرها فجأة صوت أحد الزبانية الكبار . . كان يمارس تعذيب أحد الضحايا فى الفناء القريب من فتحة الجدار فى زنزانتها . . كان صوته يتفجر حنقا وحقدا مغيظا ويده تنهال بالسوط مسرعا متتاليا بغير انقطاع . . وكان الصوت الآخر واهنا خاشعا يردد فيما يشبه الأنين : الله . . الله . . قال الرجل الوحش وهو يصرخ فاقد الزمام وقد كلت يداه وعجزتا عن المتابعة : « قولوا لنا ماذا نفعل بكم أكثر من هذا؟ ! . . تعبنا ! . . كلت أيدينا واستنفدنا قوتنا ! . . بذلنا كل ما فى وسعنا وأكثر ! . . وأنتم كالصخر . . لا تتحطمون ! » .

أشرقت فى أرجاء روحها بسمة راضية . . بعد هنيهة قصيرة تحركت قدماها فى نشاط وثقة إلى ركن الحجرة الذى اعتادت أن تتيمم عنده ! . . وقفت خاشعة فى اتجاه القبلة . . لحظات قليلة تجمع شتات قلبها بعد يوم تطواف فى ضفة الآلام وتوجهت بالكيان كله إلى الضفة الأخرى . . أقامت الصلاة بصوت مخبت خفيض ثم استرسلت . . ترتل مما تحفظ من آيات الله فى خشوع عميق . .

نقـــلة

صـحـيح أن «الـزنزانة» هى الزنزانة فى كل مكان فى هذا السـجن القديم الرهيب؛ أرضها وسقفها وجدرانها؛ أمتارها القليلة السجينة، طاقاتها الصـغيرة المعلقة فى أعالى الجدران، مسورة بالحديد المتقاطع والأسلاك؛ بابهـا الأسود الشيطانى يوثـق القيـد ويطمر أنفـاس القلب وأنفاس الحياة!

ولكن النقلة هائلة رغم ذلك كله! هى نقلة من الموت إلى الحياة.. نقلة من القبر فى جوف الأرض إلى عيش الدنيا على سطحها!.. لكم يستهين الناس فى هذا الزمان المطموس بعذاب القبر؛ ولا تقاس إليه عذابات دنيانا جميعها مهما ادلهمت!

هناك، فى السرداب المغلق، لكم حاولت فى تلك الشهور الطويلة التى قـضـتـهـا، أن تستل من حسها ذلك اليـقـين الذى استـقـر فى الأعماق؛ الذى يلح فى كل لحظة على مشاعرها وبصرها بأنها تعيش فى المدفن وهى بَعدُ على قيد الحياة.. كم حاولت أن تبعد الصورة الكريهة دون جدوى!

هنا.. منذ أن جاءت إلى هذا المبنى الجديد الذى يطلقـون عليـه «رقم٢»، يمـتلئ قلبها بنشوة تتصاعد من أعماق بعيدة؛ أعماق

الوجود الإنسانى على سطح هذه الأرض! . . نشوة لا تقتلها قسوة الظروف التى تدلهم من حولها. . ولا أشباح الأحداث التى تتراءى فى الأفق؛ تزحف إليها وتطوقها! هنا. . يتنفس قلبها نسمة الحياة. . نسمة رخية كأنفاس الربيع! . . وفى أغوار بعيدة لاتدرك معالمها يستقر فى حسها أنها تحيا وأن أملاً غامضا يوصوص فى القلب إلى أفق بعيدا! . . ينسرب إلى أعماقها البعيدة تسبيح خاشع لخالق الإنسان الذى خلق له هذه الأرض وخلقه لها وربط بينهما بوشائج هذه القربى التى ترتبط بها كل خلية!

كانت النقلة أشبه بالمعجزة! بالنسبة إليها كانت خيطا من النور يربط فى قلبها بين الأرض والسماء، كانت إرهاصا بالزمن الأبيض؛ ذلك الزمن المبارك حيث توجد نقطة البدء؛ هناك حيث اتصلت الأرض بالسماء وتلقت النور الذى فاض عليها حتى غمرها. . حتى رفعها إلى الآفاق التى لم يدركها تاريخها من قبل ولا من بعد. . الأقدام على الأرض، والأرواح هنالك فى الملأ الأعلى! . . هناك حيث العزمة الكبرى التى غيرت وجه الحياة كلها رغم ظنون أولئك اللاصقة قلوبهم بتراب الواقع؛ حين قالوا: «غرَّ هؤلاء دينهم».

كانت لها قصة من القصص الكثيرة التى عاشتها فى ذلك العالم الغريب؛ تلك القصص التى وثقت فى قلبها الرباط بين عالم الواقع وعالم الغيب المستور حتى كادا أن يتلاصقا! . . القصص التى علمتها ما لم يكن عقلها المشدود إلى الأرض مستطيعا أن يدركه؛ وحجب العيش الرتيب تقطع الطريق! . . ذلك الذى لم تكن تستطيع أن تتلقاه

من كل علوم الأرض؛ ولا أن تجده فى كل الكتب إلا فى كتاب السماء حين تطاول بروحها نفحات السماء! . . ذلك الذى لم تكن تملك أن تستوعبه فى عشرات السنين!

* * *

حين امتد الزمن وطال فى «الزنزانة المقبرة» . . حين تجاوز الأيام والأسابيع إلى الأشهر الكئيبة الراكدة؛ يزحف نهارها فوق ذرات القلب؛ وتطمر لحظاتها وساعاتها صرخات العذاب فى الساحة المجاورة! . . حين تجاوز العذاب المدمر حدود القدرة والصبر ومنتهاهما والقلب متجمل بالرضاء! . . حين غدا النوم مجرد خطفات إثر خطفات تسرقها الأعين من بين براثن الأحلام الرهيبة وأثقال الفزع الجاثم طوال كل ليل! . . حين غدا هذا الليل القاتل يسلمها لصباح محروق، مشتعل بتأوه الألم وأصوات لذع السياط وفداحة الحرق حتى ليل جديد! . حين أعطت النفس كل ما أعطاها الله من طاقة فأوشك الجسد على الدمار والأعصاب على الانهيار! . . حينها نبت فى قلبها السؤال . . تأرجح طويلا؛ رجح وطاش المرات بعد المرات لا يبغى غير رضوان الله فلا يعبأ بواقع الحال ولا بمقاييس النفع العاجل!

كان السؤال الذى احتل الخاطر، الأيام والدقائق والساعات: «ترى هل تذهب إلى أولئك الأوغاد الذين فرضوا هذا التعذيب الشيطانى تسألهم إنهاءه؛ أم تظل صامدة حتى يأتيها ما هو مقدور فى علم الله؟» .

كانت لذلك التعذيب قصة ؛ انبثقت من تلك الجلسة الساخنة التى واجهتها معهم تحت عنوان «النقاش الحر»! . . لقد فتشوا طويلا ليجدوا موضعا لها فيما سموه «قضية» فلم يجدوا! . . لا أحد يعرفها من هذه الجموع ولا تعرف منهم غير القليلين الذين تربطها بهم علاقات أسرة أو علاقات صداقة عادية؛ ولكنها مع ذلك صلبة الرأس ثابتة القلب تدين بما يدينون به ولا تقبل المساومة، وقد اختبروا فى «تحقيقات» كثيرة عمق إصرارها على الطريق وتمكن علمها به؛ فكيف يتركونها تعيش بين الناس؟! . . كيف يذرونها وقومها يفسدون فى الأرض ويذروهم وآلهتهم؟!

أدركوا بعد تلك «المناقشة الحرة»؛ ألا مجال معها للمساومة؛ لا وسيلة أمامها «لتوبة» تعيدها إلى صفوف القطيع الصامت المستضعف؛ لا طريق لها إلى «المواطنة» التى تتمثل عندهم فى «الإذعان» للأمر! . . الأمر الذى يملك البطش والعذاب . . أمر ذلك الجبار الذى قال إنه: «يحيى ويميت» قبل أن يبهته الحق! . . قرر البغاة هذا اللون الجديد من العذاب . . هذه العزلة القاتلة عن نأمة الحياة . . فى ذلك السرداب الطويل فى باطن الأرض تقضى الليل والنهار بعد أن أفرغت زنازينه التسع من ساكنيها إلا هى . . لم تكن تعلم قبل ذلك التاريخ كيف يوغل الشر هكذا فى قلب البشر! . . كانت تعرف من قبل - وهى فى عيش الرخاء النسبى - أن أقسى أنواع الخصومة هى الخصومة فى دين الله؛ ولكنها الآن عرفت الكثير الكثير عن حقيقة هذا الأمر الخطير؛ أدركت ما لم يكن يخطر لها على بال وهى تمر

مسرعة على الآية الكريمة تقول لها إنهم «لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون».

هل تذهب إليهم وقد أسفرت لها الخبايا عن مكنونها؛ وقد تعمق علمها فى استبطان حقيقة المعركة الدائرة؛ وقد أدركت بعلم يقين أن لا قضية هناك إلا قضية إيمان بالله الواحد الذى لا بد أن ينفُذ شرعه وأمره فى مواجهة تسلط الجبابرة الذين يردون على الله شرعه وأمره! .. الذين يتمردون ويستعلون فى الأرض بغير الحق!

يلح السؤال ويشتد كلما أوغلت الطاقة فى الإفلاس والجسم فى الضعف والأعصاب فى الخوف من الانهيار! .. «ترى هل يرضى الله عن هذا التراجع؟! .. أن تذهب إليهم؟ .. أن تطلب منهم؟ وقد عرفت مَن هم؛ وقد استيقنت من طبيعة المعركة القائمة بينها وبينهم؟! .. هل يقبل الله منها هذا العجز.. هذا الضعف؟ .. هل يكون ذلك مثل «التولى» يوم الزحف؟ .. هذا الذى حرمه الله؟ .. هل يحل لمسلم أن يلجأ لعدو ليس لعداوته من سبب إلا دين الله؟! .. فماذا فعلت هى لزبانية التعذيب حتى تتلقى هذا العذاب؟! .. ما الذى فعلت لرئيسهم الأكبر حتى يأتى بها إلى هنا؟ .. لم تفعل شيئا قط إلا أنها دخلت فى دين الله ولم تدخل فى ميثاقه! .. هى حتى لم تعلن عن هويتها تلك! .. لكن كبير الأسرة أعلن إيمانه بالله وكفره بالطاغوت، فانتقم الطاغوت من الأسرة جميعها؛ ومن الجمع الهائل أيضا!

حين تناهى الإعياء؛ حين تداعت أسباب الخطر الأكبر ضررا رجحت الكفة، قالت لنفسها: «فلتدرأ الضرر الكبير بالصغير؛ تترك الراجح إلى المرجوح!.. ولكنها لن تذل؛ لن ترجو، ولكنها سوف تذكرهم بأن الله قريب وبأنه قادر؛ وبأنهم عائدون إليه فيحاسبهم بعملهم هذا.. ستذكرهم إن كانت بقيت لهم أنفس تتذكر أو قلوب تحس؛ ستقول لهم إن الله قد أدخل امرأة النار فى هرة حبستها حتى ماتت!».

* * *

حين يكون السجن المفرد فى زنزانة هو أعتى أنواع السجن لأعتى أنواع الإجرام؛ والزنزانة على سطح الأرض؛ فكيف يكون إذن حين يكون ذلك الانفراد فى مبنى كامل يحتوى تسع زنازين مقفلة ودورة للمياه؟! حين يكون هذا المبنى فى باطن الأرض؛ وتكون الأبواب السوداء الفارهة تتراءى حتى فى الأحلام كأشباح المردة.. كيف يكون ذلك كله حين يكون هذا المدفن معزولا وحده فى الطرف الآخر من أرض الأحياء.. حتى أولئك المغموسون ليل نهار فى عذابات الطغاة؟!

بكل عزة صاحب حق طلبت، وبكل دناءة أشرس الضباع أجابوا!.. حسنا!.. أدرك الروح أعماق الدرس.. عرف القلب جديدا من حقائق المعركة وطبيعتها!.. عرفت ما هو المطلوب ممن اختار هذا الطريق!.. عرفت أنه تسلق المرتفع السامق إلى قمته!.. خطوة أخرى إلى أعلى تتجاوب مع قدر الله.. خطوة نحو القمة على

أشواك السفح ! . . والله لا يعذب الخلق سدى ؛ ولا يكلفهم عنتا إلا ليرفعهم ! . . أحسست أن شيئا رائعا يتفتح فى داخلها ، ينفث فى الأغوار بموجات قوة . . بموجات نور . .

فى طريق عودتها وجدت أقدامها الهزيلة الخطو تذرع الطريق فى عزيمة وثبات ؛ قالت تحادث أعماقها : «لا مجال بعد اليوم لضعف ! لترف عصبى ! . . الخوف وخيالات الظلمة وأشباح الصمت يجب أن تتوقف . أن تتخطى النفس عقبات الضعف . . أن تتخطى عقابيل الذات . . أن تكسر طوق الوحشة وتستشعر أنس وجود الله . . أن تصعد خطوة . بل خطوات فى المرتقى الوعر . . فالزحف إلى القمة لا يسلس للضعفاء ! » .

فى الليل حين جن الليل ، قالت تخاطب تلك الذات التى تجذب إلى الأسفل . . الذات بكل نقائصها التى تكشفت خباياها فى حناياها البعيدة . . كل زمان مرت فيه منذ البدء خطٌ خطًا فى تلك الحنايا ؛ الترف اللين ألقى بظلاله فوق القدرات ! . . تتبين الآن معنى قول الصحابى الجليل : «اخشوشنوا ؛ فإن النعمة لا تدوم» . . نعم . . من أراد هذا الطريق . . الطريق إلى عزة الوجود فى الدنيا والآخرة فليلق عن كاهله لين هذا العيش اللاصق بتراب الأرض ، وليتدرب منذ البدء على تسلق المرتقى !

قالت : « . . الليلة لا أرق ولا خوف ؛ لا صحو مفزوع صارخ ! . . حتى الخوف المفطور . . حتى الخوف الذى لازمها منذ طفولتها . . عليها أن تتخطاه ! »

نامت! . . نامت حتى بزغ الفجر! . . لأول مرة نامت منذ شهور! . حين صحت على دقات الحارس فوق الباب ، كانت مفعمة القلب بحمد الله . . كان فراغ الزنزانة يذخر بأنس موصول! . . أدرك قلبها معنى من المعانى التى لا تحصيها لفكرة «الجهاد الأكبر» !

مرت ثانى ليلة . . مرت ليال . . الأنس بديع بفضل الله . . يملأ قلبها شعور بالأنس تكاد تلمسه . . تكاد تراه . . يملأ نفسها استبشارا وروحها امتلاء . . لا تملك وصفه ، ولكن تعيشه حتى الأعماق . .

فى ليلة ، وقد استقام القلب على المرتقى ، كانت الرؤيا ناصعة بيضاء ، بدل كوابيس الظلمة ، يلقيها الحق إليها ؛ يُهديها الله لها! . . كانت تلك الرؤيا إنسانا عملاقا سمح القسمات ناصع بياض الملبس . . فتح باب الحجرة المغلق ، ولم تسمع صوت المزلاج . . دخل الزنزانة ولم تسمع وقع الخطوات . . وضع كتاب الله مفتوحا فوق ساقيها الممدودتين فى نصف استلقاء . . المصحف بحجم هائل لم تر مثله من قبل ، غطى معظم الساقين . . أمسك بيدها اليمنى ووضع إصبعها فوق الآيات . . قرأت فى ترتيل محكم : «طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» .

صحت، فتحت عينيها تحملق فى الظلمة الكاسية. . ظلت الصورة بكاملها شاخصة أمام عينيها. . للحظات، ظنتها حقيقة واقعة. . حين اكتملت إفاقتها قامت تتيمم وتصلى فى جوف الليل. . تصلى بالآيات المهداة وما كانت تحفظها من قبل! . . ملأت قلبها أمنية عزيزة المنال: لو يعينها الله فتحفظ القرآن!

فى صباح اليوم التالى جاءها مبعوثهم الوحش؛ أرهب مخلوق فى هذا المكان المرعب؛ حتى صوته، حين يدوى فى فراغ السجن، ينشر آفاق الرعب! فهو مبعوث زبانية الموت إلى الميت، ورسول زبانية التعذيب إلى المعذبين! . . قال بصوت تسكنه لأول مرة نبرة الإنسان: لملمى أشياءك وجهزى نفسك!

ـ لأى شىء؟

ـ سوف تنتقلين من هنا إلى مكان آخر.

ـ خارج هذا السجن أم داخله؟

ـ داخله طبعا؛ فما زال التحقيق. . وما زالت القضية!

ـ ولكنى مرتاحة هنا! . . أرجو أن تبلغهم رفضى للانتقال! أريد أن أبقى هنا. . ولم يعد شىء يتعبنى هنا!

ـ لا تجادلى كثيرا؛ فقد صدرت أوامرهم بذلك!

ـ ولكن أرجوك أن تخبرهم أننى لا أريد الانتقال!

ـ سيكون الانتقال خيرا لك فلا تعارضى . . أنصحك . . أنت تعرفين عنادهم . . فكفاك عذابا فى هذا السرداب . . كلنا نعرف مشقاته!

فى ذلك الصباح جاءت . . إلى سطح الأرض صعدت! . . يا ألله! على سطح الأرض ما زالت الحياة! . . ما زال الناس يتحركون . . يذهبون ويجيئون، ينادون ويتكلمون؛ تسمع أصواتهم أحيانا؛ ربما لا تفهم ما يقولون . . لكنها أصوات حديث لا صرخات عذاب! . . يا لعمق جوعة الإنسان إلى الإنسان!

على سطح الأرض ما تزال تشرق الشمس ثم تغيب! يأتى الليل ولكن يتبعه النهار! . . النهار يفرش نوره، حتى داخل الأمتار المسجونة! . . وحين يفرش الليل وشاحه، تدخل انعكاسات الأضواء من الخارج إلى فراغ الزنزانة، تنفث فيها أنفاس حياة!

حين تخرج فى الصباح إلى دورة المياه تقطع فضاء بين مبنيين؛ تلتقى بأشعة الشمس البازغة تود لو تحتضنها؛ فمنذ متى لم ترها! . . تنفذ إلى الأعماق البعيدة بنورها . . تنسرب فى الحنايا، يتسرب إلى القلب شعاع أمل غامض يوصوص إليه بأن الحياة ما تزال تغدق أنفاسها؛ وأن القلب ما يزال يحيا، وأن مستقبلا ما سوف يبزغ!

حين تخرج بعد الظهر فى رحلة دورة المياه الروتينية، ينطفئ طنين الوحدة والوحشة إلى حين . . تقابلها مجموعات الجند المنتشرين فى الفضاء بين المبنيين؛ يحييها بعضهم بمودة! . . مودة الإنسان

للإنسان! . . وفى الحجرة المجاورة لحجرتها؛ تلك الحجرة المفتوحة أكثر الوقت على غير المعتاد يجلس «الرجل الكبير» . . كان كبيرا حقا حتى فى قلوب أعدائه؛ لم يكن من جماعتها، ولكن تهمته كانت هى نفس التهمة! . . لقد أراد يوما وهو فى مراكز السلطة العليا أن يغير برامج التعليم؛ لينشأ فى المستقبل جيل يعرف دينه فيعرف طريقه؛ . . لذلك ألقى معهم فى الجب! . . ينظر الرجل الكبير إليها نظرة سريعة مسروقة تقول الشىء الكثير . . لها أعماق تفهمها . . تقول لها: «صبراً آل ياسر!» . . يمتلئ قلبها بأمن لم تعهده منذ جىء بها إلى أدغال الوحش . . ما أشد حاجة القلب فى الشدائد إلى قلب يواسيه؛ يأنس به فى الطريق الموحش!

فى صباح ذلك اليوم حين جاءت . . واجهها وجه الحياة الذى غاب عنها منذ زمن بعيد؛ رأتها الشمس وفى أعماقها أطلقت فرحة الوجود! . وفى الليل واجهها القمر! يا ألله . . ما زال القمر يعيش! . . ما أجمل وجه الأرض . . ما أجمل صنع الله! . . فى الفجر كان الجار المؤمن يدق على الحائط الذى يفصل بينهما دقا لطيفا يفعمه الود، يوقظها لصلاة الفجر! . . حين طرقت باب الزنزانة رد عليها الحارس؛ فتح لها الباب؛ أخرجها تتوضأ . . ياالله . . ما أجمل أن يعيش الإنسان عيش الأحياء . . بين الأحياء . . على وجه الأرض! . . تُبعث من ذلك القبر بعد مقام طويل! . . هل كانت تظن أن يأتى هذا اليوم . . فى السجن . . نعم! . . ولكن بين الأحياء!

* * *

لم يكن قد مضى زمن طويل بعد هذا الحدث الكبير فى حياتها؛ حين مر عليها واحد من الذين غدوا أصدقاء بعد شراسة العداء فى أول الطريق . . قال: أتعرفين لِمَ كانت هذه النقلة . . نقلتك إلى هنا؟

ـ كلا ، لست متأكدة من شىء . . ربما لأنى طلبت ذلك منهم!

ـ كلا بالتأكيد! فقد عرفنا أنك ذهبت إليهم وطلبت منهم إما أن ينقلوك إلى مكان آخر وإما أن يسكنوا أناسا فى بعض الزنازين حولك! . . كانت فرحتهم كبيرة بهذا الطلب منك! . . تشمموا من ذلك ـ وهم يشمون كما تشم كلاب الصيد ـ رائحة قرب الانهيار! وهذا ما كانوا يتمنونه ويعملون له! . . فقرروا أن يبقوك هناك، وحدك كما كنت! . . فإما أن تفقدى عقلك أو ترضخى لمطالبهم!

ـ إذن ما الذى غير رأيهم بعد ذلك؟

ـ جاءتهم من عند الله! . . ضبطوا انقلابا فى الجيش! . . اعتقلوا تسعة ضباط فى ذلك الانقلاب . . بعضهم من الشباب ولكن معهم رتب كبيرة! . . يحرصون هم حرصا بالغا ألا يتصل الضباط برجال منكم . . لم يجدوا أوفق من هذا المبنى يقطع بينهم وبين كل الدنيا! . . اضطروا رغم أنوفهم أن ينقلوك! . . لم يجدوا حلا آخر . . لم يجدوا إلا هذا المبنى! فالزنازين فى المبانى الأخرى محشورة حشرا بالرجال! . . كان هذا كله على كره منهم . . فهذا المبنى هو أكثر المبانى هنا إراحة للنزلاء! . . لابد أنك دعوت عليهم فاستجاب الله دعاءك! . .

النصر.. يقطر دما

حين انفتح باب الحجرة للحظة خاطفة ثم أغلق، لمحت طرف الذراع مدثرًا بالحلة الصفراء . . خفق قلبها على الرغم منها ! . . ودون وعى منها تبدلت مشاعرها من النقيض إلى النقيض ! . . حتى هنا فى المستشفى . . حتى وهى فى قمة الإعياء بعد الجراحة، لا يدعونها تستريح ! . . وسرح خاطرها برهة . . لكم غدت تمقت الحلة الصفراء، رغم كل ما يحمِّلونها فى دعاياتهم من معان وأمنيات ! . . ولكم غدت تحمل إلى قلبها من أطياف هَمّ وظلمة وتوجس ! . . وتغوص هذه الحلة الكريهة فى أعماق ما ضيها تحمل معنى واحدًا لا يتبدل ؛ تحمل معنى القهر الفاجر لأصحاب الحق الأصلاء ؛ لأصحاب هذا الوطن الحقيقيين ؛ الذين يحملون هويته الحقة ؛ الذين لم يخونوه أبدا ؛ الذين يدفعون حياتهم ونعيم عيشهم لينقذوه من خزى الدنيا والآخرة ؛ ليبدلوا واقعه المر بواقع عزة كريم ! . . تُقتّل أبناءهم وتستحيى نساءهم ! . . ثم تجرى هاربة كفئران هزيلة أمام العدو . . العدو الذى دمغه الله بالجبن والذلة والصغار منذ بعيد !

هنا . . منذ أيام قلائل، منذ أن رافقها أحد وحوشهم الذين استمدوا جبروتهم من تلك الحلة الكريهة، حتى أودعها هذه الحجرة

وانقلب عائدا . . هنا استراح قلبها قليلا واسترخت أعصابها حين غابت عن عينيها الحلة الصفراء ! . .

ورغم وجود هذا النفر الذى لاتعرف عدده خلف باب الحجرة المغلق ، فقد أغمضت قلبها عن لابسيها وحاولت أن تنساهم برهة من زمان ! . . ونعمت عيناها برؤية البشر واستراح قلبها ! . . وجوه إنسانية تبسم لها . . قلوب تهش فى وجهها . . نبرة صوت حانية كأنما تواسيها ! . . الممرضات يحملن الدواء . . العمال البسطاء ينظفون المكان ويحملون إليها الطعام . . نظراتهم توحى بأن وراءها قلبا . . كلماتهم القليلة الخفيضة النبرات تحمل نبض مودة . . رفق حنان . .

فى ذلك اليوم الأول حين أتت ، جاءها الطبيب الجراح . . وجهه الأبوى يشرق بأغوار مودة وعطف . . ربت على كتفها بحنان بالغ وقال : «لا تخافى يا بنتى . . إنها عملية بسيطة بإذن الله ، وستبلين منها سريعا» . . نزلت كلماته القليلة على روحها كقطرات الندى فوق أرض أدماها شواظ الجفاف ! . . وجاء طبيب التخدير يسألها الأسئلة الروتينية ، ولكن قسمات صوته كانت تحمل الكثير ! . . حين انفرد بها لحظات فى حجرة الجراحة فى اليوم التالى ، والممرضة تعد الأشياء فى الطرف الآخر من الحجرة الواسعة ، سألها هامسا : «أنت قريبة شهيدنا . . ؟» . . حين أجابته بأنها شقيقته ، اغرورقت عيناه بالدمع وتمتم : «لكم الله . . لسوف ينتقم لكم» ! . . يا ألله . . إن قلوبا هنا تعرف الله ما تزال ؛ قلوبا تحس بهم وتدرك ما يعانون فى سبيل حقهم ، وتنبض بالدمع معهم !

فجأة، داهم تسلسل أفكارها سؤال طفولى: ترى ماصلة القلب بالرداء؟!.. ترى هل يصوغ الكساء مشاعر الناس وأخلاقهم؟.. وإلا.. فكيف جمعت هذه الحلة الصفراء قلوبا قدت من صخر، ونفوسا تنفث حقدا بغير سبب، بغير ثمن، وأرواحا أغلقت الأبواب بينها وبين كل قطرة من ضياء؟!.. أتراها هكذا فى هذه البلاد وحدها؛ بلاد المستضعفين الذين فقدوا هويتهم.. فقدوا كل معنى لوجودهم وتاهوا فى هلاميات السبل؟!.. هذه البلاد المنكوبة التى كتبت عليها الشقوة فحكمها العسكر وأجهزوا عليها؟!.. وبأى الذنوب يا ترى يعاقب الله هذه البلاد فيلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض؟!.. فيسلط عليهم هذه القلوب التى قدت من أحجار الجحيم؟.. ولماذا يا ترى يرضى الناس ويرضخون، وينسحقون تحت أقدام وحوش الغاب؟.. لماذا ضاعت شجاعتهم.. كل شجاعتهم؟.. لماذا لا يحاولون أن يتحرروا من ذل الدنيا والآخرة؟!..

استلها من تساؤلاتها الثائرة صوت الباب يفتح من جديد.. دخل الطبيب ذو القامة الفارعة المدثرة بالحلة الصفراء.. تعرفه جيدا.. إنه طبيب العسكر. طبيب تلك الغابة السوداء!.. تعرفه.. تعرف أن مهمته الأولى هناك، فى ذلك العالم الأسود الذى انطوى فى طياته العالم أن يقف بجوار الضحية المعلقة فى المسلخ الرهيب، يقرر كم تستطيع أن تتحمل فلا تموت فى عرصات العذاب!

اضطربت لحظة؛ فهى لم تستطع الوقوف؛ وقد علمتها الشهور الطويلة فى تلك الغابة أن عليها أن تقف حين تبدو الحلة الصفراء أيّا كان متقمصها!.. قالت فى لهجة تجمع بين المرارة والسخرية:

ـ عفوا.. لا أستطيع الوقوف بسهولة!.. هذه أول مرة أغادر الفراش بعد العملية!

ـ لا عليك.. لا تنسى أننى طبيب.. وأننا لسنا هناك!.. كيف حالك الآن.. لعلك اليوم بخير..

ـ الحمد لله.. مَرَّ الجراح هذا الصباح أيضا.. وهو الذى أمر بالنزول من الفراش إلى المقعد.. كان ذلك بالغ الصعوبة..

ـ الصعوبة طبيعية فى أول مرة.. العملية كانت صعبة ولكنها مرت بسلام والحمد لله.. وعلى كل فكل شىء يسير سيرا طبيعيا بإذن الله.. «ماذا حدث؟! لكأنما هو يريد أن يخرج من أقفاصه الصفراء!.. ترى لو ذهب الطاغوت إلى الجحيم؛ ترى يخرج الوحوش من حلة الجبروت ويعودون بشرا؟.. لهم قلوب كقلوب البشر؟!..».

يصمت الطبيب برهة كأنما يستجمع أفكاره.. ينظر إليها مليا وكأنه ينظر إلى بعيد، إلى عالم آخر.. قال فى غير تركيز:

ـ هل يضايقك شىء هنا؟

ـ كلا.. الحمد لله.

ـ هـؤلاء الحـرس . . ألا يضـايقـونك فـى شىء؟ ألا يضـايقك وجودهـم هنا . . هذا الـوضع الشاذ بيـن نـزلاء المستـشفى ! . . لقد حـاولـت إقنـاع المسئـولين بـألا ضـرورة لهـم هنا . . ولـكنهم للأسف . . أصروا .

ـ لا يقلقنى كـثيرا وجودهـم . . والأكـثرية هنا عـرفت من خـلال الهـمس من أنا ولماذا هم هنا ! . . هم على كل يلتـزمـون بحـدود مهمتهم ! . . فقط حين طلب منى الطبيب اليوم أن أتمشى منذ الغد فى الردهة خـارج الحـجرة أنبـأته بأن هذا مـسـتحـيل ! . . فـذلك أولا ممنوع ! . . وثانيا لو سمح به فسوف يمشى ورائى وأمامى هذا الجيش ذهابا وإيابا ! . . وهى صورة غير معتادة سوف تزعج الجميع وخاصة المرضى . . على كل فذلك لا يهمنى كثيرا . . أستطيع أن أؤدى هذا الواجب داخل الحجرة !

ـ ولكن الهواء المفتوح فى الخارج مطلوب لسرعة الشفاء ، كذلك لاسترداد اللون الطبيعى . . لونك ممتقع بشدة . . واضح الذبول . . هل كتب الطبيب بعض المقويات . . الحديد خاصة؟

ضحكت ضحكة قصيرة خافتة . . قالت أن هذه أمور صغيرة . . لا تهم ! تمتم : بل تهم . . الطب قال إنها تهم !

يأخذها العجب : «كيف يجتمع القلبان فى جوف؟ !» .

سرح ببصره بعيدا كأنما يحادث أفكارا كثيرة تجول فى خاطره . . كأنما يريد أن يقول شيئا مهما ، ليس هو كل هذه الثرثرات . .

شجعتها نظراته التى حملت إلى قلبها مشاعر مبهمة لكنها أنيسة ؛ شجعتها على أن تقطع حبل الصمت وتواصل الحديث . . قالت :

ـ فى يوم العملية أصر هذا الجمع كله أن يتبع «الترلى» الذى يحملنى إلى حجرة العمليات ؛ كنت شبه مخدرة بعد أخذ الحقنة الممهدة للتخدير ! . . وأصروا جميعهم على الهبوط معى فى نفس المصعد حتى اكتظ بهم المكان ! . . ورجال المستشفى الذين ينقلوننى مبهوتون لهذا ومتجمدون من الرعب ! . . وقد ظللت أطمئنهم بابتسامة هادئة ولكن دون جدوى ! . . إن منظر «السلطة» له تاريخ فى أعماق حياة هذا الشعب !

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . . وهل سيقوى مريض نصف مخدر على الهرب ؟ ! . . ثم . . فإلى أين يكون الهرب ؟ !

ظللت وجهه ابتسامة مفعمة بالأسف . . وارتسمت على ملامحها بسمة ساخرة . . ولفهما الصمت !

قال وقد ملأت نبرة صوتة شجاعة مفاجئة رغم انخفاضها الشديد الذى كاد أن يجعلها همسا . . قال :

ـ اسمعى . . مجيئى إليك هنا بأمر رسمى ، وقد حضرت العملية أيضا مع الجراح بأمر رسمى ؛ وكان ذلك محرجا لى ، وقد يكون قد ضايق الجراح أيضا . . ولكنى لم أستطع أن أتخلف ولم يستطع هو طبعا أن يرفض ، فيكفيه أنه الوحيد الذى قبل أن يقوم بالعملية ! . . إنهم يشكون فى كل أحد وفى كل شىء ! . . وقد عرفوا كم هم

الأطباء الذين حاولت أسرتك أن تستدعيهم فرفضوا!.. وأنه هو الطبيب الوحيد من بينهم الذى رحب بالمهمة!.. وهذا بالنسبة إليهم يعنى الكثير.. ويعنى على كل حال أن الطبيب قد وضع فى القائمة السوداء ووضع تحت الرقابة!

سكت برهة ساد فيها صمت ثقيل ساخر؛ ثم عاود فى لهجة جدية وعزم كمن يريد أن يفضى بسر خطير:

ـ .. ولكنى فى الحقيقة أتيت لأنى أحببت أن آتى؛ وجدت أنها فرصة قد لا أستطيع تعويضها.. فإنى أريد أن أتحدث معك حديثا مهما وصريحا.. هذا الحديث طالما راودنى بعد تنفيذ الأحكام، ولكنى هناك لم أكن أملك أن أقول منه كلمة واحدة.. فهناك لا يمكن أن توجد لحظة واحدة خالية من الآخرين.. وأنت تعرفين ولا شك ما معنى وجود الآخرين!

طأطأ رأسه برهة كأنما يستجمع كل شجاعة لديه.. قال:

ـ أعترف لك بكل قلبى أنى أصبحت على يقين من أنكم على الحق!.. أنتم الذين على حق فى هذه المحنة الضارية!.. فى أول الطريق كنت ضدكم على خط مستقيم.. كنت مقتنعا تماما أنكم أنتم المعتدون حتى إنى كنت أحيانا أجد أنكم تستحقون ما تلاقون من العذاب!.. كنت أعجب لكم كيف استسغتم موقفكم هذا ضد نظام كان يمثل فى نظرى بطولة ووطنية افتقدناها فى عالمنا منذ بعيد، وضد رجال لم ينجب لنا مثلهم التاريخ!.. والحقيقة أن زوجتى كانت أصفى منى قلبا فكانت كثيرا ما تحذرنى من أن أشاركهم فيما

يفعلون بكم؛ كانت تقول لى بإحساسها الفطرى الصادق أن الله لهم بالمرصاد وسوف ينتقم منهم يوما؛ وكانت تستحلفنى ألا أقوم بأذى يرده الله على يوما فى أبنائى! . . تنهد بعمق كأنما يزيح من على صدره عبئًا ثقيلا ثم أردف . .

ـ والحق أن شيئا عجيبا فى داخلى كان يردنى عن إيذاء أى من ذلك الجمع الحاشد مهما قال فيما سموه اعترافات . . كنت أحاول بقدر ما أستطيع تخفيف وطأة العذاب؛ وكنت أحاول إبعاد دوراته حتى تندمل الجراح أو تكاد إلا فى القليل الذى لم يكن لى فيه حيلة! . . ثم . . فتح الله علىّ فهدانى إلى الحق . . تتبعت أقوالكم فى التحقيقات . . وعرفت بيقين الشاهد كيف أخذت الاعترافات . . ورأيت بعينى «المجزرة» التى تشيب من هولها القلوب . . وتتبعت الأحداث وما وراء الأحداث . . ثم . . فقد ناقشت كثيرا ذلك الرجل العملاق الذى فقدناه جميعا . . كان دائما هادئ السمت واثقا مما يقول . . كان يقابل ثوراتى . . وأحيانا قلة أدبى . . بسماحة مذهلة وبابتسامة مشفقة . . كان يقول لى : «إننى أقبل منك كل ما تقول وأظل أبادلك الحوار لأننا مكلفون منذ أن هدانا الله إلى الطريق المستقيم، أن نرفع الغشاوة عن أعين العباد . . أن نخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . . ذلك لأننا نحبهم ونحب لهم الخير فى الدنيا والآخرة . . هذا الخير الذى هدانا الله له وأذاقنا حلاوته واطمأنت به أرواحنا، وأنقذ الله به قلوبنا من الهم والضيق والحرج» . . كان يعيش فى زنزانته الضيقة كأنما هو يحيا فى ملكوت السماوات؛ كأنما يعيش فى الجنة! . . لم يكن

فقدان متاع هذه الدنيا بكامله يقلق قلبه أو يغير من ابتسامته السمحة ، وكأن عذابات الأرض كلها لاتعنيه ! . . أدهشني حقيقة ذلك ؛ ثم ذلك الثبات ! . . لم يكن وحده الذى أسرنى ثباته . . ولكن عددا من المعذبين غير قليل أيضا . . وهز قلبى حتى أعماقه موقف بعض أولئك الذين قضوا فى التعذيب . . أذهلنى صبرهم وهدوؤهم وإصرارهم . صفعت مشاعرى المتعلقة بأتفه أمور الدنيا الابتسامة الرحبة التى تلقوا بها الموت . . وجوههم وهم يستشرفون العالم الآخر أوحت إلى قلبى بأنهم لابد أن يكونوا على الحق ! . . قرأت فى ملامحهم أنهم سعداء . . بل مفعمو القلب بالسعادة ! . . رأيت إشراقا غريبا يفترش صفحة وجوههم وهم يغادرون هذا العالم ويستقبلون العالم الآخر ! . . فهل يمكن أن يكون العالم الآخر كله وهما كما يدّعون؟! . . ولماذا إذن أشرقت تلك الوجوه بسعادة مبهرة وهم يلفظون آخر أنفاسهم؟!

كانت عيناها مثقلتين بالدمع ؛ كانتا مفتوحتين من الدهشة كأنهما تحملقان فى معنى كل كلمة ؛ فى مخارج الكلمات ومقاطع الجمل . . كانت من قبل توقن فى أعماقها أن للحق قوة تنفذ إلى القلوب ؛ ولكن الباطل حين علا واستشرى وطوق الوجود ، طمر بطينه الثقيل كل معنى جميل ! . . كانت تستيقن ، حتى وهى فى عرصات العذاب بأنواعه التى لا يحْصيها القلب ، أنهم على الحق . . الحق كان فى كيانها . . فى أعماق قلبها يعيش ، ولكنها كانت تظن أن هذا الحق قد انمحى ودرس اسمه ورسمه خارج هذه الصومعة الدفينة فى أغوارها !

أذهلتها الكلمات تنبض بالحق . . بالصدق ! . . هل جاء الله بها إلى هنا ليحيا فى قلبها هذا الأمل الذى كاد أن يتوارى . . لتعلم أن الحق ما زال يحيا فى القلوب . . لتتعلم أن الحق هو نور من الله ، وأن نور الله لا يمكن أن تطفئه ظلمة مهما ادلهمت ! . . هل أتى بها الله إلى هنا ليخرجها من ظلمات اليأس إلى إشراقة الرجاء بعد كل الذى كان ! . . ليمد النور القدسى خيوطه فى قلبها الذى أنهكته الحرق . . يمدها إلى الأفق المشرق . . إلى المستقبل !

أحبت أن تقول شيئا يقطع الصمت ! . . أحبت أن تكافئ الإنسان الذى خرج من أعماق الوحش ! . . الحق الناصع الذى انبثق من هوة الباطل . . أحبت أن ترد الجميل إلى هذا الإنسان الذى سكب فى قلبها الذى يبسه الجفاف قطرات ندى ثرية ، وأنبت فى القحط وريقات ربيع خضراء . . بحثت عن الكلمات . . وأنى تعبر الكلمات . . ماذا تقول له مهما نمقت من كلمات . . قالت :

ـ الحمد لله . . ثم حارت الكلمات على شفتيها !

قال الرجل بعد لحظات تردد :

ـ لكن هناك سؤالاً ما يزال حائرا . . يملأ علىّ نفسى ويقض مضجعى . . فى بعض الليالى يحرمنى النوم حتى وقت متأخر من الليل . . تطلعت إليه تنتظر سؤاله . . قال وفى نبرته أسف دفين :

ـ لماذا لم ينصر الله الحق ؟ ! . . إذا كان هؤلاء هم جنده الذين يلاقون هذا كله فى سبيله فلماذا لم ينصرهم . . وهو يعلم

إخلاصهم . . لقد عرفت منهم كثيرين فى قمة الإخلاص والتقوى . وأعرف أن الرسول يقول إن الله ينصر المؤمنين بإخلاص رجل واحد منهم ! . . ولكن العكس تماما هو الذى حدث . . لقد مكَّن الله للظالمين من القمة ذاتها . . من القيادة المتفانية فى إخلاصها . . ترك للظلم الوحشى رقاب أصحاب الحق تسقط بأيديهم !

وساد صمت مفعم بالشجن . . انتشلت قلبها من بؤرة الحزن . . قالت وهى تغالب الدمع الذى يترقرق خلف الجفنين :

ـ صحيح . . الصورة الظاهرة هكذا . . هى تعطى هذا الانطباع . . ولكن الله ـ رغم ذلك كله ـ قد نصرنا !

فاجأته إجابتها ففغر فاه دهشةً وقال :

ـ أنت التى تقولين هذا ؟ ! . . كيف ؛ وقد أصابك ما أصابك !

ـ هذه هى الحقيقة رغم الآلام ؛ فكر معى فى الصورة المقابلة . . لو قبلنا المساومات الدنيئة الكثيرة التى عُرضت مرات بعد مرات ؛ آخرها كان ليلة التنفيذ ! . . ثم خرجنا بعد ذلك إلى بيوتنا ! . . لو داهنا فى الحق الذى نحمل رايته واستبدلناه ببعض متاع الأرض . . بل أكثر من هذا ، لو كوفئنا على سقوطنا ذلك . . والعدو كان مستعداً لمكافأتنا بالكثير ؛ لو فعلناها . . وقد تعرف أن البعض قد وعد بوزارة وهو على منصة العذاب لو قال ما يريدون ! . . ثم أصبحنا وأمسينا فإذا نحن من أصحاب السلطان ؛ نجنى ثمار خيانتنا لدعوة الله زبدا وعسلا ! . . هل كنا بذلك نكون قد انتصرنا ؟ !

سرح بصره إلى بعيد بعينين نصف مغمضتين . . هز رأسه رافضا ثم قال :

ـ كلا . . كلا والله . . بل كان ما حدث موقفا رائعا ؛ حين جابه الرجل الأعزل المهدد ذلك الإغراء بالرفض الكامل ؛ وسد بذلك كل باب للفتنة ! . . ولا أنسى أن ذلك الموقف قد كشف لكل من علم به كذب تلك الاتهامات والادعاءات التى ملئوا بها الساحة . . ولكن كل هذا لا ينفى أن الحدث كان محزنا والخسارة كانت فادحة !

ـ ولكنها الشهادة إن شاء الله . . وهى منحة من الله غالية . . وهى النصر المناسب لهذه الآونة فى معركة الحق والباطل !

ـ النصر المناسب؟ ! . . قد يكون ذلك حقا . . ولكنه نصر يقطر دما !

ـ هذا حق ! . . ولكن من قال إن السلامة الرخيصة هى النصر !

النصر الحقيقى هو دائما هكذا . . دائما يقطر دما . . يسقى نبتة الحق فتمرع . . تنمو تنمو . . تغطى ظلالها الخضراء صحراء وجود لافح !

العـــودة

حين سـمـعت صـوته يزأر خلف البـاب دق قلبـهـا دقـات عـاليـة مروعة، وغـاص جسـمـهـا المطروح فى الفراش؛ أحست به يتهـاوى، يهبط ويهبط كأنما يغور فى هوة!

لـم تتـوقع أن يجىء اليـوم؛ فـهى مـا تزال ترزح تحت الإعيـاء الذى خلفته العـمـلية الجراحـية، ولـم تكـمل الأسبوع . . كـانت تحلم بأسبوع آخـر فى هذا العـالـم المأنوس قـبل أن تعـود؛ خـاصـة وأن الدوار الحـاد يعتريهـا كلما حاولـت أن تغادر الفراش؛ فكيف سوف تستأنف العيش هناك فى عيش المشقة؟! ومن الذى سوف يتكفل هناك بخدمتها؟! . . وفى الأعـمـاق البعيدة كان يطل تساؤل فى حياء، لا تتركه يسفر، ولا تسـمح له أن يلج عالـم الأمنيات: «ترى هل تكون هذه النقلة، مـقدمـة لما هو أكبر؟! هذه النقلة التى لـم يكن متوقعـا أن يصرحوا بها حتى بعد تقرير الطبيب الذى يقرر خطورة الحالة؛ هل تكون مقدمة تمهد لخروج إلى عالـم الحياة خاصة وأن هناك جهات فى الخارج تهاجم هذا الوضع الشـاذ، الجـديد على المنطقـة كلهـا؛ وخـاصـة بعـد تلك الأحـكام الإجـرامـيـة التى نفـذت، وعـبرت مـصـادر العـدو عن فرحـتـهـا بهـا وتأييدها لها؟!

حين مر عليها الطبيب الآخر أمس لرفع خياطات الجرح، شكت إليه مستوى الدوار الذى يلم بها حتى لتكاد تقع على الأرض، كلما غادرت الفراش وحاولت أن تخطو خطوات داخل الحجرة؛ وحين لاحظ امتقاع لونها بصورة غير طبيعة، نصح لها بأن تخرج إلى الممر، ولو تستند إلى رفيقتها، فالممر يدخله الهواء النقى من النوافذ المفتوحة على الجانبين؛ أو تهبط إلى الحديقة ولو لدقائق معدودة كل يوم، حتى تسترد عافيتها!.. حين قالت له إن الحجرة هى المكان الوحيد المسموح لها به؛ وأنه ليس لها أن تتخطاه، حتى تحت هذه الحراسة المشددة التى تحيط بها ليل نهار؛ وحين أخبرته أنها منذ سنتين تعيش خلف الأبواب المغلقة ولا تتحرك إلا داخل الأمتار القليلة فى الزنزانة؛ كانت تريد أن تختبر وقع هذه الأخبار فى حس من يعيشون لاهين خارج السور!

كان رد فعل الطبيب عميقا.. صمت لحظات وبدا فى ملامحه تأثر مشوب بالخوف.. قال: «هذا سبب معقول لهذا الإعياء الواضح.. يا بنية.. ليس فى أيدينا شىء.. قواك الله..».

كانت الكلمات القليلة تلك، بكل ما تحمل من خوف وعجز؛ كقطرات ندى تتقاطر إلى أعماق صحراء جففها شواظ القيظ.. وقتها تناهت إلى غور قلبها فداحة المفارقة؛ بين عيش تحيط به هذه الظلال الندية، وبين ذلك الذى يمارسونه داخل تلك الأسوار فى دنيا الوحوش!.. فهنا قد يوجد نبض «الإنسان»؛ حتى وهو مغلول

الأيدى، يحمل على كتفيه أثقال الجبن والقهر والعجز! . . فهل تعود هكذا سريعا إلى دنيا الوحوش؟!

لحظات مضطربة مشتتة الفكر تلف وعيها . . ربما جاء الرجل الكريه، فقط ليداهم الحرس! . . ليرى هل يحكمون الأسر بما تقر به عين الأسياد؛ أم أنهم يتركون منفذاً لأنفاس تنطلق لحظة خارج جبروتهم! . . لكن من يدرى! . . فربما جاء يسأل عن صحتها بعد تلك الجراحة التى كانت بالفعل كبيرة! . . من يدرى! . . ففى أعماق الوحش تنبض أحيانا نبضة رحمة؛ نبضة إنسان!

لكن طرقة على الباب لم تمهلها تأمل؛ وقعت فى حسها كثقل البلاء؛ وأوقفت كل خاطر يجول! . . قال الرجل الغائر القسوة كالشيطان:

- هيا . . سترحلين اليوم!

- اليوم؟! . . فما زال الدوار عنيفا! وما زالت الجروح مفتوحة!

- أسبوع كامل من أجل عملية زائدة؟! لقد تركناك أكثر من اللازم! . . سأتركك ساعة أخرى تعدين نفسك وتجمعين أشياءك . . لقد صدرت التعليمات بالعودة!

ساعة؟! . . ماذا تصنع ساعة؟! . . الأمر كبير . . غائر . . يحتاج إلى الزمن! . . ليس أمر التغيير فى الأنفس بسيطا كما يظن أجلاف القلوب هؤلاء! . . ليست أزرارا تداس فتتحول الأنفس من النقيض إلى النقيض! . . كيف تجوب المعركة الكبرى فى أنحاء النفس وأغوار

القلب وحنايا المشاعر، وزوايا الكيان كله فى ساعة؟! . . كيف تغمد التطلعات التى نبضت فى الأغوار البعيدة حين لفحتها نسمات الحياة فأطلت برؤوسها من جديد؟! . . كيف؟! إلا أن تخوض المعركة الفاصلة مرة ثانية؛ حتى يرضخ القاصى والدانى؛ حتى يعود الكل إلى رحاب القناعة التى كانت قد استقرت وفرشت ظلالها؛ حتى يقنع الكل ويرضى بأمر الله لأنه أمر الله؛ حتى يزيل القلب الوسائط التى تمارس الإجرام فيهم والقهر فيصل إلى أعماق الحقائق؛ إلى أنهم لا يصيبهم إلا ما كتب الله لهم فتسكن القلوب وتهدأ الأرواح!

أسبوع واحد؛ لكنه كان كدهر فاصل! فصل بين عالمين؛ بين قرنين؛ بين عيشتين؛ واحدة هنا . . فى الوجود! . . وواحدة هناك عند أعتاب العدم . . بين الركام والصخر . . بين الشوك والدماء ومخلفات الحريق . . مخلفات الوجود الذاهب!

كيف زلزل لين هذه الأيام القلائل . . لحظاتها وساعاتها التى خلت من الشواط، عزيمة الروح؟! كيف سرت؛ كيف توغلت فى غفلة منها فى حنايا هذا الكيان . . المشغول بجرحه، المشغول بكل جراحه؛ المشغول بقضيته الكبرى؛ المتشبث بالحق الأعظم! . . كيف داست فوق ذلك الرصيد كله . . الرصيد الهائل من القناعة بكل ما كتب الله فى المسيرة، من التسليم، من الرضاء والإشراق . . ذلك الذخر الذى أينع خلال الشهور الطوال والأحداث الكبار؛ هنالك فى غور كل حنية حتى ساد واستقر . . حتى أشرقت به الروح ورضى به القلب، وهنئت به النفس، واستراحت إليه كل الحنايا؟!

من جديد تبدأ المعركة؟! . . من جديد ينشب الصراع؟! . . من جديد تجاهد ذلك الجهاد الأكبر . . تصارع اللهفة التى تطل! . . توقف النبض الذى لا يريد أن يسكن . . الذى لا بد له أن يسكن!

هنا . . كل شىء هنا قد ساهم . . كل شىء قد أيقظ اللهفة الغافية . . كل شىء قد حرك النبض الذى توارى . . كل شىء قد أيقظ الجذور التى قبعت وأنبتت براعم الوجود المتطلع إلى الحياة وراء زخم الواقع المغاير . . كل شىء قد أبرز المفارقة!

وجه الطبيب الذى أجرى الجراحة، المفعم بالسماحة؛ لهجته الرفيقة المحملة بأبوة حانية؛ الممرضة التى تسأل فى الصباح عن الحال، عن الصحة، عن راحة النوم؛ تلك التى ترتب الفراش باذلة جهدها ألا تمس موضع الجرح؛ هذه الأخرى التى تأتى بالطعام؛ الثالثة والرابعة التى تعطى الدواء والتى تنظف المكان؛ وكل واحد يمر . . يحيى، يسأل، يبسم . . كل صوت يترامى إلى القلب ودودا، مشفوعا بالدعاء الرقيق؛ كل وجه يلقى بسمة حب، يرفع شارة سلام، يحرك فى الأغوار جذورا جفت وغطاها قيظ القحط!

وجه واحد هنا ذكرها بالقحط هناك؛ وجه غطته كراهية لم تدرك فى المبدأ مصدرها؛ صوت رد إلى خيالها ذكريات ذلك العالم الفظ؛ أعاد إليها غلظته وانغلاقه وحقده! كان ذلك هو وجه «السستر»! . . لم تعرف جنسيتها، لكن من لهجتها، من لون بشرتها ومن ملابسها كانت تبدو هويتها! . . ترى لماذا اشتركت معهم، أو اشتركوا معها، فى نفس السمت؟! . . ترى هل يجمعها بهم دون قرار سابق، ذلك

الحقد الواغل لغطاء الرأس؟! . . لمسلك يكشف عن اتجاه معين فى الحياة! . . لقرار صلب صادق يفرض طريقه فى صمت كامل رغم الأشواك والدماء؟! . . أم أنها كانت تعرف قصتها كاملة؟!

حتى الحراس هنا، وهم مندوبو الطغيان الرسميون؛ هم نوع آخر غير الذى يعيش هناك! . . قلوبهم تنبض بفطرة العلاقة بين الإنسان والإنسان! . . وجوههم تفضى فى صمت بمودة؛ تعلن بغير طريق الكلمات شجبا للظلم المجرم! . . يعبر كل منهم، بالرغبة فى أن يقوم بأية خدمة، عن سلم فى أعماقه، عن أخوة فى قلبه، وعن مشاركة صامتة فى الهم الجاثم!

يجنح القلب . . وا أسفاه . . للين العيش رغم كل الدروس التى تلقيها أقدار الله فى طريق القلب المؤمن الذى وهب نفسه للحق الأكبر . . ليصلب! . . ليقاوم ما يفرضه عليه الباطل من حرب تطحن القوى وتفرى القلوب، فما أعمق ضعف البشر! . . لقد ظنت أن الطريق قد سُوِّى، وأن القلب قد استقام بغير رجعة! . ظنت أن ضراوة النار التى خاضتها، واصطلت حتى أعماقها فى ذراها؛ قد صهرت المعدن ونفت عنه كل شوائبه، ولم تُبق غير الذهب الخالص!

منذ ذلك الحدث العميق الغور فى حياتها، وقد تم للمجرمين تحقيق مراميهم والتنفيس عن أحقادهم، تعلمت الكثير من أسرار الطريق إلى الله! . . فبعد أن خاضت ألوان عذابات عام كامل! . . بعد أن تمزق القلب لهفة فى الدعاء، بعد كل التأرجح المزلزل بين الخوف والرجاء؛ وبعد أن جاءت أقدار الله، بنفاذ أمره فى اختيار شهدائه، تخوض بها

ذروة الحريق ؛ تعلمت كيف تمضى مع قدر الله إلى واحة الرضاء والصبر ! . . تعلمت أن لله ـ سبحانه ـ حكمة تجل أحيانا عن الفهم البشرى المحدود بحدود الواقع المنظور ؛ تعلمت كيف يكون الخير الكثير فيما يحسبه الإنسان المحدود شرا ؛ تعلمت أن تضع الدنيا والآخرة فى الميزان الحق فترى أى الكفتين تثقل وأيهما تطيش ! . . هنالك ترفع القلب عن التطلع اللاهف إلى خشاش الأرض ، وأشرق بالشوق إلى عيش رغيد هناك فى جنة عرضها السماوات والأرض ورضوان من الله أكبر !

حين استقامت الخطى على الطريق . . اللحظات والساعات ، والأيام والشهور . . حين صلب العود حتى ما عادت تميله العواصف الهوج . . وحين انتفى فى أعماق القلب الخوف إلا من الله ، وذاب كل الحرص ، وانمحى التذبذب فى ضراوة المعاناة ، واستيقن القلب أن اليد العليا بحكمتها الرحيمة ، هى التى تقود المسيرة فى كل درب ، وأنها تقودها فى طريق الخير رغم الأشواك والنيران . . حين ظنت أنها قد تخلصت من أوهاق هذا التراب ، وحلق الروح فى سعة الآفاق ووجدت البشاشة سبيلها إلى القلب . . حينها ظنت أنها سوف تمضى إلى نهاية الشوط بغير تأرجح ، بغير صراع ، بغير آلام كبار ! فالباطل ، الباسط أجنحته كالوحش الهائج لم يعد يستطيع أن ينال منها جديدا ! . . وماذا يملك الباطل منها غير دنياها . . وماذا يملك الباطل لقلب قد باع دنياه؟! . . لقد ملأ حديث سحرة فرعون أغوار القلب وآفاق الروح حين قالوا لفرعون : «فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذ الحياة الدنيا» !

رغم تلك المسيرة السامقة ها قد دارت المساجلات دون أن تحس ؛ فى غفلة من الوعى ؛ واليقظة تغطيها آلام جراح الجسد ، تحركت الجواذب للين العيش ، وللأمور الصغيرة التافهة التى كثيرا ما سمتها «خشاش الأرض» ! . . هذه الحجرة النظيفة الواسعة التى لا تصدم العينين ؛ تتناسق فيها الأبعاد والأشياء ترتاح إليها أغوار بعيدة لا تثنيها إرادة ؛ وهذا الحمام النظيف الميسر تغمره البهجة ، يبعث إلى القلب بإشعاعات راحة وأمل غامض ينشرح له الصدر دون أن تبزغ فى الرأس فكرة ! . . دون أن تحاول المقارنة يتبدى «هناك» أمام الخاطر . . هناك حيث تُصدم العين أينما ولت وينصدع القلب ! هناك ينطوى الحس حسيرا زاهدا فى كل عيش ! هناك تقارف النفس ألوان المشقات فى كل لحظة ! . . نعم . . لكن هل نسيت؟ ! . . هل نسيت أنه الجهاد؟ ! . . الجهاد الذى يرفع الدرجات ويحط الخطايا؟ ! . . لكم تجنح النفس إلى رغد العيش ! . . لكم يغلب الضعف العزائم ! ولكم تهفو القلوب إلى خشاش الأرض !

راعها أن يعود إلى القلب ذلك النبض ؛ راعها أن تعود ترجو وتأمل فى متاعات هذه الأرض ؛ أن تعود للنفس رغبات دنيا ؛ راعها أن يخلد القلب إلى الأرض ، إلى الأمن وإلى تطلعات الحياة ؛ أن يجفل من جديد خوفا لطول الشوط الباقى ووعورة الطريق ؛ لمسيرة الشوك وشظف العيش وذلك الحرمان القارس من نأمة للحياة قد يطول ، كما تنبىء ضراوة العاصفة ، إلى نهاية الحياة !

نظرت إلى أختها الصديقة التى سمحوا لها أن تقيم معها فترة الخطورة فى المستشفى ، على أن تظل سجينة الحجرة معها فى الليل

والنهار! . . كانت تجمع لها أشياءها المبعثرة وتعد لها حقيبتها من أجل الرحيل الموشك؛ وكانت عيناها تسح بالدمع فى صمت!

ـ يا حبيبتى . . تبكين؟! . . لماذا يا أختاه؟! . . ألسنا بعد فى أعماق المعركة؟! . . أليست هى معركة الحق الكبرى؟! . . أليست هى الجهاد فى سبيل الله فى أعلى قممه؟!

ـ نعم . . ولكن القلب قد طحنته الآلام التى يقفو بعضها بعضا! . . يطفر الدمع رغم أنف الصبر! . . لو تركونا حتى أسبوعا آخر! . . المفاجأة تقع على القلب كالصاعقة، تسلب منه الحياة؛ وكم من مفاجآت!

ـ بعد كل ذلك الذى حدث، يا صديقتى الحبيبة، يبدو هذا الأمر صغيرا! . . وقد كان متوقعا بين لحظة وأخرى . . فهم لم يأتوا بى هنا لأقيم! . . ولو لا أنهم لا يريدون فضائح جديدة لهم بعد الذى كان، لما سمحوا أبدا بهذا المجىء؛ فحياة أى من المؤمنين لا تساوى عندهم حفنة من تراب؛ بل هم يتمنون أن نموت جميعا فى ساعة واحدة! . . هل ننسى أن العقبة الكؤود التى بقيت أمامهم لتعبيد الشعوب وتسليسها لمطالب اليهود؛ لتسير السياسة فى خطها المرسوم؛ هى وجودنا؟! . . الطريق ما يزال طويلاً أمامنا يا حبيبتى! . . علينا أن تكون أنفاسنا أطول من حقدهم؛ ولسنا خاسرين شيئا إلا هذه الحياة الدنيا! . . على الحق أن يظل صلبا أمام الباطل وفوقه فلا ينهزم أمام جبروته!

ـ الآلام أعتى من الطاقة . . والتضحيات أكبر من احتمال القلب . . كيف يستمر الجهد فى الصمود . . إلى نهاية الحياة؟!

ـ ليكن إلى نهاية الحياة؛ فما هى هذه الحياة؟! . . ألم نقرأ معا قصة أصحاب الأخدود؟! . . الذى يهمنا ـ لأشخاصنا ـ هو ما بعد نهاية هذه الحياة! . . والذى يهمنا لدعوتنا هو ما بعدنا! . . فلن تزهر دعوة فى الأرض إلا أن تسقى بالتضحيات الكبار وبالدماء! . . إلا أن تسقى بحياة الرواد الذين يدفعون حياتهم لاكتساح ألغام الطريق! . . علينا يا حبيبتى أن نستمر . . آلامنا آلام أرض؛ وآلام أعدائنا آلام غضب الله؛ وما أهولها من آلام حين يحين وقتها! . . وقد قال السحرة لفرعون بعد أن عرفوا طريق الحق: «فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا» . . وهم لا يستطيعون لنا إلا أن يقضوا هذه الحياة الدنيا بإذن من الله! . . هل تعلمين أن هذه الآية هى التى ملأت قلبى حين كنت فى المحكمة وسمعت «الأحكام» تنطلق من فم ذلك الجبان الذى سلم من قبل سيناء للعدو؟! . . لقد جيء به ليرأس المحكمة التى تحاكم أئمة هذه الدعوة مكافأة له وتنكيلا بالمؤمنين؛ وليعلموا مَنْ حقا الذى يحاكمهم! والذى يحكمهم . . لقد ظللت وقتها أردد هذه الآيات وأنا أهبط السلم عائدة إلى قدر الله! ولم يمنعنى أن أعلنها فى وجوههم إلا هذا الحياء الذى يلجم لسانى أحيانا حين أحاط بالجموع! وقد أسفت وقتها على ذلك! . . أسفت لأننى لم أجبه تلك الوجوه التى شوهها الذل وسامها الخنوع والخسف، وهى تستأسد على المؤمنين العُزَّل!

من بين الدمع الذى يتكاثف . . تطلق عقاله الكلمات ووعورة المشهد وضراوة المسيرة ، قالت الأخت الصديقة :

ـ سأعد لك الحمام . . فهناك ستكون المشقة فوق قدرتك ! . . كيف سوف تقضين احتياجات العيش هناك وأنت بعد لا تقوين على مغادرة الفراش ؟ ! . . على الأقل لسوف يعينك هذا الحمام على قضاء فترة بغير احتياج إلى هذه المشقة وحدك هناك . . ربما وقتها تكونين قد استعدت بعض قوتك ! . .

ـ أخشى أن يجىء الوحش ونحن لم نكمل بعد!

ـ أقول له إنك فى الحمام . . إنك تستعدين ولكن ببطء ، بسبب هذا الضعف الواضح . . لا يملك إلا أن ينتظرك!

وحدها هى فى الحجرة لدقائق بعد أن ذهبت الرفيقة تعد الحمام . . تسترجع ذاكرتها ما قالته منذ لحظات . . ذلك الحديث الخصب ، المنتصب القامة ، الفاره الروح ، لمن كان يتوجه ؟ ! وممن كان يُوجّه ؟ ! . . تختلط فى حسها المواقع ! . . هى التى تقول ؟ ! . . لمن كانت تقول ؟ ! لنفسها أم لرفيقتها ؟ ! . . كلمات رفيقتها التى أتعبتها ضراوة المسيرة الحارقة ، أليست هى هى التى تدور وتدور فى داخلها ، وتنبش منذ لحظات قليله فى جنبات روحها ؟ ! . . الساحة تتداخل فى داخلها الأشياء وتختلط المواقع . . تلتصق الكلمات بالكلمات ، ويتلاقى الأضداد بالأضداد ! . . القوة بالضعف ، والطين بالأفق السامق ، واليأس بالرجاء ! . . أهو النفاق ؟ ! وهى تدعو الله دوما أن يقى قلبها مسارب النفاق ؟ ! . . أهو ذلك «الخائف» الذى يزعق فى

الظلمة بكلمات الشجاعة؛ بأنه لا يخاف؟! . . أهى الموجة الأعمق تتراءى عند الشدة، تحت الموجة المندفعة على السطح، الآيلة للتلاشى؟! . . أهى هى ذاتها تنشعب فى الخطين الضدين: خط يصعد إلى الأفق المضىء وخط ينحدر إلى مواقع الطين عند القاع فى ذات اللحظة؟! . . مَنْ هى، من هذين، على وجه التحديد؛ فكل منهما فى حسها صادق، أصيل! . . وأين هى بالضبط يا ترى على الساحة الدامية؟ ما هو موقفها والنيران ما تزال تتفجر من شتى البؤر؟!

فى الحمام، كانت بكل الضعف البادى فى كل حركة. . كانت تجاهد! تجاهد فى الجبهتين. . تعد نفسها للواقع المهاجم. . جبهة الجسد، بكل ضعفه، ما أهونها إذا قيست بالأخرى! . . الأخرى؟! . . ما أعمق البحر الذى غاصت فيه حتى كادت تلمس القرار دون أن تحس! . . أسبوع واحد! . . كيف تمت تلك المسيرة إلى «تحت» فى أسبوع واحد؟! . . كل شىء هنا ساهم فى تلك المسيرة؛ حتى هذا الحمام الناصع البياض، المجلو الرؤية، الميسر التعامل! . . حتى هذه الرفيقة الغائرة فى القلب؛ رفيقة الماضى الغائر فى زمن الطفولة السعيدة؛ المشرق بتفتح الصبا المزهر بأحلام الغد؛ كالتوأم كانتا معا؛ معا تعيشان، معا تنامان، معا تخرجان من الدار وتعودان؛ معا تحلمان بالمستقبل وتوشيان الحلم الباهر بالأمنيات! . .

حين طلب منها أن تختار أحدا من أسرتها ليرافقها أيام المستشفى طار قلبها فرحا واختارتها لتكون رفيقة الأيام القلائل هنا بعد فراق

طال! . ما أضعف القلب أمام وشائج لا تمحوها ضراوة النيران! . . وشائج الإنسان تهفو، تحن إلى اللقاء بالإنسان . . لكم قاومت نزوع القلب إلى تلك الوشائج طوال تلك الشهور التى انطوت، تغرقها كثافة الآلام وضرام الحريق! . . لكم حاولت أن تنزع من الأعماق ذلك الحنين إلى الأهل . . إلى السكن . إلى الحديث المفتوح يتنفس به بخار الكبت . . إلى السر يقال بغير تحرج، حتى ما يخطر فى القلب، حتى لحظات الضعف، حتى سقطات المشاعر! . . تلك الوشائج التى ذبحتها الوحدة المفردة بين أنياب العدو، وجففها فى أغوارها فحيح قيظ الصحارى . . فجأة وجدتها هنا حاضرة تلك الوشائج لا يفصلها عنها باب مغلق ولا رقيب يتسمع! . . فجأة وجدت معها «الأسرة»؛ واحدة منها، من عمقها . . فجأة بعد حرقة الشظف وضراوة الحريق وشواظ الوحدة . . تجدها معها ليلا ونهارا كأنما هناك فى أمن الدار! . . تقضيان معا الساعات لا يقطع بينهما عازل . . حتى الخوف من الحرس الرابض خلف الباب ليل نهار؛ حتى الخوف من وجود أجهزة تصنت داخل الحجرة، لم يقاوم الرغبة الواغلة اللاهفة للحديث . . للإفضاء بخبايا ما كان من أهوال؛ كالسيل تنزاح فجأة من أمامه السدود!

حكت لها الكثير الكثير من ذلك المختزن الذى ناءت بحمله الأغوار . حكت كيف كانت الليلة الأولى فى أدغال تلك الغابة، وفى ظلمة ذلك الجب حين ضمتها الزنزانة المفردة لأول مرة! . . حدثتها عن الأيام العشرة الأولى قبل التحقيق . . وكيف كان ذلك الذى يسمى بالتحقيق! . . حكت لها كيف تورم جسمها وتقرح حتى كانت

تقضى الليل واقفة على قدميها لا تطيق أن تلمس أجزاء جسدها الأرض! . . قصت عليها أحاديث الشهور الطوال فى الزنزانة المفردة كيف عانتها وكيف كانت ألوان المعاناة هى الطريق الواصل إلى أعماق الحق وإلى آفاق النور؛ . . حكت لها الكثير عن الوحدة مع الله وكيف ترتفع بالقلب إلى ما لا تبلغه علوم الدنيا ولا بهجة سعادات الأرض، وصفت لها ذلك الشعور بالأنس فى معية الله حين تنقطع كل الوشائج مع الأرض وتتمزق كل الحبال مع رغائب الطين!

حدثتها طويلا عن هذه التجربة الفائقة التى عاشتها عيش اللحظة تتلوها اللحظة؛ هذا الخليط المعجز من أعمق الآلام وأنصع السعادات. . كيف تلقت خبر استشهاد «رفعت». . كيف عانت هذا الحدث الهائل فى أعماقها وحدها حتى تهاوت صحتها فنقلوا إليها شقيقتها حين أشرفت على الموت، وكيف تدخلت يد الله ـ سبحانه ـ فأرسلت إليها، فيما يشبه المعجزة، ما يطفئ فى القلب أوار الحريق! . . قصت عليها كيف راقبت ساعة بعد ساعة، ويوما بعد يوم المؤامرة الفاجرة التى حاكوها تلف خيطا وراء خيط حول رقبة الشقيق، وكيف أدركت أن المؤامرة لم تكن تستهدف فى الأصل إلا إياه، ثم كل من يحمل عقيدته وفكره «الخطير»! . . نعم. . لقد سموه خطيرا لأنه الخطير على المنحى الذى تساق إليه البلاد؛ والذى يخسر به العدو حربه لهذا الدين! ويخسر اليهود به حلمهم المنشود! . . حكت لها كيف كان اللقاء المرير بالشقيق ليلة التنفيذ؛ وكيف عاشت الوحدة القاتلة فى بشاعة الحدث، بين موجات الصعود والهبوط. . الصعود

حتى تلمس آفاق السماء، والسقوط إلى حزن يغمر أعماق الروح! . .
ثم كيف استقام لها الأمر بعد ذلك الصراع! . . كيف استقر القلب على بيعة بين الشوك والصخر وشظف العيش . . وكيف علمها الله أن تسكت نزف الدماء فى أعماق الجروح! . . حدثتها عن معانى الآيات التى يمر عليها القلب فى دنياه فلا يعى منها إلا القليل، كيف كشفت آفاقها فى الروح تلك المسيرة العاتية، الصاعدة صوب النبع؛ حين يتلقى القلب ظلال الرحمة وأنس القرب . . حين يتطابق واقع العيش مع التنزيل! وتلتصق اللحظة الحاضرة باللحظة الواغلة فى أعماق التاريخ! حين يلتصق الروح بالقوة العظمى فيرى الباطل ضئيلا حسيرا وهو متدرع بأطنان الحديد والنار! حين تملأ القلب قوة الحق بالقرب؛ بالطاعة، فيواجه الطاغوت المستعلى بباطله بعزة لا تلين! . . حدثتها عن الهزيمة والنصر داخل القلب فى المسيرة الشاقة، وعن صنع الله للمؤمنين حين يخلصون، عن قرب رحمته، وعن أنس معيته التى لم تشهدها ناصعة وضاءة بمثل هذا وهى تحيا فى الأمن والرخاء تغمرها نعم الله؛ وهى تحلم بالمستقبل الناعم فى الظل الوريف ويمور قلبها بالأمنيات الكبار! . . حدثتها عن هذا اللون من السعادة التى لا تُنال إلا والأقدام تذرع الشوك؛ والقلب تنوشه النيران؛ والدماء تقطر فى جنبات الروح!

تكلمت كثيرا وسمعت كثيرا فى تلك الأيام القليلة التى أوشكت على الأفول! . . التحم الليل بالنهار ضنّا بالوقت على النوم الذى لم تسلما له مرة حتى يغلبهما! والتحم الماضى والحاضر وخف عواء

الفجوة الشاسعة التى حفرتها الأيام والأحداث وأثقلتها الوحشة؛ وتعانقت القلوب وتضامت المشاعر التى تشتتت حين ثار البركان.

كان ذلك العطاء كالغيث السخى يسقط منهمرا فوق جدب أرض صحرها الجفاف؛ لكن.. لكن كيف نفذ ـ رغم كل ذلك الندى الحى ـ خطو الوهن؟! وقد حسبت أنها سوف تزداد بالراحة قوة وبالتنفيس عن ذلك البخار المكتوم انطلاقا؟!.. من أى نقطة فى ذلك العطاء اللين بدأت مسيرة السباحة إلى أسفل؟!.. وهل برىّ القلوب التى أحرقها القيظ تبدأ مسيرة الجفاف؟!.. وهل بدفء الوشائج التى جمدها الصقيع تبدأ خيوط العودة من رحلة العزيمة؟!.. كالجسم يألف الفراش الوثير، يفقد القوة على احتمال قساوة الصخور!.. ألهذا قال الصحابى الجليل: «اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم»!.. نعم.. كانوا يعرفون لأنهم كانوا يمارسون! كانوا يعيشون حقائق الوجود، حقائق الصراع الحى بين الباطل والحق؛ كانوا يؤدون دورهم الحق فوق هذه الأرض منذ أن ابتعثهم الله ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عباد الله؛ ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام؛ ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة!.. كم بعدت المسيرة عن نقطة الانطلاق؛ وكم تاهت أقدام السائرين فى شعاب الظلام؛ وكم تفرقت بهم السبل!

دقات حادة على باب الحجرة تشد وعيها عائدا مسرعا من تشعبه؛ مهرولا من استغراقاته!.. كيف ستفعل الآن ولم تكمل بعد؟!. لم

تكن قد نسيت، فليس ذلك مما ينسى! ولكنها لم ترقب بدقة سير الزمن!.. كانت الدقات المخوفة تطرق قلبها كل لحظة؛ فيدفعها قلب واجف مفعم بالخوف والنفور!.. ولكن ها قد جاءت رغم كل شيء!.. ها هو صوت الأخت تحس هي رجفته يجاوبها نبض قلبها!

ـ نعم.. هي على وشك أن تكمل.. ترتدى ملابسها.. نعم، قد انهت جميع أشيائها واستعدت!

الغصة في الحلق لا تغادره!.. لكم تتسرب الشجاعة من بين الأصابع في مواجهة البطش!.. حين يداهم الإنسان.. فتك الوحوش وهو أعزل.. تسمع الباب يغلق بعد بضع كلمات يلوكها الرجل الرهيب لا تفهمها، وعلى باب الحمام تسمع طرقات رقيقة حانية، ويتناهى إليها صوت الأخت الصديقة مفعما بالأسى ينبئها بوصول الرجل وحلول الموعد!

ـ نعم يا حبيبتى.. لا تنزعجى.. ها أنذا أرتدى ملابسى، افتحى الباب وادخلى فأنا فى حاجة إلى عونك..

أفرغت كل ما تملك من ثبات وهدوء على حركتها الظاهرة وملامح وجهها، تواجه به وجه الرفيقة الممتقع، يقطر حزنا وقهرا.. قالت فى لهجة جاهدت أن تفرغها من التوتر:

ـ يا حبيبتى فلنتماسك! فنحن نواجه العدو، ونحن مثخنو الجراح! وهم يشمتون فى كل قطرة ألم تصيبنا!.. لقد مرت بنا مواقف

أصعب من هذا بكثير . . وقد ذكرت لى كيف عاملوكم بعد أن لم يبقوا فى البيت غيركم؛ كيف حاصروا البيت وجعلوا منه ثكنة تعيشون فيها معتقلين تحت سطوة جنودهم! . . وقد حكيت لى كيف أخرجوكم من المحكمة مطرودين أثناء المحاكمات من دون أهل المعتقلين جميعهم! . . وقد وصفت لى كيف تماسكتم وهم يبلغونكم بما حدث لرفعت؛ وكيف تلقيتم الحدث الأكبر، الأعمق جراحا . . فليكن ذلك لنا عند الله . . وهذا الذى نخوضه اليوم سوف نجده عند الله، إن شاء الله، بردا وطمأنينة . . فعلينا ألا يرى منا ذلك الوحش دموعا ولا موقفا حزينا! . . لسوف نلتقى يوما، إن إذن الله لنا به هنا . . وإلا فاللقاء هناك آثر وأحب!

حينما عاد من الطابق الأسفل حيث تقع إدارة المستشفى . . وحين أنهى تعليماته للحرس، كان كل شىء قد تهيأ للرحيل . . الأجسام والأشياء والوجوه . . وقد توارى ما يمور فى الداخل وراء طبقات وطبقات من صلابة المواجهة! . . قال:

ـ هيا . . فلقد تأخرنا عن الموعد المقرر . . أظنك قد شبعت من أختك هذه! . . حتى لا تدعوا أننا عاملناكم معاملة غير إنسانية! . . احملى حقيبتك واتبعينى!

ـ لا أستطيع حملها . . فالجرح ما يزال مفتوحا . . والألم شديد!

تردد هنيهة، ثم نادى أحد الحرس الذى جاء مسرعا فالتقط الحقيبة وخرج!

كان عليها أن تتبعهما مسرعة خلفهما، بقدر ما تمكنها خطواتها العاجزة البطيئة؛ وحتى يتبعها بقية الحرس ويحيطوا بها فى الطريق إلى السيارة التى تربض أمام باب المستشفى الخلفى! . . ولكن يدها التى قبضت على يد رفيقتها لسلام الوداع كانت قد تصلبت هناك وهى تتلقي وابل الدمع؛ وفى الحلق اختنقت الكلمات التى لا تملك القول، والأعين التى شرقت بالدموع لم تعد تحسن رؤية الطريق!

حين عاد أحد الحرس خطوات ليستحثها على إنهاء الموقف الصعب من أجل السير المحتوم، سمعته يغمغم: «حقكم عند الله . . يخلص لكم ربكم . . الله قادر على كل شىء» . . وحين استدارت لتسير كانت مجموعة صغيرة من ساكنى الحجرات المجاورة ومن الممرضات يرقبون المشهد وفى عيونهم تترقرق دموع، وعلى وجوههم تتخايل لمحة أسى عاجزة!

عند السيارة كان العملاق المارد، القاس القسمات يقف مكفهر الوجه غاضبا لتأخرها . . عاجلته بالرد قائلة إنها لم تستطع أن تسير أسرع من ذلك والألم ما يزال حادا، والجرح الكبير ما يزال جزء منه مفتوحا . . وكان عليهم أن يتركوها أسبوعا آخر حتى يندمل أو على الأقل يأخذوا برأى الطبيب! . . سكت الرجل وانفثأ غضبه! . . ما أبدع أن يواجه الحق الطغيان بشجاعة؛ حتى فى أصغر الأمور!

حين استقرت فى العربة، وجلس الرجلان فى مقعدى الأمام، انفصل تفكيرها تماما عنهما وعاد يتملى لحظة الوداع الأخير! . . ترى أين ذهبت الرفيقة الصديقة؟! أتراها ما تزال فى موقفها هناك أمام

الباب؟ . . هل تراهما سوف تلتقيان مرة ثانية ويجمع الله عيشهما وسط الجمع الذى أبقاه الحريق، قبل الرحيل الأخير؟! . . كم من اللحظات، كم من المواقف الحارقة سوف تبقى، تحفر أماكنها فى أعماق القلب فلا يمحوها الزمن؟! واحدة إثر واحدة تتبدل بها وجهة السهم فى عمق العمر: يثقل الذى مضى وينحسر الذى هو آت! هكذا تزحف الأعمار فى تيه الزمن! . . هكذا تثقل الأحمال وتتقلص مراعى الأمل وتتآكل المنى! . . لماذا لم تسألها عما ستفعل بعد الفراق؟! . . لكان لها الآن عيش معها ساعة من زمان تطيل بها أمد الحلم الذى كان! . . لكنها الآن تتوه منها فى شعاب المجهول، وينقطع حبل اللقاء!

السيارة تقطع بها الطريق مسرعة؛ وتقطع معه كل رابط بين ما كان وما سوف يكون؛ تمحو من العيش سفرا؛ تمحو كل نبضة من ذلك العالم المأنوس؛ فهناك، خلف السور الكبير يجتث العالم؛ ويتمحور الوجود فى الحوائط الأربع وأرض الأسفلت السوداء والطاقة فى أعلى الحائط والباب المسدود! . . كم يملك أن يحمل الإنسان من مظالم! . . لقد تقدم فحمل ما لم تستطع حمله السماوات والأرض والجبال! إنه كان ظلوما جهولا!

يهدئ السائق سرعة السير حين تخبرهم أنها تشعر بالجرح يتمزق! . . الطريق حافل بالمارة . . غريب المنظر على حسها، فمنذ متى لم تشهد الطريق فى النهار؟! . . الشمس الساطعة تبرز سمات

الأشياء والأشخاص . . تشد انتباهها ملامح الغادين والرائحين . .
يختلف الواحد عن الآخر تقريبا فى كل شىء : الزى ، اللون ،
الحجم ، المستوى ، البيئة والطبقة . . كأنهم خليط من الأجناس . .
لكن يا ألله ! . . ولكنهم يتفقون كلهم فى سمت واحد يميزهم عن
سكان العالم . . سمت الذل يصبغ الملامح ؛ الهم الثقيل يطأطئ
الرءوس ، ويأس واغل فى الأغوار يرتسم على صفحة الوجوه !
كأنهم كلهم يخرجون من أعماق آلة واحدة ويقفون تحت لافتة
واحدة . . لماذا هم هكذا ؟ ! . . لماذا وهم يتحركون هنا وهناك ، لا
تحدهم الجدران ! . . وفى آخر النهار تضمهم البيوت بين الآباء
والأبناء ! . . هل تراهم يعرفون حقيقة ما يحدث ثم لا يجدون ملجأ
أو طريقا ؟ ! . . أم تراه ذل القهر الواقع فوق رؤوس الجميع يغمر
الملامح فلا تغطيه الكلمات المنقوشة فى اللافتات ؟ !

تذكرت كلمات لوكيل أمن دولتهم قالها وهو يحقق معها ! . .
صحيح حقا ما قال ! . . قال إن «الناس» يسيرون بجوار الجدران خوفا
ورعبا ! . . قال يومها إن ذلك كله هم المسئولون عنه ! فالحاكم اضطر
لأن يبطش ، حتى لا يتطاول لسان فيقول «لا» كما قالوا هم ! . . فيا
عجبا لتفكير العبيد !

طافت بعينيها صورتها فى المرآة قبل الرحيل . . رغم الضعف
البادى ، رغم امتقاع اللون ، رغم الهزال الواضح والإعياء ورغم
الحزن الواغل فى الأعماق ، لا تحمل وجوههم سمت الذل ؛

رؤوسهم مرفوعة والقلب تطحنه الآلام؛ ملامحهم تعبر عن عزة لا يمحوها القهر! . . لماذا يقبل الناس الذل؟! الحرص على الحياة؟! . . وهم يرزحون تحت ثقلة الموت ويدفعون للذل أكثر مما يدفع طلاب العزة للعزة! . . كم منهم ضاع فى حروب الهزائم؟! كم أسرة نكبت من أجل الذل ما نكبوا هم من أجل العزة . . بل من أجل ما هو أكبر . . من أجل رضاء الله؟!

تذكرت ما قالته شقيقتها الكبرى حين جاءها خبر استشهاد ابنها الشاب الأثير لديها في التعذيب! قالت ما قالته المؤمنات فى أزمان النصر: «الحمد لله الذى قضى له بذلك فى ساحة شرف، ساحة دفاع عن دين الله، ولم يقض عليه، ولا عليهم أن يضيع فى ساحة حرب كافرة فى اليمن ولا فى ساحة خيانة!» . . كم من المكاسب هم قد جنوا بتلك الأشواك والنيران؛ وكم من الخسائر قد حققها هذا الشعب المسكين وهو يفترش القهر ويلتحف الذل؟!

كانت السيارة تهدئ من خطوها ثم ما تلبث أن تتوقف عن الدوران حين تنبهت من تأملاتها . . جابهتها البوابة الرهيبة الهائلة التى لم تلبث أن فتحت فكيها كفكى الضبع الأسود، يتبلع ما يدخل فى جوفه فلا يعود إلى الحياة!

رغم كل الأفكار الواعية، التى يخوض فيها عقلها طوال الطريق، وتغوص مرتاحة فى أعماق مشاعرها، ارتجف قلبها واكتنفت جسمها الواهن رعدة سرت من قمة الرأس إلى إخمص القدم! وقالت الأعماق البعيدة بغير كلمات: «ها قد عدنا إلى جوف

القبر! ها قد عدنا إلى أدغال الشوك.. إلى مدفن الحياة والأمنيات»!.. قالت: كلا.. فهنا حيث تمحى الخطايا وترفع الدرجات!.. هنا فضل الله الذى يؤتيه من يشاء! هنا تغرس البذرة الطيبة فى عمق الأرض، تنبت الشجرة السامقة ترويها الدماء والدموع، تظل مستقبلا يأتى حتما بإذن من الله فى أرض الله؛ كما أظلتها من قبل بذرة غرست هناك فى أرض الصحراء. صحراء كهذه كان قد طال عليها القحط، وجففها قيظ الضلال.

* * *

كانت السيارة تقطع الفراغ الواسع لتصل إلى المبنى الذى تقبع فيه زنزانتها؛ لسوف تجد عوضا كريما إن شاء الله؛ لسوف تستقبلها الأم الحبيبة التى تركتها هنا ومضت إلى رحلتها القصيرة، فهى لم تعد وحدها!.. ولسوف يعينها الله مولاها على أن تستأنف العيش بصبر ورضاء..

فتح الباب الأسود العملاق فانتفضت الأم من فراشها مفاجأة وعلى وجهها تختلط الفرحة بالأسى: يا بنيتى.. لقد تمنيت ألا تعودى إلى هنا مرة ثانية! ولكنك عدت مسرعة.. كيف حدث هذا؟!.. ضمتها بين ذراعيها والدموع تهطل، لا تدرى أهى دموع الفرحة أم دموع البكاء.. قالت:

ـ قطتك هذه لم تدخل الحجرة منذ غادرتها.. ولكنها جاءت تموء هذا الصباح.. وحين فتح الباب دخلت مسرعة، وظلت نائمة

فى فراشك حتى الآن! . . أليس ذلك عجيبا؟! هل أحست أنك تعودين اليوم؟!

قبل أن تكمل الكلمات كانت القطة تقفز على كتفها، تحيط رقبتها بذراعيها، وتمسح رأسها فى ذقنها وجنبات وجهها. . يا ألله. . سبحانك. . حتى فى بطن القبر تُنبت الحياة بالحب، وتنزل الغيث وتنشر الرى وتسقط قطرات الندى!

خمائل حب فى غابات الحقد

فى طريقها من المبنى الذى تقع فيه زنزانتها إلى المبنى الآخر حيث تقع دورة المياه، وهى تقطع الفضاء الذى يفصل بينهما، لقيتها. . فاجأها وجودها فى هذا المكان، فالمكان على سعته ورغم تعدد أبنيته مفصول تماما عن العالم الخارجى؛ وهى لم تعهد فيه، منذ جىء بها إليه، إلا هذه الحلة الصفراء تدثر خلقا، لولا العدد الهائل منه يتحرك أمام العينين، لظنته واحدا لا يتغير! . . وفى شهورها الأولى هنا لم تستطع أن تميز بين واحد وآخر؛ فليس هناك فى الحقيقة آخر! . . السمت الممحو، والوجه الذى لا يحمل وجوده، يُعَبّأ به فراغ هذا السجن المترامى الأطراف. . قالوا إنهم جزء من جيش الدفاع عن هذا الوطن منتدب إلى هذا المكان لتأديب المتمردين! . . أهذا جيش؟! . . جيش وطن يجابه العدو المتمرس بالدهاء؟! . . المجبول على اللؤم والخيانة. . ذلك الذى غدا يسوق العالم «المتحصن بالذكاء والعلم» إلى الهاوية! . . عندها عرفت أحد أسباب الهزائم! . . كان ذلك فى قلبها كطعم العلقم! . . ولكن مر الزمن وألفت رؤية الغثاء، ومسحت العادة على ذلك العلقم فأحالته بلا طعم كما تفعل دوما!

بجوار الجدار الذى يسوِّر الفضاء رمقتها تقف، ملامحها متوجسة مذعورة تترقب كل حركة وكل نظرة. . نظرت إليها بود، بحب تحمله

دوما لهذه المخلوقات الأنيسة فالتقت النظرات . . ذهبت هى إلى غايتها فى المبنى الآخر ، فليس مسموحا لها أن تتوقف كثيرا وهى تقطع الفضاء!

هناك ، كانت تفكر فيها . . ترى هل تفكر فيها هى الأخرى! . . فاجأتها هذه الأفكار الطفولية ؛ أفبعد هذا اللهب المستعر الذى تخوض فيه ؛ أو بعد الأحداث العظام التى تنضج الفج على عجل ؛ التى تحرق الأخضر واليابس ؛ تظل هذه الأمنيات الطفلة تطل برأسها من مكمنها البعيد! . . فهى تذكر جيدا أنها فى تلك الطفولة البعيدة كانت تحب هذه المخلوقات اللطيفة بشغف مجنون!

أثناء العودة وجدتها ما تزال فى مكانها . . فى الطريق ولت شطرها بضع خطوات مدفوعة برغبة لا تقاوم ؛ ولكن الأخرى جرت لتختبئ فى مكان آخر ؛ وسارت هى إلى الداخل ، فليس لها أن تتوقف أكثر من ذلك والأعين المتسلطة تراقب!

فى الداخل ، بعد أن يغلق خلفها الباب وتسمع صوت المزلاج يتمم الإقفال ، يوثق القطيعة بين فراغ الزنزانة الصامت وبين العالم ، تطم الوحشة ؛ تتجسم الوحدة وتتفاقم ؛ تتوالد فى النفس بالعشرات! . . ألفتها منذ بعيد هذه الوحدة . . نعم . . منذ متى؟ . . لا تحصى الأيام . . فلقد تاهت الأعداد حين فقد الزمن ملامحه . . لم يعد الحس قادراً على أن يلاحقه أو يستوعبه! . . ولكنها تذكر آخر مرة جمعها عيشها مع مخلوق حى . . آخر مرة تلقي قلبها المتعطش إلى ندى العاطفة قطرات حب! . . كانت تلك هى شقيقتها . . ألصق أفراد

أسرتها بها؛ وكان ذلك في آخر ساعات قضتها معها في زنزانتها تلك، في ذلك السرداب الرعيب قبل أن يعفيها الله منه. . كانت الشقيقة تبكي. . ما تزال الصورة محفورة في القلب حتى الأعماق. . تبكي لهذا الخروج القهري الذي فرض عليها فرضا ولم تُقبل منها كل توسلاتها لتبقى معها؛ كانت تبكي لذلك الفراق الذي لا تدرى هل يكون بعده لقاء، أم أنه الفراق القاصم؛ كانت تبكي هذه اللوحة المغرقة في الوحشة والعذاب، الطافحة بالألم والرعب التي سوف تتركها لها وحدها وتخرج هي إلى حياة وأمن، أيا كان لون تلك الحياة ولون ذلك الأمن! . . وكانت هي صامتة، متحجرة الدمع، يعتمل في أغوار قلبها الضدان! . . هذان اللذان كتب عليها أن تعانيهما معا لاينفصلان أبدا! . . فرحة بالنجاة! . . نجاة أثيرة حبيبة، غائرة في أعماق وجودها وخلايا عمرها، تعاني في هذا القفر الموحش منذ شهور؛ ولوعة الأسى لوحدة في الأتون وتفرد في العذاب، وصمت موحش يغمر آفاق الكون!

الموقف ما يزال محفورا في أعصابها، في عمق كيانها؛ وكم في هذه الرحلة الموغلة في اللظى من مواقف قد حفرت في القلب بأظافر اللهيب وغاصت فيه حتى أغواره؛ فسبحان الذي أوسع هذه المضغة حتى تضم الوجود!

يومها. . حين أغلق الباب يفصل مزلاجه بينها وبين الوجود بأسره؛ . . بينها وبين ألصق إنسان بوجودها. . بينها وبين نبضة الحب الوحيدة التي كانت تبقت في عالمها من دنيا البشر. . حينها انفصل وجودها عن كل وشيجة مع الوجود الحي.

تذكر . . لا تستطيع أن تنسى ، ولا يستطيع لهب الأحداث بفظاظتها كلها التى مرت بعد ذلك أن يطمس حركة تحركتها أو خاطرة مرت صامتة فى قلبها ثم انطوت ولم تفصح عنها فى ذلك اليوم العصيب! . . كانت تقف على مقربة من ذلك الباب المغلق الواقف دوما كالمارد ، حيث ساقتها قدماها مع شقيقتها الذاهبة إلى عالم ما وراء الباب الأسود الذى يطارد كالوحش الرابض كل وجود حى! . . تذكر كم ظلت هناك واقفة كأنما كل شيء فيها قد فارق الحياة . . ظلت فى نفس الموضع زمنا يأبى كل شيء فيها أن تتحرك ؛ تدافع الزمن أن يتحرك ويطوى فى غبار أقدامه آخر لحظة للقاء . . حرارة التصاق الجسدين المتعانقين للوداع لم تبرد ؛ ولكن القلب كان ينفث فى الكيان كله برودة قاتلة ، تحيله صحراء قاحلة غطتها الثلوج! . . زمنا كان لا تدرى مداه ؛ فمداه لا يحسب بالدقائق والساعات ولكن يحسب بما تحسب به اللحظة الفاصلة الهائلة بين الحياة والموت! . . ثم . . ثم تدخلت رحمة الله فانسابت الدموع غزيرة غزيرة ، حارة تذيب صحراء الثلوج!

وهناك على أحد الجدران وقعت عيناها على منشفة شقيقتها وقد نسيتها معلقة فى مسمار هناك . . لا تنسى تلك اللحظة قط! . . يستعيدها القلب حين تمر بالخاطر بكل لهيبها ؛ بكل حنينها وحنانها ؛ بكل أعماق لهفاتها . . هناك انكفأت عليها تحتضنها ؛ توثقها تقبيلا وضما ؛ استرواحا وأنسا وحرقة ودمعا! . . بقية باقية لديها من ذلك الكائن الحبيب ؛ بقية من الحياة حين تسلب من القلب الحياة ؛ بقية من نبض القلب بندى الحب ؛ بقية من حرارة الحب بين قلبين حين تغطى

ثلوج البغضاء آفاق العيش! . . كم من الأيام مضت وهى معلقة هناك فى مكانها لا تملك أن ترفعها أو تخفيها؟! لا تملك أن تفقدها ولا يتحمل القلب أن يراها؛ فتغمض عنها العينين ذاهبة آيبة حتى لا يندلع الأسى المحتجز وراء تحجر الدمع؛ حتى لا يوغل لذع الوحشة فى القلب المفرد فيجتاح برد الصبر والرضاء . . ثم مسحت الرحمة الربانية على لذع الحرق، وتمشت رحمة سير الزمن تبرد اللهب، وتوارى كل واقع، وتنسرب به إلى مكامن الذكر حتى يندى ويلطف . . ثم . . ثم قبعت الذكرى مع مئات أخر وضمها القلب بين الحنايا!

فجأة تداهمها نظرة العينين الودودتين إليها هذا الصباح؛ لكم يحن قلبها إلى لحظة ود صاف . . أن يتبادل قلب حى مع قلب حى ساعة سلام ولحظات حب! . . تذكرت تلك القطة الصغيرة التى جاءت قبل شهور تموء خلف الباب المغلق فى زنزانتها فى الجب هناك؛ ساعة هزت قلبها وأطلقت فى قلبها الحنين الغامض إلى الحياة، إلى العش وإلى الحب . . ثم انطلقت حين فتح باب السرداب الكبير إلى الخارج ولم تعد! . . ترى هل تكون هذه هى تلك؟! . . فى تلك الأيام كان الصوت الذى سمعته صوت طفلة . . كانت قطة صغيرة ما تزال؛ وقد مضت الشهور، فها هى مكتملة فى ريعان العمر الجميل . . تذكرت قطتها التى تركتها هناك فى البيت الكبير ومضت . . ترى كيف تعيش الآن؟! أتراها حزنت عليها فى هذا الغياب الطويل؟! . . ولكن ما أبعد الشبه بين هذه وتلك . . فى كل شىء اختلاف؛ فى اللون، فى الملامح وفى نظرة العينين . . سبحان الذى جعل هذا الغنى الواسع فى

كل شىء، حتى فى أفراد الجنس الواحد، فحتى هذه المخلوقات البسيطة القدر يختلف فيها سمت عن سمت، وملامح عن ملامح، وسمات عمر عن سمات عمر آخر . . تنضح وجوه بمودة وتطفح أخرى بشراسة لا تلطفها لمحة ود . . فما بال الأنفار هنا تصدق فى وصفهم الكلمة؛ فيتوحد السمت ويكاد ينتفى الاختلاف . . ترتسم على الوجوه شراسة لا تنبئ أن بالداخل قلبا؛ وتنطمس ملامح تشى بأن الرأس خواء؛ وتتكافأ السمات وتتشابه الشيات كأنما أخرجتها آلة واحدة تدفع بالأعداد منها فى كل دفعة!

تتذكر بعض ما كانت تقرأ عن جيوش المسلمين . . كل جندى كان فردا يحمل سمته، كيانه المتخصص، ملامح عقله وقلبه! . . كان معرفة لانكرة؛ كان قصة متفردة أحيانا . . قصة تحكى ويحفظها التاريخ! . . لذلك دفع الحق الباطل فى ذلك الزمان المضىء فإذا هو زاهق . . ولهذا نحن نعيش فى بطن الحوت! . . تقبع أوطاننا تحت حذاء الأرض السفلى! . . ما أثقل المهمة الملقاء على أكتاف الحفنة المؤمنة فى هذا البحر اللاجب من الجحود! . . فى عام كامل لم يتحول إلا بعض «الأنفار» إلى أشخاص! . . ترى كم تحتاج جموع «الأنفار» . . وجموع الناس، وا أسفاه؛ قد غدت أنفارا فى عهد السوط؛ إلامن رحم الله! . . كم تحتاج من الوقت تراها حتى تتحول جيشا يحمى ويذود، يستنقذ الحق لأرض الحق؟! . . تتذكر ما سمعت مرات من أشخاص كانوا فى الماضى رفاقا للطاغوت، قالوا إنه كان يقول لخاصته إنه حين يكون بيده الأمر، لسوف يحول كل الشعب إلى « . . . »، يدوس على زر يتحرك؛ ويدوس على آخر

يسكن! . . لقد صدق الدكتاتور لمرة ووفى بوعده! . . يا للمأساة . . فكيف تعود «الأشياء» إلى «أشخاص» ؛ كل يسكن ذاته؟! . . كل يبرز فيه وجوده ، حتى يمكن تحقيق الحلم الأكبر ، فنعيد إلى دنيانا ذلك الجيل الأول! . . تلك الأجيال العظمى التى كتبت أنصع صفحات التاريخ؟!

* * *

حين خرجت آخر مرة فى روتين ذلك اليوم قبل النوم ، بحثت عيناها عنها . . طافت بهما فى كل الأركان ، لكن لم تلق لها أثرا . . ظلال أمل غامض . . شعاع كنور القمر الناعم انطفأ فى داخلها! . . عجبا! . . هل يمكن لهذا القلب الذى تتكاثف فيه هموم العالم ، ويخوض قضاياه الكبرى ، أن يحفل بهذا الحدث العابر؟! . . أن يتعلق بأمنية كأمنيات الأطفال ويداوم التفكير بهذا المخلوق الصغير المحدود الدور في هذا العالم المتلاطم ، هذا الذى قذفته الأنواء كما قذفتهم فى أدغال وحوش الغابة؟! . . لكن حنينا يأتى من غور يقبع في القعر يقول : «يا ليت القطة تأتى فتساكنها وحدتها وتقاسمها هذا العيش الموحش ، وتملأ فى الروح الذى جففه القحط فراغ الجوعة للرفقة! . . تنفث فى جفاء فراغ الزنزانة قطرة حب»!

فى اليوم الثانى والثالث والرابع لم تأت! . . ضمر الحلم الطفولى ثم توارى ؛ سقط خلف القاع كما تسقط كل أحلام العيش . . سقط من السطح المرئى إلى القعر البعيد وترك مكانه فقاعات ظلام انضمت إلى ظلمات الواقع . . ثم تناستها وتواتر عيش الوحدة بجبال أثقاله!

فى إحدى رحلات يوم . . لقيتها ! . . يا للفرحة ! . . وقفت قدماها برهة دون تدبر رغم مراقبة الأعين . . نادتها ، لكنها لم تلتفت . . تنبهت فجأة أنها لا تعرف لها اسما على الرغم من أن أحلام عيشها قد عرفتها ! . . وهل كان من الممكن أن يكون لها اسم فى هذا القفر؟ ! وهل يمكن أن يوجد فى هذه الأحراش من يرقى حسه ليسمى مخلوقا لا وزن له ، فى عالم يفقد فيه الإنسان الكامل اسمه؟ !

كان يهز روحها إعجاب غامض وهى تقرأ فى سيرة رسول الله ، ﷺ ، أنه كان يسمى أشياءه . . كانت تستشرف فى هذا الأمر على صغره ، صفة الإنسان العلوى ، وملامح الإنسان فى ذروة الحضارة ! . . هنا عرفت لمَ كان ذلك يبهرها ويهز فيها أعماق القلب . . هنا فى عالم هذا الغاب السفلى أدركت كيف إذ ينحط العالم يفقد الإنسان سماته . . يصير شيئا أورقما ؛ وفى الغاب تنكَّر كل المخلوقات حتى الإنسان !

حين وطئت قدماها الممشى عائدة وجدتها تتبعها ؛ انتشت مشاعرها بفرحة غريرة أعادت إليها خفة عهد طفولتها ! . . انحنت عليها . . داعبتها . . حاولت أن تحملها . . تمنت لو تتبعها حتى داخل زنزانتها ؛ لكن القطة توقفت عند الباب المجاور الذى لا يغلقه المزلاج ، عالجته بأصابعها حتى أنفتح قليلا وانسربت إلى الداخل ! . . عجبا لها ! . . لماذا اختارت من بين الجمع الصاخب هذا الرجل الصالح ، «والأنفار» يطاردونها فلا تثبت لأحد حتى يلمسها ؛ يحاولون تقديم طعام لها فتجرى هاربة ! . . هل تدرك تلك المخلوقات

معنى الإنسانية فى الإنسان؟ ! . . فما بال إنسان هذا العالم قد ضل طريقه . . غابت فيه الفطنة حتى أغوار الفطرة؟ ! . . يعجزها أن تدرك كيف تكوَّن في هذا العصر قطيع البشر هذا ! . . من صاغ له دنياه وصاغ كيانه ! . . من أخرجه فى صورته الشوهاء هذه إلى الدنيا ؛ وليس كذلك خلق الله الذى أحسن كل شىء خلقه . . قطيع هائل العدد غطى وجه الأرض ؛ حتى قبع الإنسان الحق كسيرا فى ركن معزول يحرقه لفح عذابات الأرض ، وتسحقه الغربة !

فى أعماق القلب المفرد فى الغربة ، وفى غمار أفكار وقضايا تغمر ساحات النفس ، تهفو الجوعة وتلح الأمنية الطفلة لنداوة هذه الرفقة ! . . لنظافتها وبراءتها فى هذا الجو الموبوء ! . . وتمضي الأيام ، وتتواتر اللقاءات ، وتنمو بين القلبين صداقة ومحبة ! . . تتبعها ذاهبة آيبة فى كل مرة تقطع الفراغ بين المبنيين . . تنتظرها هناك ؛ تجرى فى إثرها وتداعب قدميها ؛ تلمسها فى رفق بالكف الناعم دون أظافر ! . . يا سبحان الله ؛ تعرف كيف تحب ؛ كيف تداعب ، كيف تقلص أظافرها خشية أن تخدش ! . . يا ألله ؛ من علم قلب هذا المخلوق الجاهل معنى الحب ! . . ولماذا عجزت آلاف قلوب بشرية عن نبض الإنسان ! . . كيف امتلأت حقدا حتى فاضت ! . . حتى أنشبت فى قسوة أظافر بغض أسود فى شغاف قلوب بيضاء لم تبغ غير الخير ، ولم يدفع خطواتها غير الحب ! . . كالوحش الكاسر تفتك دون ضرورة ، دون خصومة دون إدانة ؛ حتى دون محاولة دفاع ! . . هل يمكن أن يهبط درك الإنسان فلا يلحق حتى بالحيوان الأعجم؟ !

فى وحدتها فى الزنزانة تفكر فى قطتها؛ تتخيلها معها؛ تتخفف بها من وحشة وحدة دنياها! . . تنتظر لحظات الخروج إلى المبنى الآخر حتى تلقاها! . . مرة أو مرات حملتها بين ذراعيها؛ مرات أخرى حملت لها معها بعض الطعام؛ سمتها اسما حفظته بعد فترة؛ نادتها به فأجابت . . نبضت فى جو العيش الهامد قطرات حياة تغذوها تلك اللحظات العجلى!

فى يوم تبعتها حتى باب الزنزانة . . دخلت . . جالت لحظات فى الأرجاء تشمشم . . أعطتها هى ما كانت تحرص أن تبقيه لديها من طعام للغد . . أكلت بشهية . . شكرت تتمسح فى الأرجل، في الوجه وفى الرأس وفى الرقبة . . قفزت إلى الفراش فى الركن الآخر واستغرقت فى النوم، وسمت طمأنينة يرتسم على الوجه النائم! . . طفقت ترمقها بحنان وبفرحة؛ ها قد تحقق حلم طفلى بقى يوصوص فى القلب رغم سياج النيران يطوق آفاق العيش! . . مسحت بيديها شعرها الرمادى الناعم فردت الحنان بنظرات مفعمة بالود! . . يا ألله، ما أجمل أن يتعامل القلب مع القلب بحب صاف؛ أسعد ما فى عيش الدنيا لحظة حب صفت من أدران الحقد! . . من أجل ذلك كان إنسان الجنة منزوع الغل من الصدر!

تركتها تحتل فراشها وهو سبيل راحتها الأوحد؛ لم تزعجها وهى نائمة ذلك الوقت الطويل؛ تمشت غادية رائحة فى الأمتار المعدودة، مصحفها فى يدها تحفظ آيات الله والقلب مفعم له بالشكر، طافر

بالامتنان، توارت الوحشة من جنبات الزنزانة، وطارد صوت الهرير المطمئن أصداء الصمت! . . ترى تبقى معها حتى المساء . . ترى تبقى تؤنس وحشة الليل الطويل الصامت وأشباح الخوف؟!

أيام انقضت وأسابيع . . الحب يتوطد بين القلبين . . الألفة تربط بينهما ساعات اليوم فى الصحو وفى النوم . . حتى فى النوم تجدها عند قدميها ترقد باطمئنان . . الطعام لم يعد مفردا كئيبًا، الآنية الثانية أخذت مكانها فى العين وفى القلب! . . لكن هاجسا من الخوف يطوف بالقلب من آن لآخر، فلكم تأسى لقلب يألف ويحب ويتعلق فى دنيا تتحرك باستمرار، تخلى كل مكان ملأته من قبل حياة!

فى يوم خرجت رفيقتها ككل صباح . . غابت . . انتظرتها فلم تعد فى موعدها كعادتها . . أفطرت وحدها والقلق يملأ النفس! . . جاء وقت الغداء . . وحدها ما تزال، الإناء الفارغ أمامها يملأ القلب بالأسى والقلق . . لاكت الطعام دون شهية ودون إحساس بطعمه، والقلب واجف والأذن مشدودة إلى ما خلف الباب المغلق ترهف السمع لصوت المواء الذى أضحى فى القلب حبيبا وفى العيش أنيسا . . لكن الوقت يمضى . . النهار يرحل ويحل المساء، لا صوت ولا طيف . . أين ذهبت رفيقة الوحدة الكالحة وتركتها؟!

أيام ثلاثة انطوت تبحث عنها فيما تملك بغير جدوى؛ لاتفتأ تفكر فيها؛ لا يهدأ لها خاطر . . فى اليوم الرابع مر عليها واحد من القلائل الذين مس قلوبهم ندى الإيمان فغدوا أصدقاء للمؤمنين بعد عداء قديم

قارس فاستغاثت به؛ أفضت إليه بالأمر وبمخاوفها، فلقد سمعت بعضهم يتوعد القطة المسكينة لما نفرت منه وهو يحاول أن يمسك بها.. أقسم ليبحثن الأمر بنفسه، وليعيدنها إليها..

فى إحدى الزنازين الفارغة وجدها ملقاة على الأرض بغير طعام ولا شراب؛ حبسها هناك شقى من أشقيائهم بتهمة العمل مع «الخونة» ضد مصلحة الوطن!.. قال إنها تنقل الرسائل بينها وبين الجار الصالح!.. قال: «إذا لم يكن ذلك كذلك فلماذا لا تقبل أن تذهب إلى غير هذين النزيلين؛ تخرج من هنا لتدخل إلى هناك»؟!.. عجبت كيف أمكن حشو عقول هذا القطيع باللامعقول فيصدقوا ويؤمنوا!.. وكيف أمكن حشو قلوب آدمية بهذا الشر الوحشى حتى يفعل ما يتعفف منه الوحش؛ ويصفو ويرق ويمتلئ مودة قلب الحيوان.. حار قلبها بأى مقياس تقيس!

جاءها بها محمولة بين يديه.. ألقت بنفسها إليها تتمسح فى الوجه وفى الرأس وتمرغ وجهها فى رقبتها كالمشتاق الواله رغم الضعف البادى، ولون الشعر الباهت يعفره التراب، والفخذ المكسور تزحف به زحفا، وآلام الجراح!

حملتها إلى الفراش.. أطعمتها وسقتها وهى في مكانها لا تملك حركة؛ ومن خلال الأصدقاء القليلين حصلت لها على المطهرات والدواء.. مرضتها أياما حتى شفيت وعاودتها العافية، وتوارت فى الجراح الكثيرة بؤرات الصديد!.. أطلعها أحدهم على طرائق التعذيب التى مارسها ذلك الشقى مع هذه المسكينة الصغيرة، عذبتها

الصور المروعة حتى الغور وأضافت سوادها إلى ذلك السجل الدامى الذى شاهدته منذ شهور وشهور . . كانت صورتها وهى تطوح فى الهواء مقبوضا عليها من ذيلها ثم يُهوى بها على الأرض الصلبة والأحجار تلذع قلبهاحتى أعماقه فتجهش ببكاء صامت . . بكاء لها وللإنسان ولهؤلاء الأشقياء الذين باعوا أنفسهم للشيطان بلا ثمن!

مضت الأيام توثق عرى الحب والألفة بين الصديقين وقد زادها الألم والعذاب توثيقا! . . تتملى هذا الحب الذى تنطق به النظرات فى امتنان وشكر أبلغ من كل حديث . . تعجب لهذه القدرة الفائقة على التعبير ؛ التعبير عن مشاعر الحب والود والحنان والامتنان فى هذا الوجه الصغير الصامت ؛ حتى المواء تتبدل نبراته ليفصح عما يحمل القلب الصغير! . . لا تدرى كيف يحمل ذلك كله الحيوان الأعجم وقد عجزت وجوه هنا بالمئات عن أن تفصح عن نبضة قلب أو قطرة ود أو لحظة سلام! . . فأما قلبها ، وهو مستودع حب دائم ، فلا يملك ألا يستجيب لهذا القلب الصغير ؛ فيمتلىء بحب مقابل يغوص فى الغور فتأخذ الرفيقة الصغيرة مكانها بين الأحباء الأقرباء!

* * *

حين انتقلت إلى زنزانتها رفيقة الطريق التى تبقت فى هذا المكان من حشد النساء ، بعد أن انطوى العام أو كاد ؛ كان ذلك حدثا هائلا فى دنياها ، فمنذ ما لا تحصى من زمن لم تنعم حياتها بإنسان يرافقها ويمحو وحدتها القارسة ؛ إنسان تتحدث إليه فيجيبها منه صوت الإنسان وقلب الإنسان . . لقد حدثت قطتها كثيرا فأجابتها ؛ أجابتها

بالنظرة تقطر حبا وبالمواء يدفق ودا وحنانا، وبتمسح يسيل عذوبة وامتنانا . . ولقد نعمت بذلك كله وامتلأت روحها شكراً لله وللطفه بها حين تناهت الوحشة وجف أوكاد رصيد الصبر . . ولكنها جوعة قلب الإنسان إلى الإنسان لم تخفت؛ فما أشد لهفة نوازع النفس إلى أن تفضى بما تحمل من هم ومن خوف مكنون فيواسيها صوت الإنسان ويهدئ من روعها ويبعث بكلماته طمأنينة إلى حنايا القلب! وما أعمق نزوع الكيان إلى الشريك، يتبادل معه القول والرأى والمعاناة والذكريات وأعمال الحياة!

لكن فصلا جديدا من المعاناة، لم يخطر ببالها فى الساعات الأولى، كان عليها أن تعانيه! . . لقد رفضت الشريكة، وهى رفيقة الطريق التى تبقت معها فى هذا المكان الشرس؛ وهى رفيقة الإيمان والجهاد التى لا تحب أن ترد لها طلبا، لقد رفضت أن يعايشهما فى هذه الأشبار المحدودة داخل الزنزانة حيوان!

فاجأتها الكلمة كما فاجأها الرفض، صدمتها الكلمة وصدمتها المشكلة! فأين هو الحيوان وأين الإنسان فى هذه الأدغال! . . لقد نسيت فى حرارة الألفة والحب تلك الكلمة وتداخلت فى ساحة القلب الحدود!

كان لابد لها من الرضوخ لرغبة الشريكة التى تحمل فى قلبها مكان الأم، وهما رفيقتا الطريق الواحد وسط جحافل هذا الباطل للعدو المتربص بهما؛ يتمنى فى كل ساعة أن ينشب بينهما الخلاف من أجل دنيا!

حزنت . . حزنت حتى قاع القلب . . بكت بدموع تقطر أسى وهى تنزع عن كتفيها المرة بعد المرة هذا المخلوق المحب المتشبث بها ؛ تنزعه لتلقيه خلف الباب المغلق! . . تلذع قلبها نظرات الفزع والاستعطاف والعتاب! . . تتركه هناك عرضة لاعتداءات الوحوش بعد أن تخلت هي عنه فتخلت بذلك عن حمايته! . . تحرمه، دفعة واحدة، الأمن والمودة والرفقة والحب!

أمام الباب المغلق وقفت المسكينة الساعات تموء . . فى صوت لاهف حزين ملتاع تموء؛ فهى لم تألف هذه المعاملة الفظة من صاحبتها . . وهى فى هذا السجن المضاعف لا تملك غير الدموع وغير القلب يمزقه ذلك الصوت اللاهف الحزين! . . حتى إذا يئست المسكينة غابت ساعة ثم عادت تأمل من جديد!

بمرور الأيام رق قلب الشريكة لهما معا . . لم تحتمل مواصلة سماع ذلك الصوت الحزين يمزق شغاف القلب؛ ولم تصمد أمام قطرات الدمع الصامت المحتسب لايقول كلمة! وأنى لها ذلك وقد اتخمت القلوب تلك الأيام الطوال بأنين المعذبين ولهفات المستغيثين كل ساعة مضت فى ذلك المكان الوحشى من الصباح حتى المساء ومن المساء حتى الصباح الجديد! . . سمحت لها أن تدخل بعد أن طالبت ألا تمس فراشها! . . والتقى الصديقان بعد وحشة الافتراق وملأت القلبين فرحة اللقاء بعد الجفاء!

كانت تجربة الفراق باعثا لحب جديد فى القلب الصغير؛ فلم تعد المسكينة تتركها فى ليل أو نهار إلا لقضاء الحاجة؛ تذهب إليها دقائق

ثم تعود . . تعود مسرعة تتشبث بها كالطفل الخائف أن ينتزع من حضن أمه! . . فى النهار هى فى حجرها وعلى كتفيها وبين ذراعيها؛ وفى الليل هى تحت قدميها تغط فى نوم هادئ مطمئن؛ يعبر عن طمأنينة القلب صوت الهرير الناعم المرتاح كأنه التسبيح! . . حتى إذا صحت فى الصباح جاءت إليها تتمسح بها، تتفانى فى إخلاص حار طافر بالود . . فإذا جاعت جاءتها تطلب الطعام بود عميق واثق لايخفيه فقدان الكلمات! وإذا عطشت جاءتها تجرها بحركاتها إلى الإناء الفارغ حتى تملأه لها . . فإذا أرادت الخروج وقفت عند الباب تموء؛ تذهب وتجىء بينها وبينه حتى تقوم تدق لها عليه فيفتح الحارس وتخرج . . تخرج لتعود بعد لحظات تموء خلفه بصوت حنون حتى ينفتح لها من جديد! . . فإذا دخلت انطلقت إليهاتفرغ عندها طاقة الحب والامتنان بعينين مشتاقتين ملهوفتين تطيلان النظرة إلى وجهها فى تفان يقطر حبا، تقولان بالصمت أغنى ما تقول كل كلمات الحب!

تتأملها . . تتفتح فى حنايا قلبها آفاق تأمل فى ملكوت الله من لون جديد . . تتساءل لماذا يغلق الإنسان، وحده فى هذا الكون العريض، على نفسه منافذ الوجود الرحيب؛ منافذ الحب الواسع! . . لماذا يزج بحياته فى أتون الصراع الوحشى الذى لا يدع ساعة سلام . . الشر فيه من أجل الشر . . لماذا والكون رحب؛ أوسعه الخالق ليسع الكل؛ أرحب بكثير من خشاش الأرض! أرحب من التقاتل الموتور على اللقمة؛ أرحب من التصارع الوحشى على السلطان! كل وشائج القربى دمرها الإنسان فى هذا العصر الشقى؛ كل خمائل الحب حطمها المخلوق البشرى، وأحرق كل براعم السلام من أجل البغض الأحمق،

من أجل الحقد! . . لماذا؛ والمخلوق الأعجم يملك ملء قلبه ذلك الثراء؛ ويشيع به فى جو العيش المثقل أريج النعمة المهداة من خالق الكون إلى سكان الكون؟! عجبت لهذا الواقع الكؤود الذى تحياه بين هذه القلوب؛ هنا تغرق فى منقوع حقد لا تدرى منابعه! . . لا تدرى لماذا تتورم مئات الوجوه من حولها بصديد البغضاء الأسود مجهول النبع وهى لم تكن لها قط شرا! . . لماذا تلقي على وجهها البرئ من قطرة حقد، تلك النظرات النارية كلما واجهتها تلك الوجوه! . . من الذى نفث هذا السم الأسود فى جنبات الوادى الطيب وكان مشهورا بسماحته وطيبة قلبه! . . من الذى دمر فى القلوب بذور الحب؛ وأحال فى العروق نبض الود الإنسانى صديدا يتخثر بنقيع البغضاء! . . تتذكر صورته على «شاشة التليڤزيون»، فى ليلة من ليالى شتاء قارس وهى هناك فى البيت الآمن؛ كان يخطب فى الجماهير المتراصة كقطع الليل المظلم، من فيه كانت تتدافع الكلمات كأشواك الغرقد، كعناقيد السم الناقع تنفقئ فى وجه العالم؛ لم يُبق أحدا فى ساحات الأرض التى تجمعها قربى إلا قذفه؛ والجماهير المتراصة تطرب للشحناء باسم الثورة؛ لبذاءات القول باسم «التقدم»؛ تنفس عن كبت مهزوم طال عليه القيد! حينذاك نظرت إلى وجهه المرسوم على الشاشة . . فاجأتها عيناه . . أفزعتها نظرات تعصر حقدا . . تتوعد بنقيع السم . . أزعجت قلبها نظرات الفرح الشرير يلقى الكذبة تنفذ كالسهم المحكم؛ لمحت فيها سمت الشيطان يوقع بالعبد المسكين فى أعماق خطيئة تنفذ كالسهم المسموم إلى أغوار الصدر! . . لمحت عينى فرعون؛ يستخف قومه بالكلمات الحمقاء المحمومة فيطيعونه!

من ذاك النبع انبثق الحقد الأكبر ؛ غشَّى الساحة ؛ تسرب فى قلب الفرد وفى قلب الجمع . . توجه ضد الكل ؛ ضد المجموع وضد الفرد . . لكنه كسنان اللهب المحتدمة ، تمركز ضد قلوب بقيت بيضاء لم يطمسها الحقد الأسود ؛ تحمل فى حناياها الحب الأكبر الذى لا يبقى للحقد مسارب ولا يبقى للبغضاء عروقا يتخثر فيها الدم ! . . قلوب لم يهزمها الشيطان ، ولم تتطرق إليها كلمات الفرعون ! . . تنبض دوما بالحب الصافى ينساب إلى مخلوقات الله من حب للخالق ؛ أصيل فى أعماق الكون لا يمحقه الشيطان ! . . ومن هذا النبع الواسع نبض الحب حتى فى قلب الحيوان الأعجم ؛ حتى فى سير الأفلاك ؛ فتناسق خطو الكون وبدا كقلب واحد ينبض بجلال الحب للواحد الأحد ؛ يسبح لجلال عظمته بالحب ، حتى العصفور الرائح الغادى ، حتى فرخ الطير الأخضر فى قلب العش ، حتى الوحش فى أدغال الغابات ؛ حتى السمكة فى أعماق الموج ؛ حتى الدودة فى طيات الأحجار ؛ فماذا دهى إنسان هذا العصر لظلم . . ماذا دهى إنسان هذا الوطن المنكوب !

* * *

حين غادرت زنزانتها أياما إلى المستشفى ، هجرت الصغيرة مكانها الدائم هناك رغم كل محاولات الرفيقة الأم ! . . تقربت إليها بالنداء والتربيت ؛ تقربت إليها بكل ألوان الطعام التى تحبها ، ولكنها رفضتها كلها . . صامت إلا عن قطرات ماء تلعقها فى لحظات زائغة من إنائها بجوار الباب ثم تفر هاربة . . عجب لها الجميع حتى أصبحت حديث تفكههم يحكيه الشاهد للغائب كما تحكى الأساطير !

وحين حان يوم عودتها؛ دخلت الصغيرة الهاربة الحجرة، واندست في مكانها الذي اعتادته طويلا من الفراش.. كيف؟!.. أي حاسة تلك التي زودها بها الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!

حين عادت إلى زنزانتها بعد غياب لم يطل، وجدتها في فراشها.. صحت.. تنبهت.. في لحظات كانت على صدرها تلف ذراعيها حول رقبتها وتدفن رأسها الصغير في وجهها، تحيي تحية المفزع للفراق المشتاق للقاء!

لكن.. لكن ما أتعس أن تسكن قطرات ندى في شواظ الصحاري.. وما أحزن أن تعيش نبضات حب في غابات الحقد!.. في يوم ككل يوم، خرجت المسكينة لحاجتها ولم تعد!.. طال الانتظار وطال.. أيامًا بعد أيام.. فرغ فراغ الزنزانة من الصوت المؤنس.. فرغ من المواء الرقيق ونظرة العينين المشتاقتين دوما تدفق بسيل الحب.. فرغ من الهرير المطمئن في المساء يؤمئ بالسعادة والاكتفاء.. فرغ من العطاء الدافئ يفرغ مخزون الشكر بين الحين والحين في حنايا النفس، يشبع جوعة القلب إلى قطرات حب داخل بحار الحقد.. فرغ من الكيان الصغير الذي أضحى أنسه يغوص في القلب وفي العين وفي لحظات الزمن!

بحثت عنها؛ بكل ما تملك وبكل مَنْ تملك؛ استعانت بحفنة الأصدقاء القليلين الذين تسربت إلى قلوبهم نبضات الإيمان في لجة الجحود الصاخبة! وشاركتها الرفيقة الكبرى في سعيها الدؤوب!

في صباح يوم حزين، ككل أيام الحزن في أدغال البغضاء؛ خرجت من زنزانتها إلى دورة المياة، تقطع الفناء مطرقة الرأس وقد تفاقمت فوق القلب أكداس الأحزان من كل صوب . . على مقربة من جدار السور قريبا من الباب لمحت شيئا ملقى . . أسرعت إليه والقلب يهجس بالخوف . . يا للمأساة! . . إنها هى . . هى هى . . ولكنها جثة مشوهة المعالم لولا الفراء الرمادى الناعم ما عرفتها! . . الرأس المهشم تسيل مواده . . البطن المبقور المتورم . . العين المفوءة تبرزناتئة والأخرى مغمضة يحشوها التراب . . صرخت . . ثم غابت عن الوعى . . الوعى الذى استوعب كل تفاصيل الصورة . . الذى اخترقته الجثة المشوهة حتى أغواره؛ لترقد هنالك فى مدافن الأعماق البعيدة مع صور غاصت فى شقوق الدم؛ حفرت بأسنة جمر مأواها؛ حرقت وشائج القلب والعيش بمطارق من لهيب!

وفى لجة البغض الواغلة انتعش الحقد؛ حقد تلمودى أسود غشى وجه الأرض . . زحف بأوضار سمومه فوق الأرض الطيبة الخضراء وكانت يوما مأوى للحب، مأوى للسلم، ملاذا كالبلسم لكل ضعيف مغبون . . حقد ناقع ينبثق من العينين الشيطانيتين؛ من قهقهة الخبث الشرير تجلجل لاستخفاف نفوس الخلق . . حقد يزحف يزحف فى قلب العيش . . أوغل حتى غطى جنبات الوادى . . حتى أوغر كل قلوب الخلق عداء للخلق . . حتى أشعل نيران حروب مخططة مرسومة تحيل الخضراء إلى بلقع!

ترى أيعود الوادى الطيب يوما نبعا للحب؟! . . ترى أيعود يسبح للرحمن الواهب تسبيحة حب؟!

الخـــروج

كان المسرح يُعدُّ للعبة الجديدة . . بإتقان فائق كان يتم الإعداد! . . فأما الجماهير المصطفة في كل مكان، فهي مشرئبة القلب تنتظر . . في لهفة بالغة تنتظر وفي يقين! . . فها هم الأبطال يعدون العدة! . . وأما المطبلون والمزمرون فهم واقفون وقفة رجل واحد يحمسون الجماهير؛ يؤججون لهفتها للحظة رفع الستار، وقد اندمجوا في الدور، لا يدرى أحد هل هم نسوا حقا، أم أنهم يجهلون! . . وأما المخرج والممثلون فهم هادئو الأعصاب، يوقنون أن الفصل الجديد سوف يتم إخراجه بنجاح كامل كما تم السابق!

أما هما، فقد كانتا اثنتين فقط، بقيتا هناك من بين النساء اللاتى امتلأت بهن السجون فترة من الوقت! . . كان السامر قد انفض، وأغلق المسلخ الكبير أبوابه وصفى أعماله؛ قتل من قتل؛ واستبقى من استبقى في توابيت الصمت؛ ولفظ من لفظ خارج أسوار الغابة، ليتوه وسط الجمع . . ليسير، وقد خارت قواه، في غمار القطيع، تمهيدا لبدء اللعبة!

كانتا في زنزانتهما ذات الأمتار المعدودة، والمغلقة دوما . . وكانتا ترقبان العرض؛ ومن خلف كل الأبواب السوداء الممتدة كأذرع

المارد، ومن خلف كل الأسوار التى تطوّق الوجود، كانتا تريان! . . تعلمان بعلم القلب الموصول بنور الحق ما يدور خلف الكواليس؛ وراء المسرح ووراء النظارة!

والمسرح يتبهرج بالزينة، والأنوار تخطف البصر، والضوء المسلط والضوضاء تُعمى وتُصم؛ تسرى حتى أطراف الأرض البعيدة؛ تكاد تجن جماهير النظارة؛ تنتظر العرض المنصور بصبر نافد!

وكانتا تعرفان الرواية؛ البداية والنهاية؛ الفصول التى تمت منها والفصول التى لم تتم بعد! . . والفصل المترقب كانتا تدركان أن زمانه قد حل؛ وأن المذبحة الكبرى التى خاضها المؤمنون شهورا موصولة كانت إرهاصا بذلك كسابقتها! . . وأن «الأبطال» قد أعدوا العدة: مسحوا الأرض؛ أزالوا العقبات؛ طاردوا منابع النور؛ أطفئوا كل نجم يومض؛ حتى يُسدل الظلام أستاره ويمر الزحف! . . كانتا تدركان أنه قد آن أوان الجولة الثالثة؛ وأن الحدث الذى ردده العالم والذى هللت له الجموع الغافلة وكبرت، ما هو إلا الإشارة الموقوتة لجولة الفوز التالية والتوسع المراد للعدو الماكر!

جاءهما خلسة أحد التائبين القلائل، الذين خرجوا من ظلمة الغفلة إلى نور الحق على أيديهم. . جاءهما مضطرب الوجه زائغ العينين. . قال لهما إن الحقائق فى قلبه تميد! . . قال إن عقله كان قد استقر على ما حسبه الحقيقة الناصعة، ولكن الأوضاع الجديدة تزلزل الأمر فى نفسه من أساسه! . . فها هم «الأبطال» ينسفون الأرض تحت أقدام العدو؛ وها هو العدو يتحرش بهم؛ وها هم قد قرروا فى

شجاعة فائقة أن يطلبوا سحب الجيوش التى تحميه لينزلوا به الضربة القاصمة! . . وما هى إلا أيام قلائل حتى يبيدوه إلى غير رجعة! . . كل الأخبار تقول إنهم سوف ينتقمون هذه المرة انتقاما مروعا للمرة السابقة؛ إنهم . . سوف يلقون بالعدو فى البحر . . «سوف يحررون الأرض إلى الأبد» . . يصرحون فى كل ساعة عن عزمهم على تخليص البلاد والعباد من هذا الكابوس كما فعل صلاح الدين من قبل!

أجابتا . . لم تزيدا على كلمات قلائل . . قالت الكبرى: إذن فإلى بعد أيام قلائل . . نلتقى بإذن الله! . . ثم صمتت الأخرى!

كان الصمت الحزين الحسير هو الجواب الأوحد! . . كان هو الرد الأمثل على ما تموج به الساحة . . وكانت الساحة الضيقة من حولهم قد أوغرت من جديد بالعداء؛ وسفرت الوجوه بالشماتة الحارقة لما أصابهم؛ ولو أعطيت لهم إشارة واحدة لمزق كلاب الساحة من تبقى منهم! الفرحة المجنونة بما سوف يتم على أيدى «الأبطال» قد استخفتهم حتى الثمالة! أليس «الأبطال» على حق إذن فيما فعلوا بهم حتى لو تجاوز كل الحدود! . . ألم يكونوا على حق حين خلصوا البلاد من شرهم ومن كبار مجرميهم الذين كانوا يتآمرون على أبطال لم يجد بمثلهم التاريخ منذ عهد الفراعنة!

المذياع الصغير بحجم الكف، سرا، فى أيديهما، ينقل إليهما صورة الساحة الواسعة فى جنبات الأرض . . فلم تكن ساحتهم الصغيرة إلا حفنة مركزة من ذلك المستنقع الكبير! . . وكانتا تبصران

بنور العقل الواعى الموصول بموازين الحق، ما يُعد خلف السور العمياء! . . وكانتا تريان من خلاله وجه «الأبطال» الشائه! . .
الصمت الحزين الحسير هو الجواب الأمثل!

الأيام تمضى وسرادقات الفرح المجنون الغامر تغرق أرض المعركة ترفع أسهم الباطل فوق النجم، وتدفن صوت الحق فى طبول. . الأرض السفلى! . . من كل فج المتخاصمون يأتون، مطرقى الرءوس يقبلون أقدام «أبطال النصر»! . . كانوا من قبل يتقاذفوا بأقبح القذف؛ وكانوا يلوحون باتفاقات الخيانة السرِّيّة مع العدو. . . طرف يتهم الآخر! . . جاءوا يعتذرون. . يشدون على يد «الأبطال»! . . يقدمون آيات الولاء لصلاح الدين الجديد. . والجماهير السكرى بالنصر المرتقب؛ الذى «أتى» لا محالة؛ اسم المخلص الجديد؛ ثم تركع على الأرض تقبل! . . أصوات الإعلام تجلجل ليل نهار تمجد أبطال النصر الآتى حتما. . والكتابة بالخط الثقيل تفتح أبواب الأمنيات على مصراعيها! . . وهما . .
هما وحدهما خلف الباب الأسود المغلق دوما؛ بين الجمع المتخبط خبل الغفلة، غارقتين فى حزن الحاضر والمقبل! . . والقلوب المخلصة بالحق ترى الهوة. . تأسى، تتحسر، تعرف الماضى والحاضر. . ترهص بما ينتظر الساحة الغافلة العمياء من كيد جديد!

* * *

فى أمسية من أمسيات ذلك الليل البهيم الطويل، جاءهما رسول يستدعيهما إلى مكتب أحدهم! . . تبادلتا نظرات وجلة وجلة

القلوب فى الصدر! . . فهل يقع بهم فى هذه الفتنة الهوجاء، وهم الأعداء المعزولون عن كل قلب؛ إلا مصاب جديد؟! . . لكنهما لا تملكان إلا الإذعان، فهما أسيرتان فى أيدى هذا العهد الخاطئ! . . لا تملكان إلا الإذعان بدون سؤال؛ ولو سيقتا إلى ساحة الموت! فهل تملك الأقدام إلا أن تسير خلف النذير؟!

هنالك . . خلف المكتب الأنيق فى الحجرة الواسعة المصقولة، واجهتا وجها مبتسما على غير انتظار! . . قال لهما والكلمات تسيل نعومة :

ـ ها قد جاءت ظروف سعيدة مواتية لكما! . . ظروف النصر المرتقب وانكشاف الغمة! . . الآن تستطيعان أن تصححا خطأكما؛ وبكلمات قليله أن تنهيا مأساة حياتكما! . . ثم تبدءان معنا عهدا جديدا! . . كلمات تأييد للقائد المفدّى الذى سوف يحرر لنا أرضنا عما قريب! . . كلمات تعتذر عما كان منكم وتعلن عن توبتكما وتبرئكما مما حدث! . . تعلن عن ولائكما للوطن ولقائده العظيم! . . ثم تخرجان على إثر ذلك إلى بيوتكما؛ وأنا كفيل لكما بذلك! . .

صمت هنيهة يتفرس فى وجهيها يحاول أن يخترق سجف الصمت الكثيفة التى رانت على الوجهين رغم هزة المفاجأة. . ثم أردف بعد قليل.

ـ هه . . ماذا تقولان؟ . . ألا تريان معى أن وضعكما كنساء فى هذا المكان . . أوحتى فى غيره إذا فكروا فى نقلكما إلى سجن من سجون النساء؛ هو وضع صعب للغاية!

المفاجأة أكبر من أية إجابة . . قالت الكبرى بعد لحظات صمت :

ـ أترك لنا وقتا نفكر . . وصمتت هى .

ـ وهل هذا عرض يحتاج إلى تفكير . . هل هناك إنسان يحب أن يبقى فى سجن؟!

ـ . . . .

ـ إذن كما تريدان . . سوف أترك الأمر إلى الغد . . سأمر عليكما غدا . . تخبرنى كل منكما على حدة بقرارها . . أرجو أن تقدرا مصلحتكما!

انصرفتا عائدتين . . لم تتبادلا كلمة فى الطريق؛ فالحارس الذى يسوق خطواتهما على بعد قليل . . لم تتبادلا نظرة؛ فالرأس غارق فى دوار، والقلب مستغرق حتى الثمالة فى الخبر الجديد الخطير!

حين بلغتا مقرهما وأغلق خلفهما الباب الثقيل، حين أصبحتا فى مأمن من العيون؛ تهاوت كل منهما فى فراشها، كأنها قطعت فى رحلتها تلك أميالا على الأقدام على طريق وعر!

لحظات صمت ثقيل انطوت أحستها دهرا، بادرت بعدها الرفيقة الأم بالحديث دون أن تنظر إليها وكأنما هى تحادث نفسها . . قالت : الخروج! . . الخروج أمنية عزيزة! . . من الذى يرفضها . . صمتت هنيهة، ثم أردفت . . أما تأييد الباطل . . فهو أبعد عنهم من النجم! . . أليس ذلك كذلك يا بنيتى؟ . . أم أن لك رأيا آخر؟

استنقذتها الجملة الأخيرة من لحظات الانزعاج التى أغرقها فيها

ذلك الحديث عن الخروج . . حدقت فى وجه الصديقة تستبطن ما وراء الكلمات ثم أجابت :

ـ هو ذلك بيقين ؛ ولكن ليس هذا هو الذى يشغلنى . . ليس أمر الرفض والقبول هو الذى يقلقنى ؛ فهذا مقضى فيه بإذن الله . . ولقد مرت بنا مساومات أكبر من هذه ونجانا الله فيها من السقوط ! . . ولكن الذى أفكر فيه هو كيفية الرفض ! . . ونحن نعرف من التجارب السابقة كلها ما هو البلاء الذى ينصب على الرافضين حين يطلب منهم تأييدا للطاغوت ثم يرفضون !

ـ ولكن أليس هذا دليلاً على أنهم فى موقف سيئ ؟ ! . . ألم تلحظى تلك اللهجة التى تحدث بها الرجل معنا ؟ . . كأنه يرجونا أن نفعل !

ـ لا أظن ذلك . . ولكنى أعتقد أنهم مقدمون على مغامرة تحتاج إلى تفرغ . . تحتاج إلى تجميع الصف ، وهذا الوضع ليس مستساغا بعد فى هذا المجتمع ؛ لا فى الداخل ولا فى الخارج . . فوضع نساء أسر مسلمة محافظة معروفة فى السجون ، وخاصة هذه السجون العسكرية ، أحرج موقفهم وكان موضع تشهير من المنافسين والخصوم فى الخارج ، وهم لا يملكون التراجع عنه إلا بهذه الوسيلة ؛ فهذه فرصة مواتية للتخلص من الموقف دون أن يبدو تراجعا ؛ وهم بذلك يضربون عصفورين بحجر واحد : ينهون الوضع المحرج ، لكن بعد أن يتم الإذلال المطلوب ، وبعد أن يعلن انتكاسنا على أسماع الجميع . . هذا الذى كانوا يتمنون الوصول إليه منذ اللحظات

الأولى! . . ففيم كانت العذابات إذن؛ وفيم كانت فداحة الفقدان، إذا ما نقضنا غزلنا وطأطأنا الرءوس للباطل؟!

ـ إذن فنحن متفقتان . . فأما صيغة الرفض . . فلماذا لا نقولها جريئة صريحة ثم يحدث ما يحدث! . . وهل يحدث لنا شيء أسوأ مما حدث؟! . . وهل في مقدور الشيطان نفسه أن يفعل أكثر مما فعلوا؟! . . فحتى الكفر الذى أحاط بالمؤمنين الأول لم يصل إلى شيء مما وصل إليه هؤلاء؛ كان أنظف وأعلى خلقا . . كانت تحكمه شيم عربية كريمة إذا قيس بما حدث في هذا العهد الإجرامي!

جثم عليهما صمت ثقيل؛ وبدا أن كلا منهما تغرق في لجة أفكار متداخلة . . الرفض، نعم، هو القرار المعلن! . . المعلن في النفس للنفس! المعلن بين القلب وبين الله! . . والذى سوف يعلن لهم في الغد القريب! . . والرفض هو الأمر الحتمى لأنه هو الذى يرضاه الله منهم ويعلن الاستمساك بالمسيرة؛ وهو الذى يحفظ كرامة الحق ويعلن شجب الباطل؛ والرفض هو الأمر اللائق بالمؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله واختارهم الله للجهاد في سبيل دينه ورفع رايته . . نعم، كل ذلك كذلك . . لكن . . ما بال الكلمة تحرك الراكد في أغوار النفس! . . تنبت من جديد ذلك الحلم الذى طأطأ رأسه وتوارى منذ اختار الله ما اختار! . . منذ أتم المجرمون جريمتهم وقضوا بما قضوا؛ ومنذ أن توارى أمل العودة إلى حياة خلف أسوار الواقع . . لقد غاص الحلم بعيدا بعيدا حتى بدا أنه قد توارى وذاب في اللجة، وصهرته نيران الواقع وحرارة الرغبة إلى الله . .

ألقت نظرة طويلة على الرفيقة الأم . . مغمضة العينين هى، تبدو غارقة فى أفكارها، رأسها بين يديها مستندة بكليتها إلى مرفقيها؛ الصمت يلفها . . يلفهما معا وفى الداخل يمور الإعصار . .

فترة من الوقت مرت لا تدرى مداها، ثم تنهدت الزميلة تنهدا حزينا عميقا، ثم ما لبثت أن استدارت واندست فى الفراش دون أن تنبس بكلمة وقد شدت غطاءها فوقها فى حركة تبدو منها لجة انفعالاتها . وجهت إليها الحديث بصوت خفيض يحمل نبرة قلق ومودة وإشفاق؛ قالت : لسوف تنامين يا أماه . . فالوقت ما زال . . ثم إننا لم نتناول عشاءنا .

ـ ليته يجىء النوم ويريحنا ! . . ثم إنى لا أجد رغبة فى الطعام !

ـ لكن مم يريحنا . . ألم يستقر رأينا معا على الثبات على الحق . . فهذا فى ذاته يريحنا !

ـ نعم . . هذا لامناص منه . . ولكن المجرمين يعرفون كيف ينغصون على القلوب استقرارها حتى فى العذاب !

ـ الله لن يتركنا لأنفسنا إن شاء الله . . لسوف يشد أزرنا برحمته . .

ثم عاد الصمت يفرش ظله فوقهما وفوق الأشبار القليلة التى تضمهما !

مس قلبها قلق غامض، فبالرغم من تلك الكلمات القوية التى أعلنتها رفيقة الطريق، فإن الأمر خطير؛ وفتنة الخروج هى أقسى

الفتن؛ هى أقسى من ألوان العذابات التى عاشتها كل منهما! . . ولكم أطاحت هذه الفتنة، فيما تعرف من أخبارها فى الماضى، بشجاعات كانت تبدو ثابتة وقد تحملت من ألوان التعذيب ما يفتت الصخر؛ ولكم دمرت من عزائم كانت تبدو راسخة رسوخ الجبال! . . فماذا لو حدث مثل ذلك بزميلة المسيرة التى تبقت معها وتبقت لها! . . ماذا لو خرجت لأمر كهذا وبقيت هى وحدها مفردة فى الأتون! . . كيف تواصل المسيرة الشاقة مفردة فى طريق الشوك الطويل؟! . . وفى لحظات أسى واغلة تراءت الصورة أمامها . . صورة اللحظة الفاصلة؛ تلك التى لا يشابهها فى الوجود غير اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت! . . اللحظة التى تودعها فيها الرفيقة عند الباب الحديدى الأسود وتذهب! . . إلى خارج الأسوار المقيتة تذهب وتبقى هى . . يغلق الباب الأسود . . تعود إلى الفراش المفرد والقلب المفرد والصمت الثقيل . . يغلق الباب عليها هى؛ مفردة من جديد؛ تنحت الوحدة قلبها، وتلف الوحشة كيانها فى الطريق الطويل . . إلى متى؟! . . لا تدرى . . فليس للطريق حدود! . . فأما فيما قرر الفجرة فإلى نهاية العمر الذى لا تدرى مدى امتداده! . . وأما فى حقيقة قدر الله، فلا يعلم ذلك غير الله . .

أفاقت من سواد تأملات اللحظة المظلمة على صوت أنفاس الرفيقة تعلو قليلا تنبئ بالدخول فى عالم النعاس المريح . . الوجه يظلله الصفاء، والقسمات تنساب فى استرخاء هادئ . . تمتمت تحمد الله؛ فقد مرت الأزمة برحمة من عنده . . وفى الصباح، حين يغمر الدنيا نور الله وتنزاح الظلمة، لا تدهم القلب الأفكار السوداء . .

ليتها تنام هى الأخرى؛ ليتها تستطيع أن توقف هذا المد الهائل من الأفكار والخيالات والذكريات والصور التى فجرتها تلك الكلمة البسيطة ذات الأحرف المعدودة «الخروج»! . . هذه الكلمة التى لم تكن، فى عمرها السابق كله، تحمل إلا ذلك المعنى البسيط الدارج الذى لا تحفل به نبضة واحدة من نبضات القلب، والتى غدت تحمل أثقالا من الأحلام والتطلعات والذكر، من المشكلات والعوائق والسدود، من القضايا ومن مفارق الطرق! . . تحمل ما تنوء به حروفها القليلة وتعجز، وما ينوء به نبض القلوب وتندك به قوى العزائم!

لكم مست شغاف قلبها تلك الكلمات القليلة التى نطقت بها الرفيقة الأم وهى شبه تائهة، كأنما تحدث بها نفسها، وهى توجه الحديث إليها: «الخروج. . الخروج أمنية عزيزة. . من الذى يرفضها!». . صدمتها الكلمات فى أول الأمر؛ فلقد كانت هى حرمتها حتى شرعية التوارد على الخاطر! . . أحست بها فى لحظتها كحصاة مدببة تلقى من بُعد، تُغمد فى شغاف القلب؛ تُنكئ الجرح الذى يجهد للالتئام، تُلوِّح لتلك الأمنية الدفينة التى وضعتها فى خانة الإثم بأن تخترق الحجب، أن تسفر برأسها وقد كانت دفنتها وراء أستار سجف كثيفة! . . وهل يملك القلب أن ينفى دوما حنينه الواغل إلى الأمن، إلى الستر، إلى الأهل، وإلى حرية الإنسان؟!

فى مذكراتها التى تقاطرت على مسافات متباعدة، كتبتها كلما سنحت لها فرصة على مدار تلك الشهور التى انطوت، والتى توجتها

هذه المحاكمة الإجرامية الفاجرة، قطاعات تحمل الكثير من نبض ذلك الحنين! . . لقد كان الوعى، وكان نبض القلب وتوجهه ينضج رويدا رويدا على أوار تلك النيران التى خاض فيها! . . تلك التى كانت تضطرم ليل نهار، وتتعالى ألسنتها مع كل حدث جديد! . . وكان الحنين إلى الحياة وإلى العيش وإلى العش يتضاءل ويرسو إلى أعماق الغور مع كل خطوة يتقدم بها الوعى نحو ذلك العالم العلوى وذلك التكليف الربانى الحبيب إلى القلب! . . وكانت آيات الله المبينة تشق طريقها إلى الأعماق تأخذ بالقلب إلى وضاءة العيش فى هذا العالم العلوى الفسيح، وإلى رحاب الاستمساك المتين بالعروة الوثقى!

بعد صدور تلك الأحكام المبيتة لحرب دين الله فى هذه الأرض؛ وبعد فشل تلك المساومات الدنيئة التى حاولها الطغاة معهم لينقضوا وفاءهم بعهد الله؛ وبعد أن أكمل الأشقياء شقوتهم ونفذوا أحكامهم؛ تم فى قلبها ـ لا تدرى كيف ـ الاستقرار الهادئ الصابر على بيعته؛ وابتعد شبح ذلك الحنين الذى وقفت له طويلا من قبل بالمرصاد، تذوده عن قلبها حتى وضعته فى نهاية المطاف فى خانة الآثام!

لكن الخبثاء يعرفون! . . يعرفون سم هذا السلاح الفتاك؛ يعرفون أنه حين يطل برأسه يتشتت الفكر وتنطفئ أنوار الروح؛ ومن أجل ذلك يسلطونه على قلوب المؤمنين؛ يلوّحون به بين الحين والحين حتى لا تهدأ القلوب ولا تستقر . . حتى يثور أوار الصراع كلما هدأ . . وحتى تسقط الأوراق الضعيفة الذابلة القابلة للسقوط!

لكن . . البيت . . العش الآمن والراحة . . الأهل وجوعة المخلوق الحى إلى الحياة ، وتوق الإنسان ، وقد خلقه الله حرا ، إلى حريته . . أليس ذلك كله هو حق الإنسان الذى أعطاه له خالقه؟ ! . . أليست هذه النوازع التى تجذب باستمرار ؛ تشدها خيوط الضعف البشرى الذى خلقه الله . . أليست من حقها هى أيضا؟ ! . . وهل تملك هى أن تخرج من نطاق بشريتها؟ ! . . لماذا إذن تقسو دوما على قلبها؟ ! . . لماذا تحرمه حتى حق التمنى؟ ! . . حتى تهويمات الحلم؟ ! . . لماذا تغلق أمامه باب كل فكرة ، وشبح كل خيال يخطو خارج ذلك الباب الحديدى المقفل؟ ! لماذا تصدمها الكلمات حين تعلن الرغبة جهارا كما صدمتها؟ ! . . لكم تتوق أن تطلق العنان للحظات ضعف ! . . أن تترك للنفس أن تقتات ضعفها ساعة من زمان ! . . أن تسترخى أعصاب القلب ، وتفك عنها ، ساعة ، إسار أغلال السلاسل ! . . أن تسمح للروح أن يهبط من علياء تحليقه ويحط بقدميه على أرض البشر ! . . أن تتمنى العيش فى متاعات الدنيا كما يتمنى كل الخلق !

من المكمن الخفى تخرج رزمة أوراق صغيرة من الأوراق الشفافة المكتوبة بخط دقيق يكاد لا يقرأ لفرط صغره . . تهفو إلى أن تسترجع الآن بعض ساعات ضعفها التى عاشتها خلال أيامها الأولى فى هذه المسيرة الرائعة المروعة ! . . يلذ لها أن تعاين أعمارها الكثيرة التى تنقلت بينها فى هذه المدرسة الكبرى التى وضعها الله فى رحابها بغير سعى منها ولا قصد ! . . هذه التى نقلتها من فجاجة الطفولة إلى مراحل النضج فى مسيرتها الإيمانية ؛ والدرس يلقى تلو الدرس ، تشرحه آيات الله الكريمة فى كتابه العزيز فتجد مصداقها فى أعماق

النفس! . . فما أبعد الشقة بين تلك الصغيرة اللاهفة إلى الأهل والسكن والعيش الناعم فى البيت الوثير ؛ وبين هذه التى تضاعف عمر قلبها فى شهور قلائل ؛ هذه الثابتة الجنان ، المستوية الروح على النور ، الصلبة القلب فى مواجهة شراسة الطريق! . . هذه التى وضعت الحياة كلها بنعيمها وعذاباتها فى صرة وطرحتها وراء ظهرها ثم استقام لها الخطو! لكن . . أو حقا كان هذا؟! . . أو حقا قد استوى القلب وصلب فى مواجهة شراسة الطريق؟! . . وها هو اللحظة يحن إلى ساعات ضعفه . . يتمنى أن يطلق له العنان ساعة يتمرغ فيها فى ذلك الحنين! . . يبنى فى تهويمات الخيال الحلم الذى يعلم يقينا أنه لن يكون! . . ترى من هى الآن بين هاتين؟! هذه أم تلك؟!

تقرأ . . تقرأ . . بشغف فى الأعماق تقرأ . .

«آه . . ما أقسى أن يواجه الإنسان الموت وحيدا . . بلا أهل ، بلا أحباء ، بلا صديق ، بلا معين! . . كانت ليلة مريرة قارسة ؛ لكنها احتسبتها عند الله ؛ كل لحظة منها تعدل آلام عمر ؛ الألم يعصف بها فتتلوى وتصرخ صراخا مكتوما ؛ يزداد الألم ويعلو الصراخ وقلبها كله تطلع لاهف إلى مجيب ؛ وهى تعلم علم اليقين أنه لا مجيب ؛ تعلم أن بينها وبين الأحياء آمادا لا يقطعها الصوت! . . وحتى لو سمعها أحد فلن يجيبها ؛ إنهم قساة غلاظ ؛ إنهم أعداء تتحجر قلوبهم بشراسة العدواة! . . لكن ما أشد حاجتها تلك الساعة إليهم! . . إلى «إنسان» يقف معها وهى تواجه الألم المدمر ؛ وهى تواجه الموت بكل ثقله بغير معين! . . كانت ليلة مريرة قارسة ؛

تطلعت إلى صوت؛ صوت يجيبها من وراء الأبواب المغلقة؛ صوت إنسان تحس أنه قريب منها؛ يسمع صرخاتها وأنينها، ويشاركها حالها ولو من وراء الحواجز والسدود؛ يعرف أنها تموت.. يعرف أنها ماتت حين تموت!

وطاف بقلبها ماضيها القريب؛ بيتها الناعم الآمن المستقر؛ وذلك الفيض السخى من الحب والود ورفاهة العيش، والكل حولها يغدقون من قلوبهم فيضا ناعما من رعاية ورخاء كلما أصابها طائف من خطر! أين هى اليوم وأين هم!.. أشلاء مبعثرة مزقتها أيدى الطغاة.. إنهم لا يعرفون عنها شيئا، لا يعرفون حتى أين هى، لا يتخيلون هذه المقبرة التى تعانى فيها مرارة الوحدة وقساوة العيش، لا يعرفون أنها تقاسى هذه الليلة آلام الموت بلا رفيق؛ أنها تواجه رهبته بلا صديق؛ أنها تتطلع إلى صوت إنسان يشعر بقسوة ما تعانيه ولو من بعيد، أنها تتطلع إلى الأعداء.. إلى أيديهم الخشنة الملطخة بالدماء، إلى قلوبهم الصلدة الملطخة بقسوة الجحود؛ تتطلع إلى رعاية حتى من تلك القلوب، وإلى مساعدة حتى من تلك الأيدى!.. ترى أين هم؟!.. أتراهم أحياء، يقاسون كما تقاسى، أم أن الطاغوت قد ابتلعهم فى ظلمة جوفه الرهيب؟!. وانفجرت تبكى!».

* * *

«يا ألله.. ما أحب الأمن إلى قلوب البشر.. الأمن الهانئ بين الأهل وبين الأحباء فى المسكن الحبيب يضم جناحيه الرفيقين على الجمع كالأم الحانية!.. من لها بلحظات هناك؛ والكل هناك؛ حيث

يغلقون الباب آخر الليل بعد أن يطمئنوا إلى أنهم قد اكتملوا فى الحمى الآمن، لا غائب منهم ولا مُبعد؛ ثم يأوون إلى فرشهم فى انتظار صباح حلو مفعم بالود وبالأمن وبالحياة. . وما أثقل هذه الغربة! . . كل شىء هنا غريب. . الوجوه والأمكنة وهول الأحداث وهول المجهول! . . ولكنه الجهاد. . الجهاد فى سبيل الله. . أليس ذلك كله هو الجهاد فى سبيل الله؟ . . أليس هو حبيبا إلى الروح كذلك الحمى الآمن والأهل والصباح المفعم بالود والحياة؟ . . ليتها تستطيع أن تصل إلى نفحة حب من الله. . رضاء منه ينير كل الظلمات. . يروى قلبها الظامئ. . يعوضه عن الأهل والأمن والسكن. . إنه كالحصان الجامح، تروضه، تسوسه بكل قدراتها ثم يجمح. . ينزو إلى هناك. . إلى البيت الذى يحبه. . البيت الذى كان يعود إليه ملهوفا إذا غاب عنه ساعات! . . والله يريد أن يكون هذا الذى هى فيه أحب إليها من كل ما هناك. . أفلم تقرأ المرات بعد المرات ذلك الوعيد الرعيب لمن أحب شيئا من ذلك كله أكثر من الله ورسوله وجهاد فى سبيله!».

* * *

«لكم تشتاقهم. . كل فرد منهم. . كم تشتاق إلى «رفعت» صديقها وأخيها ورفيق صباها! . . كم تشتاق إلى لقاء به بعد ذلك اللقاء الأخير المرير، والشياطين ينتزعونها انتزاعا من بينهم، وهو واقف مكبل عاجز عن فعل شىء ينقذها به من بين أيديهم. . قلبها كله يهتز؛ يرتج رجات عنيفة ثم يهوى كأنما يغوص فى فراغ سحيق. .

كلهم . . هناك فى أرجاء البيت الواسع ، تتراءى لعينيها صورهم . . وصور البيت الحبيب تداهم ناظريها . . كل مكان ، كل مقعد ، كل فراش ، كل قطعة أثاث ، عميقة موغلة فى حناياها ! . . لكم تحبه ، بيتها هذا . . مأوى قلبها وسكن مشاعرها ورؤاها . . كانت تعود إليه مشتاقة لاهفة حين تغيب عنه ساعات في ضوضاء القاهرة . . كان يغمرها وهى خارجه شعور يشبه التشرد حتى تعود إليه مشتاقة لاهفة ، تطمئن فيه إلى الأنس والأمن والصون . . ثم انتزعها منه الطغاة ليلقوا بها هنا وسط الجند . . ما أفجرهم ! . . إنهم لا يحسون حرمة لشيء . . كالبهائم هم . . بل كالشيطان . . إنهم أبناؤه ! » .

* * *

«ترى أتعود إلى العش الحبيب . . ويعودون . . والبيت الهانئ يعود يزخر بالحياة !

من الطاقة الصغيرة فى أعلى الجدار ترامت إلى أذنيها أصداء أغنية بعيدة . . يا للقلب المسكين . . تشده الذكر . . تهزه أوهاق الحياة حتى أغواره . . حين كانوا هناك على الشاطئ الجميل ، ونسمات الأصيل الرفيقة تداعب كل شيء ، تتسلل إلى القلوب ، تربت عليها برفق ، توصوص لها بالحب وبالحياة . . كان هذا الصوت يسكب ألحانه ، تأتيهم مع النسمات من بعيد . . تنساب دون وعى منهم مع موسيقى الموج الصاخبة الرتيبة إلى الحنايا البعيدة ، تشعشع بالأمل ، بالود وبالندى الرفيق ، وتنسرب فى حلم بلا حدود ولا معالم ولا ابناء . . وبالحياة !

أحست أنها تخور، تريد أن تنحط على الفراش؛ فاستلقت هناك وغمرت وجهها بذراعيها . . شيء يشبه غمرة الموت يجتاح كيانها كله ويطبق عليها بصمته الرهيب . . وغمرها ما يشبه النعاس!».

* * *

«ترى كيف تعيش الشرفة الصغيرة المطلة على حديقة الدار؟! كان القمر الهانئ فى الليل يضمها؛ يغمرها بالأمن، بالرجاء الحلو؛ بإشراقة الأمنيات . . ترى كيف تعيش الآن والفراغ المقفر يلفها! يغمرها بوحشة موغلة . . الوجوه المشرقة بالحب غابت عنها فى غياهب الغموض الرهيب، والأصوات التى كانت تفعم قلبها أنسا أوغلت فى الصمت! . . أتراها حنت إليهم؟! . . إلى أمسياتهم الضاحكة تهمس بالذكريات المشرقة وتوصوص بالأمنيات وتمد عينا مفعمة بالرجاء إلى الغد المأمول! . . والنافذة المطلة عليها من فوقها كأنها الأمل المتوفز يبسم فى وجه الحياة، أتراها أغلقت بعد أن غاب روادها؟!».

* * *

«ترى من بقى فى الدار الحبيبة . . ليتها تعرف عنهم وليتهم يعرفون عنها! . . ليتهم يعرفون كيف تعيش . . ليتهم يشعرون ـ على البعد ـ بهذا الصمت القاتل؛ بهذه الظلمة القانطة . . ليتها تحكى لهم عن نهارها الكئيب وليلها الموغل فى الوحشة وفراشها المغرق فى الأوساخ . . ليتها تقص عليهم لحظات دنياها الجديدة كما تعودت أن

تقص عليهم كل شيء كان في دنياها أيام كانت تعيش معهم كل حدث وكل هاجسة قلب! . . ليتها تقص عليهم كيف تصحو من نومها مذعورة كل صباح على صرير الباب المحزن كأنه النذير بالكارثة، وأقدام الحارس الخشن . . الخشن القلب والروح، الخشن الوجه والسمت؛ الخشن الكلمة والصوت! . . أقدامه تدك الأرض القاسية؛ مندفعا نحوها ليضع بجوار فراشها الكئيب كوزا وسخا فيه قطرات ماء اختلطت رائحته برائحة ما كان في الكوز من «سردين» إلى يوم قريب! . . لا بسمة قلب حان، ولا كلمة وجه محب، ولا انتظار لمشرق يوم جديد نابض بالحياة!

ليتها تستطيع أن تحدثهم عن لحظات اليوم . . كل يوم . . لا حديث، لا حركة، لا انتظار، إلا جلسة كئيبة على حافة فراش كأنه القبر، لا يقطعها شيء غير حركة اليد من آن لآن تهش الذباب! . . الذباب! . . لو يعلمون أنه النعمة الكبرى هنا إذن لكفوا عن قتله! . . لو يعلمون أنه المخلوق الحي الوحيد الذي تعيش معه! . . يتحرك فيوحي إليها بفكرة الحياة! . . وتلاحقه عيناها من هنا إلى هناك فتشرق في عينها نبضة الحياة! . . وتتحرك يداها لتهشه من هنا ثم لا تلبث هنيهة حتى تتحرك من جديد لتهشه من هناك! . . لولاه لتصلبت أعضاؤها كلها ولتوقفت فيها الحركة ولتجمدت فيها الحياة!».

* * *

«ليس بوسعها أن تصف وسائل التعذيب في هذا المكان . . بل ليس هذا بوسع مخلوق على الإطلاق! . . التعذيب هنا ليس بالسياط فقط

ولا بأدوات التعذيب التى تفوق كل خيال؛ وتتعدى وتتحدى كل ما سمع عنه البشر فى تاريخ دنياهم! كلا، ولكنها كل لحظة، كل جزئية صغيرة من جزئيات كل يوم، وكل شىء من أشياء الحياة! كل شىء.. كل شىء يشارك فى عملية تعذيب كبرى من الصباح حتى المساء ومن المساء حتى الصباح!.. الأرض والجدران والحشرات والطعام!.. الطاقات المعلقة فى أعلى الحوائط تصب جام غضبها على المعذب المسكين؛ تلقى فوقه ألسنة الهواء ثقيلة ثقيلة فى الصيف والشتاء؛ تغرز فى العظام!.. الفراش والغطاء ووجوه الجند وأصواتهم وقاموسهم النتن وألسنتهم التى تسب دين الله فى الليل والنهار.. دورة المياة والطعام والشراب والوحدة القاتلة وأدوات العذاب!».

* * *

«نعم.. ما أبعد الشقة بين هذه وتلك.. بين هذه التى تمارس العيش كل يوم فى حقل الشوك هذا بقلب هادئ راض، مشبوب التطلع إلى ما وراء الدنيا من رضاء ومن رضوان، وبين تلك الصغيرة المتلهفة على الأهل، وعلى الأمن والعش الوثير!.. أشبار الزنزانة هى أشبارها.. الفراش هو الفراش.. الطعام هو الطعام.. والقيود هى القيود!.. لا أمن ولا أهل ولا أمنيات ولا حياة!

لقد وضح أمام قلبها اختيار الله لهذه الأسرة وقد تكاثر منها الشهداء!.. وقد انصب عليها البلاء حتى تفردت وأصبحت فيه علما، ينفضّ عنه الناس خوفا وفرقا!.. وقد ضاقت حولها سبل

الدنيا وانفتح لها سبيل الله على مصراعيه! . . فما أبعد الشقة بين إيمان تتناوشه أوهاق الأرض، وإيمان يمد عنقه إلى معارج السماء!

كيف حدث هذا؟ كيف استقام الخطو؟ كيف استبان الطريق واستوت الوجهة وتوحد المقصد؟ . . أين هو الحدث المَعْلم فى ذلك الطريق الطويل؟ . . أين مواضع الجهد البشرى المبذول ومواضع العطاء الربانى الهادى فى هذه المسيرة؟ . . أم أنهما أبدا لا ينفصلان؟!

ينبش الخيال، الذى مد له ذلك السكون السابغ حوله، وصوت الرفيقة الغارق فى النوم، حباله . . ينبش فى حنايا أحداث كثيرة مريرة . . صور لا تحصيها الذاكرة؛ تبرز على رأسها صورة لا تغادر البصر . . تدك ذرات القلب! . . هناك فى محكمة الشيطان . . تستمع لذلك «الحكم» الفاجر الكافر! . . يلقى من فم الرجل الذى سلم أرض الوطن المسلم إلى العدو الكاره لدين الله، وعاد بخزى الدنيا والآخرة! تستمع إليه ينطق بأحكام الإعدام لخيرة المؤمنين؛ تعقبها على وجهه بسمة صفراء حاقدة يغطى بها ذل الدنيا والآخرة الذى تغلغل فى كل ذراته!

تنبش وتنبش؛ كل حدث منها مرير؛ كل حدث منها يقود القلب إلى مراتع الظلام والخيبة بحسابات الأرض وتقدير البشر، فكيف حين تجمعت وتفاقمت وتلاحقت، كيف قادتها مراراتها إلى مرابع النور وإشراقة الأفق المضىء؟! . . إلى استعلاء بالحق، يطل من فوق، فيرثى لعالم التراب ينبش التراب جاهدا من أجل لقمة عيش قد

يسرها الله للبشر من قبل! يقتحم غضب الله من أجل كرسى يظلم من فوقه ويفجر!

تعجب! . . تعجب لهذه «الحسبة» التى لا يطاولها المنطق الأرضى المألوف! . . تعجب كيف منحتها أحداث القهر العاتية قلبا جسورا فقد كل أوهام الخوف وتحرر من خشية البلاء وارتمى خاشعا فى أحضان طمأنينة مستقرة تستيقن أنه لايكون فى كون الله إلا ما يشاؤه الله . . تدرك أن ما شاءه الله، كره البشر أم رضوا، لابد كائن. فالحكمة العليا أكبر من كرههم ومن رضاهم؛ فلا مكان فى العيش إذن لخوف ولا موضع للجزع! ولكنه التسليم المطلق والرضاء وانتظار ما عند المنعم من فضل عميم!

هل تراه ذلك العجز المطلق أمام القدرة القادرة، حين يبذل المخلوق وسعه ثم ينفض يديه من قوته ومن حوله . . يعلم عندها، ويملأ قلبه اليقين أن الله هو وحده الفعال، وأن لا ملجأ منه إلا إليه!

هل تراه ذلك الخلوص الكامل، حين يهون المخلوق على نفسه ويهون على الناس، حين تصغر ذاته ويصغر أمام ذاته؛ فتتبدى أمامه عظمة المهيمن من فوق، الحى الذى لا يموت، والبشر فى قمة رؤى القلب يموتون . . المتعالى فى علاه وحده فوق كل قوى الباطل وكل قدرات الشر! . . حين يربط الإنسان وجوده الضعيف الزائل بذلك الوجود العلوى الخالد الذى لا يُنال!

أم تراه ذلك اليقين بوحدانية الأحد حين ينفتح القلب، تحت مطارق العذاب فى الطريق إليه، على مدارات حقائقه، يتضاءل

بجانبه ما عداه! . . حينها يعلو القلب ويعلو، ويصفو الروح ويصفو في معارج الكمال وآفاق النور! . . حين يرى الكائن الزائل المحدود نفسه موصولا بالقوة العظمى . . بالعلم اللدنى الواسع . . متصلا بالموكب الكريم المضىء على مر الزمن، موكب الرسل المكرمين ومن تبعهم من خيار الخلق . . والجاهلون يتهاوون صرعى كالفراش على النار من أجل ساعات عابرة؛ من أجل متاع قليل منطو! . .

حين يدرك المؤمن تحت وطأة العذاب، والشوك يمزق جسده وقلبه أنه يحمل بين جنبيه قضية هى أعظم قضايا الوجود . . هى الحق الواحد الأكبر . . هى قضية أكرم خلق الله على الله . . حين يستيقن أنه من أجلها وحدها يُعذب، وبسببها وحدها يقاسى ما قاسى الأنبياء والمرسلون! . . عندها يكبر ويعلو فوق قواه . . عندها يهون العذاب وتصغر مرارات الأرض، ويصغر ذلك المتاع القليل الزائل . . وعندها يعلو القلب على خشاش الأرض . . يصغر عمر الدنيا وتتضاءل أيامها أمام لحظة رضوان يرجوها على أفاق الوصول إلى الملإِ الأعلى . .

•وفى ساعات قرب، حين يبذل الإنسان ذاته؛ حين يهبها كلها لقضيته الكبرى . . حين يهب دنياه لصالح القضية الكبرى لا يبقى له منها شيئا، يفتح الكتاب المجيد له أسراره؛ يجده فى صدره كأنما هو يقرؤه أول مرة؛ كأنما يتنزل عليه ويتنزل من أجله؛ يدرك منه ما لم يدركه طوال عمره؛ يعيشه حقيقة واقعة لا كلمات قدسية فقط تهتز لها الروح بالخشوع ساعة ثم تمضى الحياة فى مجراها . . يُفعم قلبه

بحياة هى أقوى من كل حياة الباطل المتجمع، لو عرف الأعداء مداها ما تركوهم يحيون ساعة من زمان! . . فى ظلها يهون الحدث الدامى، وفى لألائها تتلاشى الظلمة المدلهمة!

لكن. . هل يملك القلب أن يبقى دوما محلقا عند تلك القمة؟! هل له مندوحة عن الهبوط ساعة إلى حفنة الطين! . . وحفنة الطين تهفو إلى منبعها! . . تحن إلى ساعة راحة فى مستقرها؛ يرهقها التحليق فى آفاق النور! . . فهل تراها تستطيع أن تواصل السير فى الطريق الشائك الطويل، حين يمتد إلى آفاق العمر القصوى، حين يخترق السنين تلو السنين ينشر اليباب فى صفحة العمر الغض! . . حين تُستنفد الطاقة ويتآكل الجهد ويتقاصر مدى الأمل ويأفل الرجاء وتنطفئ المنى فى. . «مستقبل» يبقى، يحمل فى طياته نبضة الحياة! . . حين يذهب الأحياء كل فى طريقه السوى فى دنياه وتبقى هى داخل الجدران الأربع سجينة الأشبار المعدودة من أرض زنزانة فى فج من فجاج الأرض، يطوقها الباب المقفل والسور الغليظ! تبقى تجرث مرارات الشوك كل لحظة تحت قبضة عتاة يملكون كل ساعاتها، كل راحاتها، حتى قضاء ضرورات العيش! حتى الطعام والشراب. . حتى ذهابها إلى دورة المياة! . . هل يستطيع حب الله فى هذا القلب والرجاء فى محبته أن يشغل كل مساحات الخواء فى هذا العيش؟ . . أن يقفز بها فوق أرجاء الحرمان الواسعة التى تتوافد على القلب يوما بعد يوم تفرش دنياه، أيامه ولياليه، ساعاته ولحظاته وسنواته بجدب الصحراء وصمت الموت! . . ألا يطوف بالقلب يوما طائف من ندم على ذلك العرض الذى أتيح يوما ثم انطوى. . أغلق بينه وبينه الباب

إلى غير رجعة إذا ما حاصرته الأيام والليالى تتتالى بغير رجاء؟! . . إذا ما همد العيش بروتين العيش وخلا حتى من دوافع الإثارة؛ حتى من استفزاز العذابات ولذع نيران الحدث الدامى؛ ذلك الذى يستثير مكامن الصبر والمقاومة . . ذلك الذى ينبت فى القلب الرجاء الحلو فى عفو الله ورضوانه ويحث الروح على التعلق بما عند الله من عطاء، والاستمساك المتين بالعروة الوثقى! . . ذلك الذى يملأ القلب بنيران المعركة المحتدمة ويفعم الروح بعمق القرب وسموق الطريق وسمو الهدف وفرحة الوصول!

لقد انقضت الآن فترة العذاب الحى؛ فى أتونها تلظى القلب والجسم والروح! ولكن دماء الصمود كانت حارة تغلى وتفور؛ الجسم يقاوم بكل طاقته عوالم التردى فى وهدة السقوط؛ الروح تسمق؛ تتطلع إلى الأفق العلوى؛ تحلق فى قمم النور؛ والقلب يقاتل، يبرد الجراح الغائرة فى الرحاب الندية!

ثم ثوى الجميع إلى روتين اليوم البارد، الممتد أمام القلب إلى ما لا يستطيع الخيال أن يتخطى أو أن يتحسب الفكر! . . الجسم يجنح إلى همود العادة؛ الروح يحاول ما استطاع أن يبقى فى أفقه المضىء بعد أن خبا أوار النيران وخيم بكلاله ضباب الاستقرار الهامد؛ والقلب الذى يجتاحه البرود بعد الخفق اللاهث المتواصل، وقد غارت الجراح المشتعلة إلى أغوار الباطن البعيد، يدعو الله ويستعطفه أن يبقيه فى حماه! . . فكيف يكون العيش فى هذا الطريق إذا طال ولفه ضباب العادة وغبش النسيان . . حين ينسى الإنسان وجوده وينساه الناس . . حتى الأقرباء!

كيف يكون العيش وها هو القلب تستجيش ضعفه، وهو بعد فى أوائل الطريق، كلمة تلوح، تستجلب الحنين النائم فى أعماقه . . كلمة تتكدس فى أحرفها القليلة مفترقات الطرق ومعالم العوالم التى تفصل بينها الآماد . . عالم لا تدرى زمنه يرسف فى أغلال القيد؛ وعالم يحيا الناس فيه فى طلاقة العيش! . . هكذا تبدو الصورة والقدمان غارزتان فى تراب هذه الأرض . . ولكن حين تنطلق الروح من إسارها لحظات إلى الأفق المتعالى، حيث ينبثق النور ويتلألأ نبضه، يرى القلب الوجه الآخر للصورة! يرى عالما يرسف فى أغلال من خوف ومن حرص، من قهر وجبن ومذلة . . يرسف فى أغلال من سخط الله . . عالمًا محجوبًا عن نور الله، ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء! . . وعالما ينطلق رفافا فى أرجاء رضوانه وفى سعة محبته ونعيم أنسه! . . فيا ترى على أى الضفاف يرسو سفين هذا القلب المستجاش؟! . . هناك يتراءى البيت . . البيت الحزين الذى دمره فجور الباطل فانطوى على حزنه العميق مستعليا على الباطل باجتباء الله له فى قمة الحق . . يرنو فى أعماقه إلى أن يضم من تبقى من المبعثرين فى جنبات سجون الطاغوت، قبل أن تطويهم فى جوفه ظلمة الطغيان الفاجر! . . وهنا . . على الضفة الأخرى . . هنا الله ورسوله وجهاد فى سبيله، ورضوان من الله أكبر! . . ترى فى أى السبيلين تنساق الأقدام؟!

* * *

فى الصباح، قبيل الساعة العاشرة، كان الحارس يدق باب الزنزانة يستدعى الرفيقة الأم لمقابلة الضابط فى حجرة قريبة.. خفق قلبها خفقا عاليا موصولا.. حملقت فى الوجه الذى امتقع واضطربت ملامحه كأنما استدعى على غير انتظار؛ رغم ذلك الانتظار القلق المشبوب منذ الصباح؛ ورغم ذلك الحديث الذى طال وتبودلت فيه كل التفصيلات والتأكيدات، ورغم أن الموضوع لم يفارق قلبيهما ولا رأسيهما غير ساعات النوم القليلة!

قالت وهى تنظر إليها فى حنان قلق:

ـ الله معك يا أماه.. الله لن يتركنا.. ثم جفت الكلمات فى حلقها فلم تستطع أن تتابع..

ردت الرفيقة ببسمة مغتصبة وهى تقول:

ـ واصلى الدعاء.. الله يثبتنا على الحق..

القلب يهوى فى الصدر إلى غير قرار!.. ماذا دهاها!.. أبعد أيام العذاب المرير وشهوره الطويله الكاوية، ما زال القلب يفرق فى مواجهة جبروت الباطل؟!.. وهل بعد تلك الأحداث الكبرى التى خاضتها، تنهد بها الجبال الرواسى، يبقى فى القلب وجل؟! وهم يواجهونهم اليوم بغير أسلوب الأمس وقد قضوا من الأمس أوطارهم؟!.. يلقونهم اليوم بمثل تلك البسمة التى رأتها بالأمس؟!... أم أنه هذا القرار القاطع كنصل السكين فى هذا اللقاء، يفصل بغير رجعة بين العالمين كما يفصل سيف مصلت

بين الرأس والجسد؟! . . يردع فى القلب كل نبضة حنين؛ ويحظر على الخيال أن يخطو خطوة خارج حدود عالم الموت!

قبل أن تعود رفيقة الدرب كان الحارس يدق دقاته الثانية فوق الباب المغلق يستدعيها! . . دقات القلب تعلو، وشيء يشبه الغمامة الثقيلة يجثم فى جنبات الرأس يكف التفكير، عن الحركة، يمحو معالم الفكر ويوقف الحديث فى النفس، ذلك الذى ملأ فراغ الساعات ورتبت معالمه وكلماته أبهر الفكَر! . . ولكن الأقدام تتحرك إلى المصير المقدور!

حين واجهت الرجل الجالس خلف المكتب الأنيق تقطر ملامحه المبتسمة صغارا، أحست بقوة دافقة تتدافع فى كيانها! . . قال والبسمة تتدلى من شفتيه مشيرا إلى مقعد فى الجانب الآخر للمكتب:

ـ تفضلى . .

جلست دون أن تنبس بكلمة . . بادرها بالسؤال عن أحوالها فأجابت فى هدوء كامل أنها بخير . . قال:

ـ إن شاء الله يكون قرارك كما أتمنى لك . . سكت هنيهة ثم أردف . . أنت شابة صغيرة لا يجوز أن تضيعى مستقبلك فى هذه السجون من أجل لا شيء! . . ألست معى فى هذا؟

ـ أرجو الله أن يوفقنى إلى مرضاته .

ـ مرضاة الله بغير شك هى أن تعودى إلى بيتك وأهلك . . سمعت أنك مخطوبة . . أليس كذلك؟

تجاهلت سؤاله الأخير وأجابته بأنها كانت تستطيع أن تقبل ذلك لو كان بغير شروط!

ـ ماذا تقصدين من «بغير شروط»؟!

ـ بالأمس قد طلبت شروطا محددة لهذه العودة!

ـ هذه ليست شروطا، إنما هى كلمات قليلة ضرورية لإظهار حسن نواياكم، وتكون بمثابة اعتذار منكم عما حدث!.. كذلك لتكون تأييدا للقائد المقبل على حرب مع العدو.. ليكون ظهره محميا فى الداخل وهو يقاتل ذلك العدو الشرس.. هذا واجب وطنى، ليس عليكم فقط، ولكنه واجب كل مواطن! الكل يعيش فى أمن وراحة وهو يشقى ويتعب من أجل الجميع!

ـ اعتذار وتوبة عن ماذا؟!

ـ عما فعلتم ضد الزعيم؛ ألم تعارضوه؟! ألم يكن فى نيتكم أن تقتلوه؟!.. هذا القائد العظيم الذى قلما يجود بمثله الزمن!

ـ فأما المعارضة فنعم، والمعارضة حق للناس فى أزمنة الحرية؛ وأما القتل فلم يحدث شىء من ذلك ولم ننوه!

ـ ففيم إذن كانت التحقيقات التى استمرت عاما أو يزيد؟ وفيم كانت المحاكمات والأحكام؟!.. وفيم كانت الاعترافات؟!

ـ اسأل من قاموا بها!.. وهم لم يثبتوا علينا شيئا من ذلك؛ وأنت تعلم، والكل يعلم كيف أخذت تلك الاعترافات!.. والكل يعرف أنه لا أساس لها من الواقع!

ـ ألا تعرفين ما هى تهمتك التى أخذت بها هذا الحكم؟!

ـ كلا . . حتى الآن لم أعرفها . . أرجو أن تعرفنى إياها!

تجهم وجه الرجل وثبت مقعده الذى كان يدور به فى خفة ونزق من اليمن إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، واستمر فى الحديث بلهجة أخرى يشوبها التهديد والجد . . قال:

ـ اسمعى . . أنا لم أجىء لأناقش هذا . . هى كلمة واحدة . . تريدين الخروج أم تريدين البقاء فى هذه السجون حتى . . .

ـ حتى ماذا؟

ـ حتى يضيع عمرك وشبابك فيها .

ـ أليس الحكم محددا بزمن؟

ـ نعم . . ولكن لن يخرج أحد منكم ـ خاصة من هذه الأسرة ـ إلا بإذن من الزعيم . . حين يشاء له بالخروج!

ـ الذى سوف يأذن لى . . ولنا جميعا . . هو الذى بيده ملكوت كل شىء .

ـ خلصينى وقولى كلمة واحدة: نعم أم لا؟!

ـ كما قلت لك فى أول الحديث: نعم، إذا كانت بغير شروط .

ـ وبشروط؟!

ـ لا!

ـ ألا يكفيكم لترجعوا عن أفكاركم السوداء وتتوبوا، أن القائد البطل يحارب الأعداء الكفار. . وأنهم يحاربونه، هل هناك شهادة له بحسن الإسلام أكبر من هذه؟! . . إننى أؤكد لكم أنه سوف يدخل الجنة قبل أى واحد منكم!

ـ ليست قضية محاربة العدو أو مسالمته هى قضية الخلاف الأولى بيننا. . هى إحدى قضايانا الكبرى دون شك. . ولكن هناك القضية الأولى والقضية الأكبر ألا وهى: كيف تحكم هذه البلاد «المسلمة»؟ أبشريعة الله أم بقانون البشر؟ . . ما هو منهج الحياة السائد فيها والذى تكرس له الدولة كل جهودها؟ . . وبناء على ذلك، من هو الإله المهيمن فى هذه الأرض؟ وما هو الأمر المطاع فى هذه الربوع: أمر الله أم أمر العبيد؟ . . قل للقائد الحاكم أن يرفع راية هذا الدين وراية شريعته ونحن نتقدم لنكون من أخلص جنده؛ نضحى بأرواحنا لحمايته رغم كل ما فعل بنا! . . بل دعه يكف عن مطاردة دين الله فى كل أرض تصل إليه يداه، ونحن نكف عن معارضته، عن عدواته حتى فى أعماق قلوبنا. .

ـ فقط فقط لا تسترسلى. . لا أريد أن أسمع هذا الحديث! . . فأنت مصرة إذن على موقفك! . . فكيف إذا كانت زميلتك على غير هذا الرأى، وخرجت وبقيت أنت وحدك؛ ثم ذهبوا بك إلى سجن النساء لتقضى عمرك مع المجرمات من كل نوع هناك؟! . . وقتها لن تلومى إلا نفسك!

برهة قصيرة كلمح البرق ثم انطوت، أحست فيها أنها تخور؛ المقعد فقط تحتها هو الذى يحميها من السقوط؛ وأن غمامة كثيفة تحجب وجه الرجل الذى أمامها عن عينيها. . حين أفاقت رأته يحدق فى وجهها؛ في عينيه نظرة تحفز وترقب. .

ـ ماذا تقولين لو حدث هذا؟! . . وأحب أن أصارحك بأن ذلك هو الذى سوف يحدث!

ـ أقول إن كل إنسان له أن يرى الأمور كما يحب. . أقول لا حول ولا قوة إلا بالله!

ـ إذن أنت مصرة على ألا تتراجعى!

ـ نعم.

ـ تحملى إذن نتيجة حماقتك!

حين أذن لها بالانصراف كانت قدماها تكادان أن تعجزا عن حمل جسدها البالغ النحول؛ وكان دوار هائل كالإعصار يجوس فى حناياها يذرعها جيئة وذهابا يدمر ما تبقى فى كيانها من قوى! . . أهكذا خارت عزيمة رفيقة الدرب أمام إغراء الخروج وسقطت فى الفتنة؟! . . كيف حدث ذلك وهى تؤكد حتى آخر لحظة على ضرورة الثبات، والاستمساك بما يحبه الله، أمام مكائدهم؟! أهو الكلام المعسول كذلك الذى بدأها به؟! . . أهو الضعف عن مواصلة العيش فى هذا العذاب؟! . . أمن الممكن أن يكون. . وهل من الممكن أن تعيش. . أن تقاوم. . أن تصمد. .

كانت قدماها قد دلفتا إلى أرض الزنزانة مندفعة بالعادة البحتة، دون أن تشعر إلى أى مكان هى تسير! . . أحست بالباب يغلق وراء ظهرها، وتراءى مواجها لها وجه الرفيقة الأم فى مجلسها المعتاد فى الفراش مشرقا منفتحا وقد بادرتها بلهفة قائلة:

ـ ماذا فعلت يا بنيتى. . لقد ظللت أدعو لك منذ عدت. . لعل الله أن يكون قد استجاب لى وقواك فى مواجهة هذا الذئب الماكر!

ماذا يعنى هذا؟! . . لبثت برهة زائغة البصر، مشتتة الأعصاب مذهولة القلب. . ماذا يعنى هذا؟! . . قالت الرفيقة فى قلق:

ـ ماذا يا حبيبتى. . هل حدث لك شىء يسوءك؟!

ـ كلا. . ولكنى رفضت طلبهم كماعزمنا نحن الاثنتين!

ـ الحمد لله. . وأنا أيضا. . قلت له كلاما يخترق العظام حتى طأطأ رأسه خزيا! . . ماذا يملكون أن يفعلوا أكثر مما فعلوا!

ـ إذن فقد رفضت الخروج. . .

ـ نعم. . هل فى ذلك شك لديك؟!

ـ عليهم غضب الله. . لقد أفهمونى غير ذلك. . كاد ذلك أن يقضى علىّ!

أهوت عليها تقبل رأسها وجبينها والدموع تنسال، تتساقط حارة سخية فوق الأذرع المتعانقة.

الرحيــل

منذ الصباح الباكر والحراس الطيبون القلائل الذين أمنوا لهم وأحبوهم يتوافدون عليهما كل دقائق يبشرونهما بأخبار النصر . . يفتح أحدهم باب الزنزانة خلسة حتى لا يراه آخر يقول لهما فى نشوة ظافرة : «لقد اسقطنا من طائرات العدو سبعا . . تسعا . . عشرا! . . تتزايد أعدادها كل دقائق! . . تنتقل من العشرات إلى المئات قبيل الظهيرة!

ما انتصف النهار إلا وكان الهمس قد بدأ يأخذ طريقه إلى الساحة المسورة بالقهر ، وكانت النفوس تهجس بالفزع والحزن . . كان المذياع المكبل بالأغلال فى الداخل يوالى تشنجه بأخبار النصر ؛ وكانت إذاعات العالم تنشر على العالم كل أخبار هزيمة لم يسمع بمثلها التاريخ!

كانت حرب الساعات الست قد أوفت على نهايتها لحساب العدو مائة بالمائة ؛ كان قد احتل كل الأراضى التى خطط من قبل فى أمانيه الإجرامية لاحتلالها ؛ وكان قد استولى على أكداس السلاح التى كومت وحشدت هناك على مقربة منه ؛ والتى من أجلها رهنت أرض الوطن وما تنتج لسنوات طويلة ؛ والتى على بريقها أزهقت روح كل

معارض يرفع صوته! . . كذلك كان قد دُمِّرَ جيشٌ عرمرمٌ فاق عشرات الألوف . . من أجله كانت قد ارتحلت للترفيه عنه عشرات من الأجساد الخليعة والأصوات المترنمة بالعهر ؛ ووزعت عليه عشرات أخرى من الصور الملتاثة بالفسق لترفع من حماسته وتوقظ شهيته للقتال! . . وكانت طائرات الوطن المغلوب على أمره قد قتلت فى مرابضها بعد أن هُرِّب بعضها إلى الخارج حماية لها من خطر التحليق! . . وكانت المؤامرة الكبرى قد تمت بحذافيرها كما أريد لها أن تتم!

وكانتا فى أمتار عيشهما المحدود تستمعان خلسة فى المذياع الصغير إلى أنباء الحزن الكثيف، تطلقها فى فرح مجنون وشماتة أصوات العالم العدو فى جنبات الأرض . . كانتا تعرفان الرواية . . البداية والنهاية . . وكانتا تغرقان فى حزن مرير!

رغم كل ما تعلمت فى عيشها المرير فى هذا المستنقع الذى تخوض فى أوحاله قرابة العامين منذ وطأته قدماها واصطلى بنيرانه قلبها ؛ ورغم كل ما شاهدت من قدرة هذا الواقع الملوث بالإفك، على التزوير والبهتان، والكذب الذى لم يحمل مثله التاريخ فيما قرأت، وعلى كل شغفها بقراءة التاريخ ؛ فقد أذهلها صوت الإعلام المجلجل ينثر البُشرى وأنباء النصر على سكان السجن الكبير الذى تختنق الملايين وراء أسواره؛ وقد ضاع كل شىء . . كل شىء . . الأرض والجيش والمال والسلاح والعتاد والكرامة والمستقبل فى ضربة واحدة

وفى ساعات قصار! . . والناس؟! . . الناس كالقطيع المساق؛ لا يدرى لأى مجزرة يساق. . لا يعلم لأى خزى من خزى الدنيا والآخرة يغرق حتى أذنيه!

العجز! . . العجز المحزن يغرق كل ذرات القلب! . . تتسع الهوة وتبرز القضية أمام النفس وتترامى أطرافها! . . كيف ومتى؟! . . كيف ومتى ينتقل الغثاء من مرابض الطين إلى قمة الوجود ـ الحى المتعالى بالحق ـ التى أرادها الله لهذه الأمة حين قال لها: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»؟! . . كيف ومتى تدول دولة الباطل الشرس ويسترد الحق صولجانه فى أرض الله؟! . . كيف ومتى تُسترد الأرض المسلوبة بالتآمر. . نعم بالتآمر وحده؛ فما حارب جيش وما هزم جنود! . . متى يسترد الأرض جند الحق لأصحاب الحق؟! . . أين الطريق؛ وكيف. . وقد فرشت الطريق شوكا ودماء وعذابات يعجز عن حملها البشر. . تخوضها الحفنة القليلة المطاردة المستضعفة فى الأرض «تخافون أن يتخطفكم الناس» ؟! . . متى وكيف يأتى الوعد العلوى يقول لهم: «فآواكم وأيدكم بنصره»؟!

حين طمر الواقع جعجعة الأصوات العالية وأكرهها على الصمت، وحين تراءت فى الأفق ملامح النكسة التى لم تفرزها من قبل مصانع التاريخ؛ كان الذهول يجتاح الناس، يبكى من يبكى ويسقط من يسقط فى هوة الصمت!

جاءهما أحد الحراس الطيبين ملتاعا ينشج بالبكاء، تنهمر دموعه على خديه، يتساءل فى فزع كيف ينصر الله الكفر على الإسلام؟! اجابتاه والحزن المرير يقطر فى الكلمات أن كَلاّ. . لم ينتصر كفر على الإسلام؛ ولكن انتصرت مؤامرة كفر لئيمة على الغثاء السادر فى غفلته، الغارق فى جهله، السابح فى تفاهات عيشه، المتلفع بالجبن، المتكالب على لقمة عيش، المتشبث بالحرص على حياة؛ انتصرت دون حرب. . دون قتال؛ كما انتصرت فى ماضى الغفلة مؤامرات مثلها كثيرة. . قالتا: حين يوجد الإسلام. . حين يوجد جند الحق، لا ينتصر كفر، ولا تفلح مؤامرة تحاك وراء الكواليس والمسلمون فى غفلة!

توقف الدمع الهاطل. . انفتحت عينا المسكين المفزَّع على مصراعيهما وطفحت بالذهول! قال: «لم أفهم. . ليتنى مثلكما أفهم. . أعرف. . أطمئن إلى طريق!». . ترى متى يكون هذا الحق الناصع فى قلبيهما مُدْركًا للجمع؟. . فهذا هو أول الطريق. . هو نقطة الصفر!. . متى ينتقل الوعى من مرابض العتمة إلى مراتع الضياء!. . كم من الزمن يحتاج العمل!. . وكيف يكون العمل والطريق مغلق مدجج بالشوك، طافح بالقهر، غارق فى الدماء!. . كيف تصل الكلمة الطيبة إلى القلوب المطمورة بالظلمة وقد سدت أمامها كل منعرجات السبل؟!. . والأرض تسلب والدم يهدر والمقدسات تنهب وتداس، والعدو اللئيم يغرز أنيابه، يجتاح كل

شرعية للوجود، يحقق مشروعه الآثم فوق الجماجم كما رسمته أدمغة الحقد الأسود منذ قرون وقرون! . . كيف وأذرعه الأخطبوطية وقد انتشرت في المكان قد طوقت الأرض. . سرقت الوعي وطمست البصيص الذي كان قد تبقى في القلوب من نور الحق وورارته التراب!

قالت الرفيقة بعد أن ذهب ذلك المصدوم الباكي:

ـ الناس مساكين، لا يعلمون شيئا مما يدور حولهم. . أم نحن المساكين! . . لا أدري حقا من المسكين فينا! . . من يعرف الحقائق أم من يجهلها! . . والعجز يطوق الجميع. . وأسوار القهر يختنق بداخلها العالم والجاهل!

أجابتها بعد برهة صمت طويلة:

ـ لست أدري هل يعذر الجاهل بجهله، وقد أمر الله المؤمنين ألا يركنوا إلى الجهل. . وقد دلهم على طريق العلم. . فهل يعذر الله هذه الجموع التي طرحت طريقه وراء ظهرها وانساقت بلا وعي وراء فجور الإعلام. . ووراء توجيه لئيم يريد أن ينتزع منها ما تبقى لها من بصيص نور، دون أن تنظر لحظة واحدة إلى حقائق الواقع التي تتكلم بذواتها! . . أما نحن فيكفينا أننا عرفنا وعزمنا على أن نحول ـ بما ملكت قوانا ـ بين أرض الله وبين الكارثة. . وقد ملأ الله قلوبنا طمأنينة حين قال لنا: «ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يَغْلبْ فسوف نؤتيه أجرًا عظيما» . . فإذا كنا لم نَغْلب في هذه الجولة فَقد ظفرنا بالثانية ولم نقبل أن نكون في قطيع المستضعفين!

ـ ولكن كيف تكون الدنيا حين ينتقل العدو من نصر إلى نصر، وتخرج هذه الأمة الجاهلة من سحق إلى سحق، ومن هوان إلى هوان . . وتضيع الأرض وتسلب المقدسات!

ـ إلى حين . . فتلك الأيام يداولها الله بين الناس . . حتى تصحو هذه الأمة . . حتى تدرك أنها تاهت فى القفار . . حتى تدرك أن غضب الله عليها الذى جاءها بسبب انزلاقها بعيدا عن طريقه قد ساقها إلى أسفل الذل . . قد وضعها كما قال لها رسولها فى الموضع المأكول تتداعى عليها الأمم كما يتداعى الأكلة على قصعتهم . . وحتى تعود إلى المنابع التى جعلت منها أمة . . بل جعلت منها الأمة المثلى التى رفعها الله فى الأرض فأصبحت خير أمة . .

كان الألم الحارق يأخذ بخناق الكلمات، يجرجرها حارة مشتعلة من منابعها الكامنة وهما تتبادلان الحديث فيما يجب على المؤمنين من وسائل لإبلاغ نور الحق إلى القلوب الغافلة الجاهلة إذا قدر الله لهم أن يعودوا إلى الحياة وإلى ساحة العمل الواسعة؛ حين انفتح الباب فجأة . . حين ارتطم سواده الثقيل بالجدار من خلفه وظهر فى فتحته الرجل الرهيب الفارع الطول الضخم الكيان؛ وقد كان قد توارى عن أعينهما زمنا بعد أن انتهت عهود «التحقيق» وأغلقت مجازر التعذيب أبوابها؛ واستقر المقام بالأسرى خلف أسوار القهر . . وقد تعودتا ألا ترياه إلا فى الملمات!

خفق قلبها وعلا وجيبه . . ترى لماذا يجىء فى هذه الساعة! . . وما لهما هما بهذه الهزيمة الفاضحة وما هما، وما هم جميعا إلا ضحية

من ضحاياها، وما أصابهم ذلك الذى أصابهم إلا من أجلها! . . من أجل أن تتم المهزلة الكبرى دون عوائق! . . ترى هل وشى أحد الأشرار بمذياعها الصغير مفتوحا على محطات العالم وقد كانوا قد اشترطوا عليها حين صرحوا لها به فى أسود الأيام ألا يفتح إلا على إذاعة الوطن التى تأتى وحدها بأخبار الصدق! والتى تبث الأغنيات التى تلطف أحزان القلب!

لم يتركهما طويلا للأفكار والتوقعات، ولكنه اندفع إلى قلب الزنزانة كالوحش الهائج يحطم ما تقع عليه يداه، يشوط بقدمه كل ما يقابله لا يستثنى شيئا؛ يقع حذاؤه الغليظ حيثما اتفق لا يراعى أين وقع؛ يلتف ذلك كله بأبخرة سباب فاحش لا يستثنى الأمهات والآباء والأجداد؛ ولا يستثنى دين الله وقد سماه دينهما هما!

ـ لماذا؟! تلفظت بها الرفيقة فى صوت ثائر.

وعندها كانت الطامة؛ انقض عليها الوحش ركلا بحذائه حتى طرحها أرضا تلهث وقد أوشك الجسد أن يتهاوى حتى تغيب عن الوعى . . التُهم القذرة مع السباب الفاحش يتناثران من فمٍ كالماخور؛ منهما اكتشفتا سبب هذه الثورة الهائجة! . .

اكتشفتا أن سبب هذه الهزيمة النكراء هو قبل كل شىء كان خيانتهما ودعاءهما الحاقد فى السر على القائد البطل الذى نصره الله عليهم فمزقهم شر ممزق!

في أعـمـاق حـزنهـمـا الملتـاع المفـزَّع رنت في الغـور ضـحكة ، فلم تستطيعا أن تكتما بسمة ساخرة لاحت فوق الشفاه! . . ظلها الباهت في أطواء الحـزن أثار من جديد وحشـية الوحش الهـائج فـاستـمر في جنونه . . قال : «غدا سوف تدفعان ثمن هذه البسمة غاليًا!» وانسالت من أعماق الحقد دفعة هائلة من السباب؛ اندفقت قذرا في جو الزنزانة حتى طفح الرعب.

انصـرف بعـد أن أمرهمـا بلم حـاجاتهـمـا القليلة للرحـيل من هذا النعيم الذى وضـعتهـما فيه رحمة الزعيم وقلبه الكبير! . . الرحيل إلى الجحيم الذى تستحق خيانتهـما للوطن وقلوبهم السوداء وحقدهم الذى مـلأ قلوبهم جـمـيعـا على الأبطال الذين هزمـوهم شـر هزيمة وأروهم مكانهم الحقيقى في هذه الدنيا!

مضى وأغلق الباب . . وترامى إليهما صوته من وراء الباب المغلق يملى تعليماته على أتباعه من الحرس : «الباب لا يفتح لأى سبب . . لاخروج إلى دورة المياه . . لا طعام ولا ماء . . لارد على نداء . .» ثم يغيب الصـوت الهـادر رويدا رويدا وتندغم الكلمات حـتى يتـوارى الصدى ويغيب!

جثم وجوم أسود صامت فوق الوجوه المروعة المذهولة . . كل شيء في جـو الزنزانة يهمس بذهول مرتاع . . يرهص بالكارثة . . الأشـياء القليلة المبعثرة على أرضها الصخرية ، حتى قطع الملابس الداخلية وقد التـاثت بتـراب هذه الأرض بعـد أن حـوله الماء المسكوب إلى بقع من

الطين! . . الطعام والشراب وقد اختلطت أجزاؤه بعضها ببعض فلم يعد يتبين فيه شيء من شيء بعد أن داسته أقدام الوحش الهائج! . . الحقيبتان الفارغتان وقد انقلبت كل منهما على فوهتها! . . والفراشان وقد تبعثرا فى طول الزنزانة وعرضها! . . وهما الاثنتان وقد خارت قواهما وسقطتا منهوكتين فوق الأرض الملتاثة! . . توجهت الأعين إلى السماء التى لا يحجبها عن قلبيهما ذلك السقف المغلق، وتمتمت الشفاه بالدعاء الحارق فى أعماق القلب . . وهل تملكان فى تلك اللحظات الثقيلة غير التوجه إلى مالك الملك، وقد أيقنت القلوب بحضوره؛ بشهوده لهذا الظلم الصارخ الفاجر؛ بعلمه وبهيمنته من فوق سبع سماوات وبرحمته وعدله لا ينفصلان . .

انطوى وقت ثقيل لا تدرى مداه، ظلتا فيه صامتتين . . ظلمة ثقيلة باردة تلف القلب وتغرق الكيان . . بكل قوة بقيت تتحامل على قلبها وتقوم فى صمت تلملم أشياء الحجرة المبعثرة، تشد أزر الأم المجاهدة وقد نسيت هى نفسها وما أصابها من هذه الهجمة المسعورة وقد أمضت قلبها حتى أعماقه هذه الإهانة توجه للرفيقة التى احتلت فى قلبها مكان الأم، من ذلك الكلب العقور؛ وهى من هى من العمر والمكانة فى نفسها ونفوس المؤمنين . . ذهبت إليها تحتضنها . . تحيطها بذراعيها تحاول أن تقيمها . . تذهب بها إلى فراشها بعد أن سوته لها . . تدعو الله فى حرارة وتَبَتُّل أن ينتقم لها . . ولهما وللمؤمنين ولهذه الأرض المقدسة التى سلبها العدو نهبا دون قتال! . . دون أن يراق فيها من دم سوى دماء المستضعفين وقد استخفهم الطاغوت فأطاعوه!

تمضى لحظات قاتمة؛ لكن يتسرب هدوء يشبه الدفء إلى القلب، ومن أعماق بعيدة ينسرب رضاء واثق يضىء القلب بنور لا تدرى من أين يأتيها؛ وجه النمر المقهور يلوح أمام عينيها، يقطر هزيمة، يتشنج بالسعار ككلب أصابه جنون الكلب؛ لقد فقد كل وعيه وكل ضوابط شخصيته التى كان يستعلى بها على المعذبين حين يقهرهم العذاب فيصرخون ويتأوهون؛ أفلت تماما حقده من بين يديه. . لماذا هذا كله. . يوقن المجرمون أن هذه الفئة وحدها هى التى تعرف. . تعرف ما وراء الستار. . وهى وحدها التى وعت وجاهرت بالرفض واستعلت على الجبروت، فلم يستطع الطغيان بكل ناره وحديده أن يقهرها!. . يعرف فى أعماقه أنها الفئة المنتصرة فى هذا البلد التعس المنساق إلى ذل الهاوية. . وهى وحدها التى رفعت رأسها واستعلت بالحق وأصرت عليه تحت عرصات عذاب لا تحتمله الجبال. . كلماتهم التى جابهوهم بها أثناء التحقيق تتحقق أمام ناظرهم اليوم؛ لذلك يتفجر حقده من فمه كالقىء المتعفن لا يملك وقفه!. . قالت للرفيقة التى كسا وجهها حزن عميق، وقد تمنت أن تنقل إليها من دفء قلبها الذى بدأ يأخذ طريقه إلى إشراق ساحر:

ـ لا عليك يا أمى الحبيبة، فالكلب العقور حين يصيبه السعار يستطيع أن يؤذى، بل يقتل أعظم الخلق! ثم يبقى هو الكلب العقور ويبقى العظيم فى موضعه فلا تراعى. . فأنت هى أنت. . بل زادك الله تكريما إن شاء الله.

ـ أنا لا يحزننى كثيرا ما حدث لنا، فلقد ذقنا منه الكثير من قبل واحتملناه بفضل الله؛ ولكننا مقبلون على فترة عصيبة جديدة لا شك

فيها، فهل بقى فى قوانا ما يحتمل هذا الجديد المقبل! . . ثم هذا الذى حدث لبلادنا . . أليست هى بلادنا رغم أنوفهم! . . من الذى سوف يقع عليه عبء تحريرها غيرنا! . . من الذى سوف يعانى الأمرَّين من جراء هذه الهزائم المنكرة أكثر منا! . . من الذى سوف يذوق الويلات بسطوة الكفر المنتصر غير المؤمنين . . غير الذين نذروا أرواحهم لمجاهدة الباطل حتى يزهقه الله بالحق؟!

ـ نعم . . ذلك كله كذلك، ولكننا لسنا وحدنا، فالله من ورائهم محيط وهو معنا إن عرفنا طريقنا وأخلصنا قلوبنا، والمعركة كلها بيده وهو الذى يوجه الدفة ويدبر الأمر، فمن يدرى أى خير يمكن أن يتأتى من وراء هذا البلاء! ألا يمكن أن يكون هذا دافعا لصحوة الغافلين؛ لو دفعنا أعمارنا كلها لنستجلبها لا نصل إلى شيء منها! . . فى قلبى رجاء واسع، فإنه لا يَدْلَهِمُّ الظلام هكذا إلا والفجر على وشك البزوغ!

كلمات الأم الرفيقة تتسرب إلى الداخل؛ تخترق طبقات الإشعاع وتدلف إلى العمق تحرك الراسب فى القاع . . تتصاعد أبخرة غيوم ما تلبث أن تتكاثف . . المجهول . . ذلك المخوف المنتظر خلف الستر الرقيق المتبقى من الدقائق أو الساعات . . تحس أن الجمل القوية ذات الرنين المستبشر التى أطلقتها فى جوالهم الجاثم تشبه كلمات الطفل المفزع يرفض الرضوخ للخوف، وفى أعماقه تكمن أوهاق الخوف . . ترى ما الذى ينتظرهم بعد قليل؟! . . وقد ذاقتا العناء بعد العناء حتى طوعا القلوب والنفوس والأجساد . . طوعاها لتعيش فى

هذا العالم الشاق الرهيب. . وقد بذلتا ما بذلتا لا ستئناس محيطهما الصغير بدرجة تمكن للعيش من خلاله أن يمر؛ فهل بعد هذا الجهد والمجاهدة من طاقة لخوض هموم عالم جديد. . عالم يقول عنه هذا الوحش إنه الجحيم! . . وحين يكون ماهم فيه من العذاب جنة، فكيف يكون إذن ذلك الجحيم؟!

يشد انتباهها هذا التزاوج العجيب بين مصائبهم الخاصة فى أنفسهم ومصائب هذا الوطن التعس! . . تذكر جيدا ذلك التلازم الذى أحست به منذ بعيد فى حياة أسرتها. . حين كانت لا تعى له سببا معقولا! . . حين كانت تضيق ببيتها وأهلها حين يفسدون أفراح حياتهم بالأحداث العامة. . حين كانت تسخط وتبكى لإلغاء رحلة مبتغاة أو نزهة محببة أو لقاء يهفو له قلبها من أجل خبر أذيع أوكارثة عامة وقعت! . . هل كان ذلك كله تدريبا لها حتى قبل الوعى، لخوض هذا الدور الثقيل. . . لأن تلتحم حياتها، نومها وصحوها، صفوها وكدرها، يسرها وعسرها، وكل كبيرة وكل دقيقة فيها بأمر هذه القضية الكبرى؟! . . وهل من ضَرُورات السير فى هذا الطريق أن تلتحم حياة سالكيه به مثل هذا الالتحام؟! . . فما لها لم تلمح ذلك فى المسيرة من قبل؟ . . هل كان ذلك يا ترى نقصا فيها وغفلة منها. . هل كان نقصا فى عدة النصر؟! . . الآن تتبين لها معالم جديدة فى الطريق. . الآن تدرك شيئا جديدا من عدة المعركة الفاصلة بين الحق والباطل. . أن يكون المؤمنون وقضيتهم جسدا واحدا لا تشغلهم عن متطلباته أفراح ولا أتراح دنيا! . . الآن تدرك أن الله سبحانه لم يضعها فى هذا العذاب هنا إعناتا بغير جدوى! . . الآن

تعى الدرس جيدا فتستبشر بكل درس مضى وبكل درس يأتى، تلقيه عليهم رحمة السماء! . . ترى يأتى يوم تنقل فيه إلى قلوب صفت وتعلقت برحمة الله هذا العلم الغزير؟!

جاءها صوت الرفيقة الأم حاسرا مكلوما يقول:

ـ الوقت يمضى، والوحش الفاجر قد يأتى فى أية لحظة، علينا أن نكون مستعدين، علينا أن نلملم أشياءنا فلا نترك له مجالا تنفذ منه سفالاته!

أجابتها وقد أطلق الصوت المهموم فى قلبها شحنة من ألم وشحنة من عزيمة دافعة.

ـ يا أمى الحبيبة لا يشغل بالك شىء من هذا، فكل شىء قد أعد. . لقد أرجعت أشياءنا كلها إلى حقائبنا، وها نحن على استعداد لأى تحرك، ما ينقصنا إلا أن نضع أقدامنا فى أحذيتنا!

ـ لا ندرى أين تسوقنا أقدار الله!

ـ لا علينا يا أماه. . تسوقنا من حقل لنا فيه من الله فضل، إلى حقل آخر لنا فيه إن شاء الله من الله فضل. . «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء». . ألم يقل الله ذلك، ألم يقل إن ذلك فضله الذى يؤتيه الذين يجاهدون فى سبيله فلا يخافون لومة لائم؟

الكلمات فارهة مضيئة، ولكنها ترتد إلى الداخل فى دوى يشبه عواء الريح فى الفضاء القفر، ويندلح خوف غامض فى الحنايا كالذى يحمله غبش الغروب إلى حنايا القلب! . . ترى أين تسوقهما أقدار

الله؟! ترى أين يكون مثواهما حين يجن الليل هذه الليلة . . حين يمضى الليل ويطل على الدنيا صباح جديد؟! . . ويتسلل إلى الغور أسى غامض الملامح رغم تلألؤ الكلمات: «لم يعد لهما مأوى ولا قرار؛ حتى فى هذه الأدغال الرهيبة لا تملكان أمن الاستقرار فى مكان! . . ترى إلى متى يبقى هذا العسف الفاجر بالبلاد والعباد؟!».

خيم صمت عميق على أشبار الزنزانة الفارغة إلا من هذين الجسدين النحيلين ومن كومة المتاع القليل فى وسطها، ومن قلبين وجلين فى انتظار الرحيل إلى أقدار الله القابعة وراء ستر اللحظات . . وتوالت الصور واسترسلت أفكار حزينة تملأ الفراغ . . كم من الآلام قد امتصته هذه القلوب حتى تشبعت منها الشغاف؛ وكم من الذكريات قد ضمها هذا المكان الرهيب الحزين . . فكيف يكون يا ترى طعم الفراق!

قطع الصمت صوت الأم مفعما بالتعجب كأنما قد اكتشفت شيئا جديدا هذه اللحظة . . قالت موجهة إليها الحديث:

ـ ألم تلاحظى أن هذا البلاء الذى يصيب البلاد يأتى دائما بعد الضربة الوحشية التى تدبر للمؤمنين، حيث تقتل منهم الرؤوس ويكبل الباقون بالأغلال فى السجون وتكتم الأنفاس حتى لا يرتفع صوت؛ بل حتى لا يهمس صوت؛ وحتى لا يبقى فى الساحة غير صوت الكذب والنفاق . . فهل تراها مجرد الصدف؟! . . وهل فى هذا العالم شىء متروك للمصادفة؟!

ـ الله يعلم . . ولكنها ظاهرة تلفت النظر دون شك!

ومن جديد خيم الصمت، ولكنه صمت مغرق فى التأمل، ثرى بالتفكير.. حقا.. لماذا يتواكب الحدثان دائما؟!.. لماذا تأتى هجمة العدو دائما تالية لما تفعله «محاكم التفتيش» الحديثة بالمؤمنين.. وبالمؤمنين وحدهم دون سواهم؟!

تتذكر ذلك التقرير الذى سمعت عنه مرارا وهى فى أسرتها، ذلك الذى يتحدث عن تقسيم مياه الأردن بين أصحاب الحق وبين الدولة اللقيطة، والذى يقول آخره أنه مشروع بالغ الأهمية لتلك الدولة ولكنه لا يمكن أن يتم والجماعة «المتعصبة» موجودة ولها نشاط!.. هذا التقرير الذى تلته بعد فترة وجيزة الهجمة الشرسة الأولى على هذه الجماعة؛ والتى قتل فيها العشرات وسجن الألوف وعذب عشرات الألوف حتى التلف وخربت البيوت وشردت النساء ويتم الأطفال.. تلك التى امتد أوارها حتى لحقتها هذه الثانية والمؤمنون ما يزالون فى سجونهم!.. إن عامين فقط قد انقضيا بعدها حتى كان الهجوم الذى ذهبت ضحيته سيناء؛ والذى بسبب نتيجته التعسة بقى العدو ما شاء له المجرمون أن يبقى فى ذلك اللحم الحى من جسد الوطن حتى أتم أغراضه منه جميعها؛ حتى أنهى مسحه الشامل لكل ما فى هذه الأرض من ثراء؛ تمهيداً أو إعداداً للمستقبل!.. وها هى الدورة الثانية تأتى ولمّا يَنْقَض العامان على بدء هذه الملحمة الثانية التى فصلت فيها الرؤوس ويُتّم الجسد.. وها هو العدو يجوس فى قلب الوطن.. يوغل فى الأرض حتى يربض على ضفة القناة وقد طوى بين فكيه السامّين تلك الأرض الثمينة العزيزة.. أرض سيناء!

فأما تلك التى سبقت فى التاريخ حين مزقت أرض المسلمين على عين الجميع فقد حدثنا عنها التاريخ وحكى لنا كيف جىء بجند الله الذين طاردوا العدو الباغى بعد أن استسلمت الجيوش بالخيانات، وحتى كادوا أن يخرجوه من الأرض. . كيف جىء بهم مصفدين فى السلاسل بعد أن ضربوا من الخلف؛ إلى سجون الصحراء جزاء لهم على ما فعلوا بأعداء الله! . . أفيمكن أن يكون ذلك كله من محض الصدف؟! . . ألا يستلفت هذا كله النظر ويستدعى البصيرة أن تمد الخيوط إلى أعماق الماضى واستشراقات المستقبل؟! فأين الناس؟! لماذا يقف الناس كالجماد المسخر، لا يبصر ولا يفكر ولا ينبس ببنت شفة؟! . . أتراهم فى غفلة سادرون؟ أم أن الرعب المنثور فى كل صوب يخرس كل صوت! أم أن لقمة العيش قد أغلقت الأفواه واستهلكت القوى؛ أم أن الجمع كله قد غدا كالقاصر اليتيم لا دخل له فيما يدور! كالعبيد يُقضى فى أمرهم وهم غائبون؛ ويصطلون العذابات والهوان وهم راضون تحت سطوة السوط القاهر!

قطع شريط الأفكار صوت الرعب الذى يجلجل فى الخارج؛ يقترب رويدا رويدا من المبنى؛ ينذر بنقطة الصفر إلى الرحلة الغامضة! . . دق قلبها دقات متتالية راجفة ونزف فى الأعماق خوفا مكتوما: «ها قد حانت ساعة الرحيل المخوف . . إلى المجهول الغامض . . وما أضعف الكيان الذى ذاق وعانى أمام المجهول الغامض» . . بل . . «ما أقواه وقد ألف ذلك المجهول الغامض وتعايش معه مرات بعد مرات» ! . . صعد ذلك الصوت الهادر ملحا

من الأغوار البعيدة . . من أعماق الرجفة ومن أعماق الخوف . . «لماذا . . ومم تخافين . . ولم يعد فى جعبة الشيطان شىء جديد يجلب الخوف . . وقد فقدت فى دنياك من قبل كل ما تشرى به الدنيا . . ماذا يضيع فى الغد أكبر مما ضاع . . علام تحرصين فى هذه الدنيا وقد وهبتها كلها لمعطيها وتجرد قلبك لله الواحد القهار» . . ماذا يكون فى الغد؟! . . يكون ما يكون . . وهل يكون إلا ما يقدره الله؟! أم أن للعدو الفاجر بفجوره قدرة تتخطى قدر الله . . ألا يكونون إذن ـ فى أى موقع كان ـ هم فى قدرة المالك الحق، وفى رحمة الرحمن الرحيم . .

حين اندفق ضوء النهار من الخارج إلى جو الزنزانة، وحين ارتطم الباب الحديدى الثقيل بصفحة الجدار المجاورة بفعل القبضة العاتية كانت هى قد غدت رابطة الجأش، تحمل ملامح وجهها سمتا هادئا تظلله بسمة خفيفة تحمل معنى اللامبالاة أثارت التحدى فى وجه النمر المتربص . . قال:

ـ سوف تعرفان بعد دقائق إلى أين أنتما ذاهبتان!

ـ . . . .

ـ هل تعرفان إلى أين أنتما ذاهبتان؟!

ـ الله يعلم، وهو الولى النصير . .

ـ هه! . . لو كان ناصركم لنصركم من قبل . . لقد فعلنا بكم كل ما أردناه . . وقد نصرنا عليكم ولم ينصركم!

ـ من قال إنه لم ينصرنا؟ . . لو كان قد خذلنا لاستجبنا لمساوماتكم!

ـ سوف تعلمون غدا ما هى «مساوماتنا»! وسوف تندمون على حماقتكم! . . ستعرفون أنكم لن تروا نور الحياة بعد اليوم! . . لن تخرجوا من هذه السجون إلا إلى مقابركم!

ـ الله يفعل ما يشاء ويختار . . والله هو وحده الفعال المهيمن .

ـ ستعرفون غدا من الذى بيده الأمر!

حدقت فى الوجه المحتقن بالغيظ وفى عينيها تعجب مفزِّع . . هل غابت عن هذا المسكين هذه البديهية اليقينية! . . هل نسى تماما أن الأمر كله لله من قبل ومن بعد؛ وأن شيئا فى هذا الكون لا يتم إلا بإذنه؟! . . وهل يعتقد حقا أن أمر الخلق بأيديهم وأيدى سادتهم مهما تعاظمت قدراتهم على الشر، ومهما مد الله لهم فى طغيانهم . . ولكن ألم يقلها «النمرود» من قبل وظن أنه يحيى ويميت! . . هل يمكن أن يهوى إنسان ولد من أبوين «مسلمين» أيا كان نوع إسلامهما ومستواه، إلى هذا الحضيض؟!

انتزعها من فكرها المتشعب فى الأودية صوته يهدر بالويل والثبور وبالسباب الغليظ، آمرا إياهما أن تحملا متاعهما وتتبعاه!

يا ألله . . حتى هنا . . حتى فى موطن القهر الكريه يألف القلب ويأسى للفراق! . . العينان تجولان فى المكان وينبض القلب بشجن دفين . . هنا عاشت أعز آلامها، وانسكبت هنا أعز دموعها . . وهنا

نبض قلبها بأروع نبضاته متوجها إلى الله وهنا غمر روحها أنس قرب قدسى ندّى شواظ القفر الرهيب . .

يجــوس بصــرها فى الأرجــاء التى امــتــلأت بهـــا الأعين زمنا . . ليحفظها . . لتبقى صورتها حية فى القلب، تؤنسه فى عالم الغربة الجديد، فى المجهول المخيف الذى تدثره السُتُّر!

العربة ماثلة أمام باب المبنى! . . ما أحط فعل الطغاة، الكبار منهم والصغار! . . عربة لحمل الأحجار أو لنقل الماشية! . . تقصر القامات النسائية عن أن تتسلقها . . لتفعل، لا بد لها من انحسار الغطاء السابغ وانكشاف العورات . . لابد لها من أن ترفعها أذرع الرجال! . . ألا لعنة الله على الظالمين!

حين تقع الأقدام على أرض العربة الواسعة تأخذهما حيرة تائهة : ماذا تفعلان؟! . . كيف تجلسان فى هذا الفراغ الذى لا يحده حاجز؛ وليس هناك مقعد ولا جزء ناتئ فى أى بقعة من جدران العربة؟! . . كيف تقفان طوال الطريق الذى لا تدريان مداه؛ وكيف تسير بهما العربة وسط الخلائق وهما منكشفتان هكذا كأنهما بضاعة مباحة؟!

ظلتا لحظات واقفتين حتى جاءهما الصوت الآمر من تحت يأمرهما بالجلوس على أرض العربة فينتزعهما من لجة الحيرة! . . تتحرك العربة إلى المجهول . . يا ألله لطفك! فكيف تبقيان فى مكانهما؟! . . كيف وليس هناك ما تمسكان به! . . ولا ما يقيهما من التأرجح والانزلاق فى طول فراغ لا يقطعه حاجز؟! . . كيف تحميان أنفسهما عن أن تتخبطا . . أن ترتطما بالجدران الصلبة . . أن تتدحرجا فى

طول الفراغ وعرضه . . أن تتحطم منهما العظام . . أم أنها رحلة مقصودة للموت بعد كل تعذيب مستطاع!

انتفضتا واقفتين! . . أيديهما تتشبث بطرف الجدار وتتشبث أقدامهما بأرض السيارة! . . العربة تقطع الفراغ الشاسع بين المبانى المتناثرة . . تحدق عيناها المجهدتان فى المبنى الذى كان موطنا منذ دقائق، وهو يبتعد رويدا رويدا . . أسى طافح يطفو فوق كل المشاعر؛ كل الفكر؛ يغرق القلب فتنسال الدموع . . على البعد يتراءى المبنى الآخر الذى اخترق الحنايا البعيدة واستقر هناك . . هناك كان آخر لقاء مع الحياة قبل أن تغيض فى عيشها . . قبل أن يغتالها المجرمون من وجودها . . كانت آخر نظرة إلى الوجه السمح الودود الذى غاب عن حياتها . . إلى العينين الحانيتين تحملان إلى وجودها كنه وجوده . . الآن تودع الوجود كله حين تودع المكان الذى حفل أياما بثراء الوجود . . الآن تودع حتى الذكرى . . حتى ظلال الوجود الباهتة التى كانت قد تبقت! . . تغادر العربة التى لا تعبأ بشىء مما يدور، تغادر الفناء . عند آخره . . ينفتح الباب الهائل المروع وتدلف من بين فكيه العربة خارجة، وينهال دمع غزير يغرق ما تبقى عندها من وجود . .

يأتيها صوت الرفيقة ينفس عن كره دفين . . يهدر بالسخط على المكان كله وعلى ساكنيه . . ينسال صوتها مليئا بالشجن:

ـ لماذا يا أماه . . لماذا وفيه ترفع الدرجات وتحط الخطايا!

الفهـــرس

رقم الإيداع: ١٦٦٢٥/٩٩

I.S.B.N. : 977 - 09 - 0594 - 1

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ٨١٧٢١٣ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)